أو الآلة أو أى من أدوات الإنتاج الأخرى أن تضيف قيمة مقدارها أكبر مما لهذه الأدوات ومستقلة عن عملية العمل التى تقوم بدور فيها) .

لنفرض أن هذه تكلفت ١٥٠ جنيهاً أو ٥٠٠ يوم من أيام العمل ، فإنها لا تضيف إلى المنتج الكلى الذى تشترك فى عمله أكثر من ١٥٠ جنيهاً . إن الذى يعين قيمتها ليس عملية العمل التى تدخل فيها كأداة إنتاج وإنما تعينها عملية العمل التى تخرج منها على هيئة منتج . إن أداة الانتاج تقوم في عملية العمل بدور قيمة استعمالية أى شىء ذى صفات نافعة ، ولهذا لا تستطيع أن تنقل إلى المنتج أية قيمة إن لم تكن لها هى ذاتها قيمة قبل دخولها فى عملية العمل (١) .

= التى يجرى اصلاحها لم تعد تقوم بوظيفة أداة العمل ، والعمال لا يستخدمونها لأداء عملهم نظراً لأن الغرض من عملهم أن يعيدوا اليها قيمتها الاستعمالية . ويكفى بصدد أعراضنا الحالية أن نعد مثل هذه التصليحات داخلة فى مقدار العمل اللازم لانتاج أدوات العمل . والتآكل الذى نقصده (فى النص) هو النوع الذى لا علاج له والذى ينتهى تدريجاً بالفناء أى ,, ذلك النوع الذى لا يمكن اصلاحه من وقت لآخر ، ومثال ذلك السكين الذى تصل الى حالة تصبح فيها لا تساوى نصلا جديداً ،، . أوضحنا (فى المتن) أن الآلة تشترك بكليتها فى كل عملية عمل ، أما فى عملية خلق القيمة (وهى التى تحدث مع الأولى فى نفس الوقت) فانها تشترك جزءاً جزءاً . فاذا ما تذكر القارىء هذا أمكنه أن يدرك الاضطراب فى العبارة التالية ،، يقول المستر ريكاردو ان جانباً من عمل المهندس فى صنع الجوارب (الآلات) تتضمنه قيمة زوج من الجوارب ,, الا أن العمل الكلى الذى أنتج كل زوج واحد ... يتضمن كل عمل المهندس لا جزءاً منه ، لأن آلة واحدة تصنع عدة أزواج ولا يمكن أن يكون زوج منها قد تم صنعه دون أى جزء من الآلة،،

Observations on certain Verbal Disputes in Political Economy, particulary relating to Value and to Demand and Supply,

(لندن ١٨٢١ ص ٥٤) . وهذا الكاتب المدعى الحكمة على حق الى هذا الحد فقط حين يقول إن ريكاردو ومن سبقوه أو تبعوه من الاقتصاديين لم يميزوا بدقة مظهرى العمل هذين ، ولا الدور الذى يلعبه العمل فى تكوين القيمة فى ظل كل من المظهرين .

(١) وعلى ذلك يستطيع القارىء ادراك تفاهة وسخف ما يقوله ج . ب . ساى حين يحاول تعليل نشأة القيمة الفائضة (الفائدة ، الربح ، والريع) على أنها نتيجة مترتبة على الخدمات الانتاجية التى تؤديها أدوات الانتاج (الأرض ، العدد ، الجلد الخ) بواسطة قيمتها الاستعمالية فى عملية العمل . ويقول الهر وليم روشر ,, إن ج . ب ساى (ج ١ ، فصل ٤) يلاحظ بحق أن القيمة التى ينتجها معمل للزيت شىء جديد يختلف تماماً عن العمل الذى تم بواسطته بناء المعمل ، وذلك بعد أن نخصم من هذه القيمة كافة التكاليف ،، (المصدر سابق ص ٦٢ حاشية) — حقاً ! ان ,, الزيت ،، الذى أنتجه المعمل شىء يختلف تماماً عن العمل الذى بذل فى بناء المعمل . حين يتحدث الهر روشر عن القيمة فانه يفكر فى مواد من أمثال ,,لزيت ،، لأن ,,الزيت،، له قيمة بينما الزيت المعدنى,, موجود فى الطبيعة =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حينما يحول العمل الانتاجى أدوات الانتاج إلى العناصر التى يتكون منها المنتج الجديد فإن نقل القيمة يكون مصحوباً بهجرة أرواح بمعنى أن روح الجسم القديم الذى استهلك ينتقل إلى الجسم الذى تكون حديثاً ، ولكن هذا التحول الروحى إنما يقع من وراء ظهر العمل الفعلى دون أن يدرى به . فالعامل لا يستطيع أن يضيف عملا جديداً أو بعبارة أخرى لا يستطيع أن يخلق قيمة جديدة دون أن يحفظ القيم القديمة إذ لا بد له من أن يضيف دائماً العمل بشكل نافع ومن نوع مخصوص ولا يتسنى له إضافته بشكل مفيد إلا باستخدام المنتجات كأدوات لإنتاج منتج جديد وبذا ينقل قيمة الأولى إلى الثانية . وعلى ذلك فهذه هبة من الطبيعة تستطيع بواسطتها قوة العمل العاملة أى العمل الحر المحافظة على القيمة بإضافة قيمة ، وهبة طبيعية لا تكلف العامل شيئاً ولكنها ذات نفع كبير للغاية بالنسبة للرأسمالى إذ تحافظ على قيمة رأسماله الموجودة من قبل (١) . وطالما كانت التجارة فى حال طيبة فان انهماك الرأسمالى فى تجميع المال يحول بينه وبين ملاحظة هذه الهبة الطبيعية ، ولكنه يحس بها حينما تنشأ اضطرابات تعرقل عملية العمل ، وبمعنى آخر حين تقع الأزمات (٢) .

= ولو أن ذلك ,, بكميات صغيرة نسبياً ،، . وهى الحقيقة التى يبدو أنه يشير اليها حين يقول ,, تكاد الطبيعة لا تنتج أى قيمة تبادلية ،، . وحسب رأى الرجل يشبه موقف الطبيعة من القيمة التبادلية موقف الفتاة التى تعتذر عن طفلها غير الشرعى بقولها انه ,, صغير ،، . ويواصل نفس ,, العالم المتبحر ،، كلامه قائلا ,, جرت عادة مدرسة ريكاردو أن تجعل رأس المال نوعاً من العمل باسم عمل متجمع ، وهذا خطأ جسيم لأن صاحب رأس المال يفعل شيئاً أكثر من مجرد خلق نفس الشىء والمحافظة عليه ، فهو يمتنع عن التمتع به ولهذا مثلا يطالب بفائدة ،، (شرحه) — حقاً لقد خلت من الأخطاء هذه الطريقة ,, التشريحية الفسيولوجية ،، فى دراسة الاقتصاد السياسى ، وهى الطريقة التى تستطيع فعلا ,, خلق ،، القيمة من مجرد ,, الرغبة ،، !

(١) يقول ادمند برك Thoughts and Details on Scarcity, originally presented to the Rt. Hon. W. Pitt in the Month of November 1795, London 1800 p. 10 — ,,من بين الأدوات التى تستلزمها حرفة الفلاح ، بعد عمل الانسان .. الأداة التى عليه أن يعتمد عليها كى يحصل على ثمن استخدام رأس ماله . أما الأداتان الأخريتان وهما الماشية ... والعربات والمحاريث والمجارف الخ - فلا تعد شيئاً بدون جزء من الأداة الأولى ،، .

(٢) نجد فى عدد التيمس الصادر فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٦٢ صاحب مصنع به ٨٠٠ عامل ويستهلك فى المتوسط ١٥٠ بالة من القطن الهندى أو ١٣٠ من الأمريكى ، يشكو من فداحة النفقات الدائمة حين يتوقف مصنعه عن العمل . وتشمل هذه النفقات عناصر لا تعنينا هنا مثل الايجار والرسوم والضرائب والتأمين ومرتبات المدير وكاتب الحسابات والمهندس الخ . وقد حسب الرجل ١٥٠ جنيهاً ثمناً للفحم المستهلك فى تدفئة المكان وادارة الآلات بضع دقائق بين وقت وآخر . يضاف الى ذلك أجور العمال المشرفين على ادارة الآلات ، وأخيراً هناك ١٢٠٠ جنيه لاستهلاك المؤسسة =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وفيما يختص بأدوات الانتاج فالذى يستهلك هو قيمتها الاستعمالية وعن طريق هـــذا الاستهلاك يصنع العمل المنتجات . غير أن قيمتها لا تستهلك فى الواقع(١) ولذا لا يمكن القول بأنه يعاد إنتاجها من جديد . إنها تحفظ لا بسبب أى عمـل تتعرض له فى عمليـــة العمل بل لأن القيمة الاستعمالية التى وجدت فيها من قبـل تختفى لتعود إلى الظهور فى قيمة استعمالية جديدة . وعلى ذلك فقيمة أدوات الانتاج ، تعود إلى الظهور ، فى قيمة المنتج ، ولـكن لا يعاد إنتاجها ، إذا شئنا الدقة فى القول . إن الذى يتم إنتاجه هو القيمة الاستعمالية الجديدة التى تظهر القيمة التبادلية القديمة فيها ثانية(٢).

ويختلف الأمر فى حالة العامل الموضوعى فى عملية العمل ويقصد به قوة العمل وهى تؤدى مهمتها . فبينما أن العمل لـكونه هدفاً مقصوداً ، ينقـل قيمة أدوات الانتاج إلى المنتج ويحفظ تلك القيمة ، فانه لا ينقطع عن خلق قيمة إضافية أى قيمة جديدة .

لنفرض أن عملية الانتاج توقفت فى اللحظة التى أنتج فيها العامل معادلا لقيمة قوته على العمل ، ولنفرض مثلا أنه بواسطة عمل ست ساعات أضاف قيمة قـدرها ٣ شلنات ، فهذه القيمة عبارة عن زيادة قيمة المنتج على القيمة التى يتضمنها بصفتها نقل من أدوات الانتاج . إنها المقدار الأصلى وحده من القيمة التى تكونت خلال هذه العملية ، أى الجزء الوحيد من قيمة

= نظراً لأن الطقس ومبادىء التآكل الطبيعية لا يتوقف فعلها لأن الالة البخارية انقطعت عن الدوران . وقد صرح بأن مبلغ ١٢٠٠ جنيه ضئيل جداً لأن الالات كانت قد بليت حينئذ .

(١) الاستهلاك الانتاجى حيث يكون استهلاك السلعة جزءاً من عملية الانتاج ... ففى هذه الأمثلة استهلاك القيمة ـ س. ب. نيومان ص ٢٩٦ .

(٢) فى كتاب أمريكى طبع عشرين مرة نقرأ ما يلى ,,ولا يهم الشكل الذى يظهر فيه رأس المال من جديد. وبعد أن عدد الكاتب كافة عناصر الانتاج الممكنة التى تعود قيمتها الى الظهور فى المنتج ، قال مختتماً أقواله ,, تتغير كذلك مختلف أنواع الغذاء والكساء والمأوى مما لابد منه لبقاء الانسان ورفاهيته ، فهذه جميعاً تستهلك من وقت لآخر وتعود قيمتها الى الظهور (ف . ويلاند : مصدر سابق ص ٣١—٣٢) وبغض النظر عن المظاهر البارزة الأخرى فى هذه العبارات أقول ان ما يعود الى الظهور فى الطاقة المتجددة ليس ثمن الخبز وانما مواده التى تكون الدم . ومن جهة أخرى فالذى يعود الى الظهور كقيمة الطاقة ليس وسائل العيش بل قيمة هذه الوسائل ، فنفس وسائل العيش قد تنتج نفس المقدار من العضلات والعظام الخ اذا لم تتكلف سوى نصف ما تتكلفه ، وبكلمة واحدة انها قد تنتج نفس القدر من الطاقة ولكنها لا تنتج طاقة لها نفس القيمة . هذا الاضطراب بين ,,القيمة،، و ,, الطاقة ،، الى جانب الغموض الواضح فى كلام الكاتب ، عبارة عن محاولة (عابثة فى النهاية) لتفسير القيمة الفائضة على أنها راجعة الى مجرد عودة قيم موجودة من قبل الى الظهور .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المنتج التى يتم إنتاجها فعلا بواسطة عملية العمل المخصوصة هذه . وبرغم هـذا فانها لا تصلح إلا لتحل محل مبلغ النقود الذى دفعه الرأسمالى في شراء قوة العمل ، أو مبلغ النقود الذى ينفقه العامل نفسه على ضروريات الحياة . وفيما يتعلق بهذا الإنفاق للشلنات الثلاث فان القيمة الجديدة وقدرها ٣ شلنات تبدو على أنها مجرد إنتاج من جديد ولكن هذا المقدار من القيمة لايعاد إنتاجه فى الظاهر فحسب كما هو الشأن بالنسبة إلى قيمة أدوات الانتاج . إن إبدال قيمة بأخرى يتم هنا عن طريق خلق قيمة جديدة .

وبرغم هذا فإننا نعلم أن قوة العمل تدوم إلى ما بعد اللحظة التى أعادت فيها إنتـاج مجرد معادل لقيمتها والتى أضيف فيها هذا المعادل إلى المادة التى يتناولها العمل . قد تكفى ست ساعات من العمل لهذا ولكن عملية العمل تدوم إثنى عشرة ساعة مثلا ، وقيام قوة العمل بأداء وظيفتها لا يقف عن حد إعادة إنتاج قيمتها وإنمـا ينتج قيمة زيادة على ذلك . مثل هذه القيمة الفائضة تمثل زيادة قيمة المنتج على قيمة العنـاصر التى استهلكت فى تكوينه وبعبارة أخرى زيادة على قيمة أدوات الانتاج وقوة العمل .

حين نشرح الأدوار المختلفة التى تقوم بها مختلف عوامل عمليـة العمل فى تكوين قيمة المنتج فإننا فى الواقع نشرح الوظائف المتنوعة التى تتميز بها مختلف العناصر المكونة لرأس المال فى العملية التى يعمل بواسطتها على امتداد قيمته . إن زيادة قيمة المنتج الكلية على مجموع قيمة العناصر التى يتكون منها ، عبارة عن زيادة رأس المـال المتمدد على رأس المال الذى قدمه صاحبه فى بداية الأمر ، وما وسائل الانتاج من جهة وقوة العمل من جهة أخرى إلا أساليب الوجود المتنوعة التى اتخذتها قيمة رأس المال الأصلى حـــين خرجت من شكلها النقدى وتحولت إلى عوامل عملية العمل .

نتيجة لهذا لا يطرأ أى تغيير أثناء عملية العمل على حجم قيمة ذلك الجزء من رأس المال والذى يتحول إلى أدوات إنتاج أى إلى مواد أولية ومواد إضافية وأدوات عمل . ولهـذا السبب أطلق عليه رأس المال الثابت constant .

ومن جهة أخرى تتغير قيمة ذلك الجزء الذى يتحول إلى قوة عمل ، فهو يعيد إنتاج معادل لذاته ثم قيمة فائضة متغيرة فى مقدارها بمعنى أنها قد تكون أكبر أو أصغر . هذا الجزء يتحول بلا انقطاع إلى حجم متغير ولهذا تحدث عنه باسم رأس المال المتغير variable . وهكذا نرى أن نفس عنصرى رأس المال اللذين يتميزان من وجهة نظر عملية العمل كعاملين أحدهما موضوعي والآخر ذاتى أى كأدوات إنتاج من جهة وقوة عمل من جهة أخرى ، يتميزان من وجهة نظر عملية

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

خلق فائض القيمة على أنهما رأس مال ثابت ورأس مال متغير .

ولا تستبعد فكرة رأس المال الثابت إمكانية حدوث تغيير فى قيمة الأجزاء التى يتكون منها . لنفرض أن رطلا من القطن يساوى ست بنسات بالأمس أصبح اليوم يساوى شلناً بسبب عجز فى المحصول ، فالقطن القديم الذى لا زال يغزل قد اشتريناه بسعر الرطل ست بنسات ولكنه يضيف إلى المنتج قيمة قدرها شلن فى الرطل . وعلاوة على هذا فالقطن الذى تم غزله والذى لعله فى حالة تداول بالسوق ، يضيف إلى المنتج من القيمة ضعف ما كان يفعله قبل الارتفاع فى الثمن . وسيرى القارىء أن هـــذه التغيرات فى القيمة مستقلة عن ذلك القـدر الزائد من القيمة الذى أضيف إلى القطن فى عمليـة الغزل . فلو أن القطن القديم الذى اشتريناه بسعر الرطل ست بنسات لم يدخل فى عمليـــة العمل لأمكن بيعه اليوم بسعر الرطل شلن بدلا من ٦ بنسات . بل وأكثر من هذا ، كلما قل عدد العمليات التى مر القطن خلالها عظم التأكد بامكان بيعه بهذا السعر المرتفع . ونتيجة لهذا حيما تحدث هذه التغيرات فى القيمة يفضل المضاربون أن يقامروا فى المواد التى بذل فيها أقل قـدر من العمل ، أى يقامروا فى الغزل أكثر منه فى القماش وفى القطن أكثر منه فى الغزل . والتغيير فى القيمة ينشأ عن العملية التى تنتج القطن وعن العملية التى فيهـا يؤدى القطن نفسه وظيفة أداة الانتاج وبالتالى يقوم فيها بدور رأس المال الثابت . حقيقة تتحدد قيمة السلعة بواسطة مقدار العمل اللازم فى ظل الأحوال الاجتماعية السائدة لإنتاجه (وحين يسوء المحصول فان نفس المقدار من القطن يمثل قدراً من العمل أكبر مما لو كان المحصول طيباً) فإن هذا يؤثر فى ذلك الجزء من السلعة الذى تم إنتاجه فى ظل الأحوال القديمة وهو الجزء الذى يعتبر دائماً عينة استثنائية من نوعه[1] نظراً لأن قيمة السلعة بصفة كلية إجمالية تقاس بالعمل اللازم إجتماعياً أى بالعمل اللازم فى ظل الأحوال الاجتماعية السائدة فى الوقت الحاضر .

وحتى إذا تغيرت قيمة المادة الخـام تغيرت القيمة التى تنطوى عليها أدوات العمل التى تؤدى وظيفتها فى عملية الإنتاج (كالآلات الخ) ، وهذا يؤثر فى ذلك الجزء من القيمة الذى تنقله أدوات العمل إلى المنتج . فإذا حـدث مثلا أن صار فى الإمكان بفضل اختراع جـديد إعادة انتاج آلات من نفس النوع ببذل مقدار أقل من العمل لترتب على ذلك هبوط قيمة

---

(١) جميع المنتجات التى من نفس النوع عبارة عن كل aggregate واحد تعين ثمنه اعتبارات عامة دون نظر إلى الظروف الخاصة ،، Trosne ص ٨٩٣ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الآلات القديمة وبذا تنقل إلى المنتج مقداراً أقل من القيمة . ولكن هنا كذلك ينشأ التغيير فى القيمة خارج العملية التى تعمل فيها الآلة كأداة إنتاج ، فإذا لم تشتبك الآلة فى تلك العملية فانها لاتستطيع أن تنقل مقداراً من القيمة أكبر مما لها بغض النظر عن العملية ، أى بعيداً عنها .

وكما أن أى تغيير فى قيمة أدوات الإنتاج لا يؤثر فى صفتها كرأس مال (وإن كان لهذا التغيير رد فعل عليها بعد دخولها فى عملية العمل) فكذلك أى تغيير فى النسب القائمة بين رأس المال الثابت والمتغير لا يؤثر فى الفارق بينهما الناشىء عن وظيفة كل منهما . فمثلا قد تتطور الأحوال الفنية إلى درجة كبيرة جداً بحيث أن عاملا واحداً الآن بمساعدة آلة عالية الثمن يستطيع أن يصوغ من مادة أولية مقداراً أكبر مائة مرة مما كان يستطيعه عشرة عمال يستخدمون عشر أدوات قليلة الكلفة . ففى هذا المثل زيد رأس المال الثابت أى القيمة الكلية لأدوات الإنتاج إلى حد كبير بينما خُفض إلى حد كبير رأس المال المتغير الذى يدفع لشراء قوة العمل . ولكن مثل هـــذا التغيير يؤثر فقط فى الحجم النسبى لرأس المال الثابت ورأس المال المتغير أى يؤثر فقط فى النسب التى ينقسم إليها رأس المال الكلى إلى ثابت ومتغير ، ولكنه لا يؤثر فى التمييز بين رأس المال الثابت ورأس المال المتغير .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل السابع

معـــدل فائض القيمة

١ — درجة استغلال قوة العمل

إن فائض القيمة الذى يولده أثناء عملية الانتاج رأس مال نرمز له بالحرف أ أو بعبارة أخرى التمدد الذاتى لرأس المال المستخدم فى هذه العملية ، يبدو لنا فى أول الأمر عبارة عن مبلغ زيادة قيمة المنتج على مجموع قيم العناصر التى يتكون منها .

ويتكون رأس المال أ من جزئين : مبلغ من النقود « ب » ينفق على أدوات الانتاج ، وآخر « حـ » يصرف على قوة العمل ، ومن هنا يمثل ب جزء القيمة المحول إلى رأس مال ثابت ويدل حـ على ذلك الجزء الذى يحول إلى رأس مال متغير . وعلى ذلك فإن أ = ب + حـ أى أن رأس المال ومقداره ٥٠٠ = ٤١٠ جنيه رأس مال ثابت = ٩٠ جنيه متغير . وفى ختام عملية الانتاج نجد لدينا سلعة قيمتها = (ب + حـ) + ى (فائض القيمة) ، وباستخدام الأرقام السالفة الذكر نجد قيمة السلعة = (٤١٠ جنيه رأس مال ثابت + ٩٠ جنيه متغير) + ٩٠ جنيه فائض قيمة ، فكأن رأس المال الأصلى تغير من أ فصار آ أى من ٥٠٠ جنيه الى ٥٩٠ جنيه ، والفرق بين الاثنين عبارة عن ى وهى فائض القيمة ومقداره ٩٠ جنيه . ولما كانت قيمة العناصر المكونة للمنتج مساوية لقيمة رأس المال المدفوع في الأصل ، فمن اللغو القول بأن زيادة قيمة المنتج على قيمة عناصره التى يتكون منها مساوية لتمدد رأس المـــال الأصلي أو لفائض القيمة الذى تم إنتاجه .

ومع ذلك يستأهل هذا اللغو قـدراً أكبر من إمعان النظر والبحث . إن الشيئين اللذين نوازن بينهما هما قيمة المنتج وقيمة العناصر التى يتكون منها وتستهلك فى عملية الانتاج . وقد رأينا أن ذلك الجزء من رأس المال الثابت والذى يتكون من أدوات عملية العمل لا ينقل إلا قسما من قيمته إلى المنتج ، بينما تظل بقية تلك الأدوات محتفظة بشكلها القديم وهذه يمكن إغفالها مادامت لاتلعب دوراً فى خلق القيمة ولأن إدخالها فى الحساب لايسبب أى اختلاف .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لنفرض أن ب = ٤١٠ جنيه مكونة من مواد خام بمبلغ ٣١٢ جنيه ومواد إضافية قدرها ٤٤ جنيه وبلى آلات قدره ٥٤ جنيه مع اعتبار أن القيمة الكلية للآلات المستخدمة ١٠٥٤ جنيه . والذى يعنينا من المبلغ الأخير هو رأس المال المقدم بقصد اخراج المنتج ، ومبلغ ٥٤ جنيه الذى يضيع بسبب استهلاك الآلات خلال العملية والذى ينقل بناء على هذا إلى المنتج . ولو شئنا حسبان مبلغ الألف جنيه الذى يظل موجوداً فى شكله القديم على هيئة آلات بخارية الخ لتعين علينا أن نذكر هذا البند فى جانبي الحساب أى فى جانب القيمة المقدمة وجانب قيمة المنتج[1] وبذا نحصل على ١٥٠٠ ، ١٥٦٠ جنيه على التوالى . ولهذا حين نتحدث عن رأس المال الثابت المقدم لإنتاج القيمة سنقصد بذلك دائماً (إلا إذا ذكر خلاف هذا) قيمة أدوات الإنتاج التى تستهلك فعلا فى العملية ، ولا نقصد سوى تلك القيمة .

وإذ نتفق على هذا نعود إلى الصيغة ا = ب + ح وهى التى تحولت كما رأينا فصارت أَ = (ب + ح) + ى وفيها أصبحت أَ . ونعلم أن قيمة رأس المال الثابت تنقل إلى المنتج وتعود إلى الظهور فيه ، وعلى ذلك فالقيمة الجديدة التى تخلق فعلا فى العملية أى القيمة المنتجة أو منتج القيمة تختلف عن قيمة المنتج : وليست كما تبدو لأول وهلة (ب+ح)+ى أو (٤١٠ جنيه ثابت + ٩٠ متغير) + ٩٠ فائض ولكنها (ح + ى) أو (٩٠ جنيه متغير + ٩٠ فائض) أى أنها ليست ٩٥٠ بل ١٨٠ . وإذا كانت ب = صفر أى بعبارة أخرى إذا كانت هناك فروع من الصناعة يستطيع فيها صاحب رأس المال أن يستغنى عن جميع أدوات الانتاج التى هى ثمرة عمل سابق سواء كانت مادة خاماً أو مواد إضافية أو أدوات عمل ، وإذا لم يستخدم (إلى جانب قوة العمل) سوى المواد التى تقدمها الطبيعة مجاناً ، ففى هذه الحالات لما كان هناك رأس مال ثابت ينقل إلى المنتج ولاستبعد هذا العنصر من عناصر قيمة المنتج أى مبلغ ٤١٠ جنيه فى المثل الذى ضربناه ولكن مبلغ ١٨٠ جنيه أى مقدار القيمة المنتجة والتى تشمل ٩٠ جنيهاً من فائض القيمة تظل كما هى كما لو كانت ب تمثل أعلى قيمة يمكن تصورها . وإذن يكون لدينا ا = (صفر + ح) = ح ، أَ (رأس المال المتمدد) = ح + ى وبذلك أ — أَ = ى كما كان الأمر قبلا . ومن جهة أخرى إذا كانت ى = صفر أو إذا كانت قوة العمل التى تقدم قيمتها على هيئة رأس مال متغير لا تنتج إلا معادلها فقط

(١) «وإذا حسبنا قيمة رأس المال الثابت الذى يستخدم كجزء مما سبق تقديمه لوجب أن نحسب القيمة الباقية لمثل رأس المال هذ فى نهاية السنة على أنها جزء من الارباح السنوية» . مالثس : مبادىء الاقتصاد السياسى ، الطبعة الثانية ، لندن ١٨٣٦ ص ٢٦٩ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لكان ا = ب + ح ، أ' (قيمة المنتج) = (ب + ح) + صفر بمعنى أن ا = أ' وفى هذه الحالة لما تمددت قيمة رأس المال الأصلى .

ونعلم مما سبق شرحه أن فائض القيمة ينشأ فقط عن التغيير فى القيمة الذى يطرأ على ح وهو ذلك الجزء من رأس المال الذى تحول إلى قوة عمل ، ونعلم بذلك أن ح + ى = ح + △ ح (أى ح زائداً جزءاً منه) .

ولكن التغيير الحقيقى فى القيمة والنسبة التى تتغير بها تخفيهما الحقيقة التالية وهى أنه بسبب ازدياد رأس المال المتغير يزداد كذلك المبلغ الكلى لرأس المال الأصلى ، فقد كان هذا ٥٠٠ج فأصبح الآن ٥٩٠ ج . وعلى ذلك إذا كان تحليلنا صادقاً دقيقا وجب علينا أن نتجاهل تماما أمر ذلك الجزء من القيمة الذى يعود فيه رأس المال الثابت إلى الظهور ومعنى هذا أنه ينبغى لنا أن نجعل رأس المال مساوياً لصفر أى ب = صفر ، وليس هذا سوى تطبيق لقاعدة رياضية تستخدم فى حالة الأحجام المتغيرة والثابتة التى يتصل بعضها ببعض برموز الجمع والطرح وحدها .

وثمت صعوبة أخرى تنشأ عن الشكل الأصلى لرأس المال المتغير . ففى المثال السالف أ' = ٤١٠ ج رأس مال ثابت + ٩٠ ج رأس مال متغير + ٩٠ ج فائض قيمة ، ولكن ٩٠ ج تتضمن حجما محدوداً ثابتاً وعلى ذلك يبدو من السفه أن نعامل هذا المبلغ على أنه حجم متغير ، والواقع أن عبارة ٩٠ ج متغير إن هى إلا رمز للعملية التى تمر فيها هذه القيمة . فجزء رأس المال الذى يستثمر فى شراء قوة العمل عبارة عن مقدار محدود من عمل ذى صورة مادية وبذا فهو قيمة ذات حجم ثابت مثل قيمة قوة العمل المشتراه .

ولكن فى عملية الإنتاج تحل قوة العمل العاملة محل هذه الجنيهات التسعين أى أن عملا ميتا تحل محله قوة عمل حية أو حجم ثابت يحل محله حجم متغير ، والنتيجة إعادة إنتاج ح مضافاً إليه جزء منه . وسير الحوادث كله لا يتعدى فى نظر الرأسمالى كونه حركة ذاتية من جانب القيمة الثابتة فى الأصل والتى تحولت إلى قوة عمل ، وإلى هذا يعزى ما يحدث وكذلك النتيجة المترتبة عليه . وعلى ذلك إذا بدا تناقض بين عبارات من أمثال « ٩٠ ج رأس مال متغير » و « قيمة تتمدد تمدداً ذاتيا بمقدار كذا » فالسبب راجع إلى أنها تكشف الغطاء عن التناقض الكامن فى الإنتاج الرأسمالى .

وقد يبدو غريباً أن نجعل رأس المال الثابت مساوياً للصفر ، ولكن نفس الشىء يقع دائما فى الحياة اليومية . مثال ذلك أنه إذا أردنا أن نحسب مقدار الربح الذى يعود على انجلترا

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من الصناعة القطنية بدأنا باستقطاع المبالغ المدفوعة إلى الولايات المتحدة والهند ومصر وغيرها من البلدان ثمناً للقطن الخام ، وبعبارة أخرى نجعل قيمة رأس المال الذى يقتصر أمره على الظهور ثانية فى قيمة المنتج مساوية للصفر .

ومما له أهمية كبيرة جداً إذا تكلمنا من الوجهة الاقتصادية نسبة فائض القيمة لا إلى ذلك الجزء من رأس المال والذى ينشأ عنه مباشرة والذى يمثل التغيير فى قيمته فحسب ، بل وكذلك إلى المبلغ الكلى الذى يمثل رأس المال المقدم فى الأصل ، وسأعالج الموضوع بالتفصيل فى الكتاب الثالث .

فاذا كان لجزء من رأس المال أن يتمدد تمدداً ذاتياً عن طريق تحويله إلى قوة عمل ، لزم أن يتحول جزء آخر إلى أدوات إنتاج ، وإذا كان لرأس المال المتغير أن يؤدى وظيفته فلا بد من تقديم رأس المال الثابت بنسب ملاءمة أى بالنسب التى تتغير تبعاً للطابع الفنى لعملية العمل التى نعنى بأمرها . ولكن برغم أنه حين نقوم بإجراء تحليل كيماوى نستخدم أوعية فإننا نتجاهل أمرها حين نأخذ فى فحص نتائج التحليل ، كذلك حين نتأمل فى خلق القيمة وتغيير القيمة فى ذاتهما وبذاتهما (أى فى جوهرهما المجرد) فإن وسائل الانتاج أى الأشكال المادية لرأس المال الثابت لا تهيء لنا أكثر من المادة التى يمكن أن تنطوى فيها قوة العمل وهى تؤدى مهمتها ، أى قوة العمل التى تخلق القيمة . وعلى ذلك فماهية هذه المادة ليست بذات بال فقد تكون قطناً أو حديداً أو أى شيء ، وكذلك قيمة المادة لا يؤبه لها ، والشيء الوحيد المهم هو وجوب وجود قدر كاف منها ليمتص أى مقدار من العمل يبذل خلال عملية الانتاج . فإذا كان لدينا هذه الكمية فقد تعلو القيمة أو تهبط وقد تكون المادة عديمة القيمة كالأرض والبحر — ومع ذلك فهذه الاعتبارات لن تؤثر فى عملية إنتاج القيمة وتغييرها(١) .

بناء على ذلك نبدأ أولا بأن نجعل رأس المال الثابت مساوياً لصفر ، فيترتب على هذا أن يهبط رأس المال المستخدم فى الأصل من ب + ح إلى ح ، وتهبط قيمة المنتج (ب + ح) + ى إلى القيمة المنتجة ح + ى . فلو فرضنا أن القيمة المنتجة ١٨٠ ج وهذا المبلغ يمثل العمل المبذول خلال عملية الإنتاج كلها ، وجب علينا أن نطرح من هذا مبلغ ٩٠ ج الذى يمثل قيمة رأس المال المتغير حتى يتسنى لنا التحقق من فائض القيمة وقدره ٩٠ ج . هذا المبلغ

(١) يقول لوكريتيوس ,,ولا يمكن خلق شيء من لا شيء،، وهذا الأمر واضح وضوحاً ذاتياً . حين نتحدث عن ,, خلق القيمة ،، فاننا لا نقصد ,, الخلق ،، بمعناه الدقيق الذى تدل عليه العبارة ، وإنما نقصد تحويل قوة العمل الى عمل . ان قوة العمل من جانبها نشاط ينتقل من مادة مغذية الى جهاز انسانى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وهو ٩٠ ج أو ى يمثل الحجم المطلق لفائض القيمة الذى تم إنتاجه . ولكن حجمه النسبى أى النسبة المئوية لزيادة رأس المال المتغير تعينه النسبة بين فائض القيمة ورأس المال المتغير ويمثلها الكسر $\frac{ى}{ح}$. ففى المثال الذى ضربناه يعبر الكسر $\frac{٩٠}{٩٠} = ١٠٠$ ٪ عن هذه النسبة . هذه الزيادة النسبية فى قيمة رأس المال المتغير أو الحجم النسبى للقيمة الفائضة ، هو ما أطلق عليه عبارة معدل فائض القيمة (١) .

رأينا أنه خلال جزء واحد من عملية العمل لا ينتج العامل أكثر من قيمة ما يملك من قوة العمل ومعنى ذلك أنه ينتج قيمة وسائل العيش الضرورية له . وبما أنه يقوم بعمله بصفته منتجاً فى مجتمع يسوده التقسيم الاجتماعى للعمل لهذا لا ينتج ضروريات الحياة لنفسه مباشرة وإنما ينتج على هيئة نوع معين من السلع كالغزل مثلا قيمة تعادل قيمة وسائل العيش أو قيمة النقود التى يشترى الأخيرة بها ، ويزداد أو يقل طول ذلك الجزء من يوم العمل والذى يبذل بهذه الطريقة حسبما تكون قيمة متوسط مبلغ وسائل العيش التى يحتاج أكبر أو أصغر ، وبعبارة أخرى حسبما يطول أو يقصر متوسط وقت العمل اليومى اللازم لإنتاجها . فاذا كانت قيمة متوسط وسائل العيش التى يحتاجها فى اليوم تمثل ست ساعات عمل اضطر العامل أن يكد فى المتوسط ست ساعات يومياً لكى ينتج هذه القيمة ، وإذا كان العامل يشتغل لنفسه مستقلا وليس لصاحب رأس المال فان عليه أن يشتغل فى المتوسط ـ مع فرض تساوى الأشياء الأخرى ـ نفس هذا الجزء من يوم العمل حتى يتسنى له أن ينتج قيمة قوته على العمل وبذا يحصل على وسائل العيش الضرورية لبقائه واطراد تكاثره . ولما كان العامل خلال ذلك الجزء من يوم العمل حيث ينتج القيمة اليومية لما يملك من قوة العمل (ولتكن ٣ شلنات مثلا) لا ينتج أكثر من معادل قوة العمل التى دفع الرأسمالى المقابل عنها ، ولما كانت القيمة الجديدة التى يخلقها لا تفعل أكثر من أن تحل محل قيمة رأس المال المتغير الذى أنفق ، لهذا يبدو على إنتاج القيمة أنه لا يعدو كونه إنتاجاً من جديد أى إعادة إنتاج ، ولهذا فإن ذلك القسم من يوم العمل الذى يتم فيه مثل هذا الانتاج المعاد أطلق عليه اسم وقت العمل الضرورى كما أدعو العمل المبذول خلال هذه الفترة العمل الضرورى (٢)

(١) صغنا هذا الاصطلاح كما يفعل الانجليز وعلى نمط ,, معدل الربح ،، و ,, معدل الفائدة ،، الخ . وسنرى فى الكتاب الثالث أن من السهل علينا فهم معدل الربح اذا عرفنا قوانين القيمة الفائضة . أما اذا حاولنا معالجة المشكلة بالطريقة المخالفة لعجزنا عن فهم الاثنتين .

(٢) لقد استخدمت فى المؤلف الحالى حتى الآن عبارة ,,وقت العمل الضرورى ،، للدلالة على وقت العمل =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وهو ضرورى للعامل لأنه مستقل عن الشكل الاجتماعى لعمله ، وضرورى لصاحب رأس المال ولعالم رأس المال لأن استمرار بقاء العامل الأساس الذى يقومان عليه .

أما الفترة الثانية من عملية العمل أى الفترة التى يتخطى فيها العامل حـــدود وقت العمل الضرورى ، فانها تكلفه عملا وتتطلب منه بذل قوة عمل ولكنها لا تصلح لخلق أية قيمة له . إلا أنها تخلق قيمة فائضة تشع بابتسامة على الرأسمالى ولها سحر شبيه بسحر ذلك الشىء الذى يأتى من لاشىء . وإنى لأدعو هذا الجزء من يوم العمل وقت العمل الفائض وأطلق على جميع العمل المبذول فيه عبارة العمل الفائض .

فإذا كان علينا أن نفهم القيمة بوجه عام فمن الأهمية القصوى أن نتعلم أن ننظر إليها على أنها مجرد تجميد لوقت العمل أى أنها لا تزيد عن كونها عملا اكتسب الصورة المادية . ولكى نفهم فائض القيمة من المهم كذلك أن نعلم كيف ننظر إليه على أنه مجرد تجميد لوقت العمل الفائض أى أنه لا يعدو كونه فائض عمل اكتسب الصورة المادية . وإن الذى يميز مختلف أوضاع المجتمع الاقتصادية (كما يميز مثلا بين مجتمع قائم على أساس العبودية وآخر مرتكز على العمل الأجير) ليس سوى الطريقة التى ينتزع بها فائض العمل من المنتج الفعلى أى من العامل (١) .

=== اللازم فى ظل أحوال اجتماعية لانتاج السلع بوجه عام . ومن الان فصاعدا سأستعمل العبارة كذلك للدلالة على وقت العمل الضرورى اللازم لانتاج تلك السلعة الخاصة وهى قوة العمل . ان استعمال العبارات الفنية فى معـان مختلفة قد يضل القارىء ولكن لا يمكن تجنب ذلك فى أى علم من العلوم . أنظر مثلا الرياضة العالية والبسيطة .

(١) وصل الهر Wilhelm Thucydides Roscher إلى كشف باهر وهو أنه إذا كان تكوين فائض القيمه أو المنتج الفائض ومايعقب ذلك من تجميع راجعين اليوم إلى روح التوفر فى نفس صاحب رأس المال ,, الذى يحملنا على أن ندفع له فائدة ,, فمن جهة أخرى مجـد ,, فى العهود الأولى المبكرة من الحضارة ,, أن الأقوياء هم الذين يرغمون الضعفاء على الاقتصاد . ص ٧٨ وما الذى يقتصدونه ؟ أهو العمل ؟ أم أنه ثروة زائدة عن الحاجة ولم توجه بعد ؟ ولماذا يحاول أمثال روشر تفسير نشأة فائض القيمة بعبارات لا تعدو أن تكون تلخيصاً لما يبرر به الرأسمالى استيلاءه على القيمة الفائضة ؟ يرجع بعض السبب إلى جهل هؤلاء الكتاب حقيقة ، ولكنه يعزى من جهة إلى أنهم ممن يلتمسون الأعذار ولأنهم يتكهنون عن التحليل العلمى للقيمة وفائض القيمة ، فهم يخشون الوصول إلى نتيجة لا تميل إليها السلطات القائمة مطلقاً . ولو أن معدل فائض القيمة تعبير مضبوط عن درجة استغلال قوة العمل إلا أنه لا يعبر عن المقدار المطلق للاستغلال . فمثلا إذا كان العمل الضرورى === ٥ ساعات وفائض العمل === ٥ ساعات فان درجة الاستغلال ١٠٠ ٪ ، ويقاس مبلغ الاستغلال هنا بخمس ساعات . هذا من جهة من ، ومن جهة أخرى إذا كان العمل الضرورى === ٦ ساعات وفائض العمل === ٦ ساعات فان درجة الاستغلال لا تزال ١٠٠ ٪ بينما المقدار الفعلى للاستغلال زاد بنسبة ٢٠ ٪ أى من ٥ إلى ٦ ساعات .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بما أن قيمة رأس المال المتغير مساوية لقيمة قوة العمل التي يشتريها ، وبما أن قيمة قوة العمل هذه تحدد طول الجزء الضروري من يوم العمل بينما القيمة الفائضة من ناحيتها يعنيها طول القسم الفائض من يوم العمل ، لهذا تكون النسبة بين فائض القيمة ورأس المال المتغير متماثلة مع النسبة بين فائض العمل والعمل الضروري . وبعبارة أخرى معدل فائض القيمة وهو $\frac{ك}{ح} = \frac{\text{العمل الفائض}}{\text{العمل الضروري}}$ ، وهاتان النسبتان $\frac{ك}{ح}$ ، $\frac{\text{فائض العمل}}{\text{العمل الضروري}}$ يعبران عن نفس الأمر الواحد بطريقين مختلفين : أحدهما بعبارات من العمل المتجسم ذى الصورة المادية ، والآخر بعبارات من العمل الحي أى العمل فى حالة سيولة أو حركة .

فمعدل فائض القيمة إذن تعبير مضبوط عن درجة استغلال رأس المال لقوة العمل أو استغلال صاحبة للعامل .

لقد افترضنا أن قيمة المنتج كانت تساوى (٤١٠ جـ رأس مال ثابت + ٩٠ جـ رأس مال متغير) + ٩٠ جـ قيمة فائضة ، وأن رأس المال المستخدم ٥٠٠ جنيه وبما أن فائض القيمة ٩٠ جـ ورأس المال ٥٠٠ جـ يتعين علينا ، طبقا للطريقة المعتادة فى الحساب ، أن نستخلص أن معدل فائض القيمة (والذى يخلط عادة بينه وبين معدل الربح) كان ١٨٪ وهى نسبة منخفضة لاتسر أفئدة أمثال كارى وغيره من المغرمين بالتحدث عن انسجام المصالح بين العمل رأس المال .

ومع هذا فليس معدل فائض القيمة فى الواقع الفعلى عبارة عن $\frac{ك}{ر}$ أو $\frac{ك}{ر+ح}$ ولكنه $\frac{ك}{ح}$ وبذلك فهو ليس بمعنى أنه ١٠٠٪ أى خمسة أمثال درجة الاستغلال الظاهرية . ومع أننا فى الحالة التى ندرسها لانعلم الطول المطلق ليوم العمل ولا التقسيم الفرعى الزمنى لعملية العمل (إلى أيام أو أسابيع الخ .) أو عدد العمال الذين يقومون فى وقت واحد بإدارة رأس المال المتغير وقدره ٩٠ جـ بواسطة قابليته للتحول إلى $\frac{\text{فائض عمل}}{\text{عمل ضرورى}}$ ، فإن معدل القيمة الفائضة وهو $\frac{ك}{ح}$ يرينا بدقة النسبة بين جزئى يوم العمل وهذه النسبة ١٠٠٪ ، وهكذا نعلم أن العامل يشتغل النصف من كل يوم لنفسه والنصف الآخر لصاحب رأس المال .

وكى نصوغ المسألة فى صورة موجزة نقول إن طريقة حساب معدل فائض القيمة هى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

كالآتى . نأخذ قيمة المنتج الكلية و نعامل ذلك الجزء من قيمته الذى لا يمثل سوى تجدد ظهور قيمة رأس المال الثابت على أنه شىء لاوجود له ، فيكون المتبقى عبارة عن القيمة الوحيدة التى خلقت فعلا فى أثناء عملية إنتاج السلعة . فإذا عرفنا مقدار فائض القيمة فما علينا إلا أن نطرحه من هذا المتبقى لكى نتأكد من رأس المال المتغير . ومن جهة أخرى إذا عرفنا رأس المال المتغير أمكننا بالعملية العكسية أن نعرف فائض القيمة . واذا علمنا كلا من مقدارى رأس المال المتغير وفائض القيمة فعلينا أن نقوم بالعملية الختامية و تنحصر فى حساب $\frac{ء}{ح}$ وهى نسبة فائض القيمة إلى رأس المال المتغير .

وبرغم بساطة هذه الطريقة يحسن بنا أن نقدم أمثلة قليلة ليتدرب القارىء على تطبيق هذه المبادىء الجديدة .

نبدأ أولا فنفرض وجود مصنع للغزل يحتوى على ١٠,٠٠٠ مغزل تصنع الغزل رقم ٣٢ من القطن الأمريكى بمقدار رطل من الغزل لكل مغزل فى الأسبوع ، ونفرض كذلك أن ما يتبدد تبلغ نسبته ٦ ٪ . فى هذه الظروف تحول ١٠,٦٠٠ رطل من القطن إلى ١٠,٠٠٠ رطل من الغزل فى الأسبوع مع استقطاع ٦٠٠ رطل وهى الجزء الذى يتبدد خلال هذه العملية . وكان ثمن الرطل من القطن فى إبريل ١٨٧١ عبارة عن $7\frac{1}{4}$ بنس أى أن ١٠,٦٠٠ رطل تساوى ٣٤٢ جنيها . وكانت المغازل العشرة آلاف بما فيها آلات فتل الغزل والآلة البخارية تساوى ١٠٠٠٠ ج على حساب ١ ج للمغزل . ولنفرض أن المغازل تستهلك بنسبة ١٠ ٪ أو ١٠٠٠ ج أو ٢٠ ج فى الأسبوع بصفة تقريبية ، وليكن إيجار مبانى المصنع ٣٠٠ ج أو ٦ ج فى الأسبوع تقريباً ، ولنقدر الفحم على أساس ١١ طناً فى الأسبوع بثمن قدره أربعة جنيهات وعشر شلنات فى الأسبوع على اعتبار أن ثمن الطن الواحد ٨ شلنات و ٦ بنسات ، ويضاف إلى هذا أسبوعياً ١ ج للغاز و ١٠ شلن ٤ ج لزيت التشحيم الخ . فالتكاليف الكلية للمواد المساعدة المذكورة آنفاً ١٠ ج فى الأسبوع ، ويترتب على هذا أن مبلغ ٣٧٨ جنيه يمثل الجزء الثابت من قيمة المنتج الأسبوعى ، ولنفرض أن الأجور الأسبوعية ٥٢ ج ، وثمن الرطل من الغزل $\frac{1}{2}$ ١٢ بنس بحيث تكون قيمة ١٠,٠٠٠ رطل منه ٥١٠ جنيه . فى هذه الحالة تكون القيمة الفائضة ٥١٠ ج - ٤٣٠ = ٨٠ ج . وإذا خصمنا الجزء الثابت من قيمة المنتج وهو الجزء الذى لا يلعب دوراً فى خلق القيمة كان لدينا ٥١٠ ج — ٣٧٨ = ١٣٢ ج وهى القيمة التى يتم إنتاجها فى الأسبوع . من هذا المبلغ ٥٢ ج تمثل رأس المال المتغير ، ٨٠ ج فائض القيمة ، وبذا يكون معدل القيمة الفائضة $\frac{80}{52}$ = $153\frac{11}{13}$ ٪ أى أنه فى يوم عمل طوله ١٠ ساعات مع عمل متوسط تكون النتيجة هكذا : العمل الضرورى = $3\frac{3}{13}$ ٣ ساعة والعمل

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفائض = $\frac{٢}{٣٣}$ ٦ ساعة[١] .

واليك مثال آخر حيث يعطينا يعقوب الحساب التالى عن سنة ١٨١٥ ، وبرغم أن بعض البنود قد صحح لأغراض مختلفة فالجدول دقيق إلى الحد الكافى لمطالبنا كما أن ثمن ربع القمح ٨ شلنات ومتوسط غلة الفدان ٢٢ بوشل بحيث أن الفدان يغل ما قيمته ١١ جنيها .

البنود الخاصة بالفدان الواحد

	بنس	شلن	جنيه		بنس	شلن	جنيه
بذور	—	٩	١	عشور ورسوم وضرائب	—	١	١
شماد	—	١٠	٢	إيجار	—	٨	١
جور	—	١٠	٣	ربح وفائدة الفلاح	—	٢	١
المجموع الكلى	—	٩	٧	المجموع الكلى	—	١١	٣

وعلى فرض أن ثمن المنتج مساوٍ لقيمته ففائض القيمة هنا يخصص لنواح مختلفة وهى الربح والفائدة والعشور الخ . وليس لنا أن نعمل شيئاً إزاء هذه التفصيلات وإنما نكتفى بجمعها ويكون الناتج قيمة فائضة مقدارها — ١١ ٣ بنس ش ج ومقدار رأس المال الثابت المدفوع ثمناً للبذور والسماد يبلغ — ٣/١٩ وإنا لنغفل أمره . بهذا يتبقى مبلغ ١٠ ش ٣ ج يمثل رأس المال المتغير المدفوع ونرى أن قيمة جديدة قدرها — ١٠ ٣ + — ١١ ٣ أنتجت مكانه ، وعلى ذلك يعطينا $\frac{ك}{ح}$ = $\frac{٣\ ١١}{٣\ ١٠}$ معدل قيمة فائضة تزيد عن ١٠٠ ٪ فالعامل يشتغل أكثر من نصف يوم العمل فى إنتاج فائض قيمة يقتسمه أشخاص مختلفون فيما بينهم ويلتمسون لذلك أعذاراً متنوعة[١]

(١) هذه البيانات قدمها لى صاحب مصنع بمنشستر ولذا يمكن الاعتماد عليها وفى الأيام السابقة كانوا فى انجلترا يحسبون حصان الالة البخارى من نصف تطر الأسطوانة ، أما الان فهناك المشير الذى يوضح قوة الحصان البخارى الفعلية .

(٢) التقديرات الواردة فى النص يراد بها التمثيل فقط ، والمفروض فيها أن الأثمان مساوية للقيم . وسنرى فى الكتاب الثالث أنه حتى فى حالة متوسط الأسعار لا يمكن إجراء مثل هذا الفرض البسيط .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(٢) تمثيل قيمة المنتج فى أجزائه النسبية

لنرجع الآن إلى المثل الذى أوردنا كيف يكون الرأسمالى رأس المال من النقود . لقد كان العمل الضرورى الذى توفر عليه الغزال ٦ ساعات ، والعمل الفائض ٦ ساعات كذلك ، وبذا كانت درجة الاستغلال ١٠٠ ٪.

كان المنتج فى يوم عمل طوله ١٢ ساعة ٢٠ رطلا من الغزل قيمتها ٣٠ شلناً ، ولا أقل من $\frac{٨}{١٠}$ قيمة الغزل أى ٢٤ شلناً كان يتكون من قيمة أدوات الإنتاج التى عادت إلى الظهور والتى استهلكت (وهى ٢٠ رطلا من القطن = ٢٠ شلنا ، والمغازل الخ ويقدر لها ٤ شلنات) أو كان يتكون من رأس المال الثابت . أما الجزء الباقى وهو $\frac{٢}{١٠}$ فعبارة عن القيمة الجديدة التى خلقتها عملية الغزل، ونصف هذا المقدار يحل محل القيمة اليومية المدفوعة ثمناً لقوة العمل أى يحل محل رأس المال المتغير بينما النصف الآخر عبارة عن فائض قيمة قدره ٣ شلنات . وعلى هذا يكون تكوين القيمة الكلية للعشرين رطلا من الغزل هكذا : ٣٠ شلنا قيمة الغزل = ٢٤ شلناً رأس المال الثابت + (٣ شلنات رأس المال المتغير + ٣ شلنات القيمة الفائضة) ولما كان المنتج الكلى وقدره ٢٠ رطلا من الغزل تتمثل فيه هذه القيمة ، استتبع هذا وجوب تمثيل الأجزاء التى تتكون منها القيمة فى أجزاء المنتج النسبية . فإذا كان فى ٢٠ رطلا من الغزل قيمة قدرها ٣٠ شلنا وجب أن يكون فى $\frac{٨}{١٠}$ المنتج أى فى ١٦ رطل $\frac{٨}{١٠}$ هذه القيمة وهو المقدار الذى يمثل العنصر الثابت أى ٢٤ شلنا . من هذه الأرطال الست عشرة تمثل $١٣\frac{١}{٣}$ رطل قيمة المادة الخام أى القطن المغزول الخ وهى ٢٠ شلناً تمثل $٢\frac{٢}{٣}$ رطل قيمة المواد الاضافية وأدوات العمل والمغازل الخ وقدرها ٤ شلنات . ونتيجة لهذا تمثل $١٣\frac{١}{٣}$ رطل من الغزل جميع القطن المستهلك في عمل ٢٠ رطلا من الغزل . حقيقة هذا المقدار $١٣\frac{١}{٣}$ رطل من الغزل يحتوى فقط على $١٣\frac{١}{٣}$ رطل من القطن قيمته $١٣\frac{١}{٣}$ شلن ، ولكن القيمة الاضافية وقدرها ثلثان وست شلنات عبارة عن المعادل للقطن المستهلك فى غزل هذه الأرطال الاضافية من الغزل وهى $٦\frac{٢}{٣}$. والنتيجة واحدة كما لو أن هذه $٦\frac{٢}{٣}$ من أرطال الغزل لم تحتو على قطن بالمرة وكما لو أن جميع العشرين رطلا تركزت فى $١٣\frac{١}{٣}$ رطل من الغزل . ومن جهة أخرى لا يشمل الوزن الأخير ذرة من قيمة المواد الاضافية وأدوات العمل المستهلكة أو لا يشمل ذرة من القيمة الجديدة التى خلقت خلال عملية العمل .

وبنفس الطريقة فإن الكمية الاضافية من الغزل وهى $٢\frac{٢}{٣}$ رطل والتى يستتر فيها بقية

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

رأس المال الثابت (٤ شلنات) لا تمثل أكثر من قيمة المواد المساعدة وأدوات العمل المستهلكة فى إنتاج العشرين رطلا من الغزل . وعلى ذلك برغم أن $\frac{٨}{١٠}$ المنتج أو ١٦ رطلا من الغزل تعد إذا نظرنا اليها كقيمة استعمالية كأنها مثل منتجات عمل الغزال شأنها فى ذلك شأن بقية المنتج ، ولكنها من وجهة نظرنا الحالية لا تحتوى على أى عمل مبذول خلال عملية الغزل لأنها لم تمتص عملا ما خلال هذه العملية فكأنها تحولت إلى غزل دون أن تغزل . والواقع حينما يبيع صاحب رأس المال كمية الغزل هذه بأربعة وعشرين شلناً ثم يشترى بعدئذ حاجته من أدوات الإنتاج ، فهذه الأرطال الستة عشرة من الغزل لا تزيد عن أنها قطن خام ومغازل وفحم الخ زيتت على هيئة غزل . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فباقى المنتج وهو $\frac{٢}{١٠}$ أى أربعة أرطال من الغزل لا يمثل سوى القيمة الجديدة أى الشلنات الست التى أنتجتها عملية الغزل الممتدة ١٢ ساعة . ومهما كان مقدار المواد الأولية المستهلكة ومهما كانت أدوات العمل الخافية فيها فان هذا المقدار قد استخلص وأدمج فى الأرطال الست عشرة الأولى من الغزل إن عمل الغزال الذى تتضمنه العشرون رطلا من الغزل متركز فى $\frac{٢}{١٠}$ من المنتج كأنما غزل الغزال ٤ أرطال فى الهواء أو مما وهبته الطبيعة من قطن ومغازل لم يشترك فيها عمل أى إنسان — وبذا لا يضيف أى قيمة إلى المنتج .

إن الأرطال الأربعة من الغزل تتضمن جميع الغزل فى يوم . ومن هذه الكمية نجد النصف يمثل فقط القيمة التى تحل محل قوة العمل التى استهلكت أو رأس المال المتغير البالغ ثلاث شلنات ، بينما النصف الآخر وهو رطلان من الغزل قيمة فائضة مقدارها ٣ شلنات .

بما أن ١٢ ساعة من عمل الغزال تتجسم فى ٦ شلنات فإذن تتجسم ٦٠ ساعة عمل فى قيمة غزل مقدارها ٣٠ شلناً أى توجد فى ٢٠ رطلا من الغزل منها $\frac{٨}{١٠}$ أو ١٦ رطل عبارة عن التحقيق المادى لثمانية وأربعين ساعة عمل أنفقت فى عملية الغزل أو للعمل المتجسم فى أدوات إنتاج الغزل بينما $\frac{٢}{١٠}$ أو ٤ أرطال من الغزل من جهة أخرى هى التحقيق المادى لاثنى عشرة ساعة عمل بذلت فعلا فى عملية الغزل .

وقد رأينا من قبل أن قيمة الغزل مساوية لمبلغ القيمة الجديدة التى تولدت أثناء إنتاجه وللقيمة السابق وجودها فى أدوات إنتاجه . والآن نرى كيف أن الأجزاء المختلفة التى تتكون منها قيمة المنتج وهى الأجزاء التى اختلفت من حيث وظائفها أو تصورها ، يمكن تمثيلها بواسطة ما يقابلها من أجزاء المنتج نفسه النسبية .

هكذا نستطيع أن نقسم المنتج إلى أجزاء مختلفة يمثل أحدها رأس المال الثابت أى العمل

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المبذول قبلا فى أدوات الإنتاج ، بينما يمثل جزء آخر رأس المال المتغير أى العمل الضرورى المبذول خلال عملية الانتاج ، وكذلك هناك جزء آخر يمثل العمل الفائض المبذول فى نفس العملية أى يمثل القيمة الفائضة فقط . وعند ما نأتى إلى تطبيق هذه الطريقة فيما بعد على مسائل معقدة لم تحل حتى الآن فسنرى أن هذا الإجراء لا تقل أهميته عن بساطته .

فى المثال الذى ضربناه اعتبرنا المنتج الكلى النتيجة الكاملة ليوم عمل من ١٢ ساعة ، وفى إمكاننا تتبع هذا المنتج الكلى خلال كل مرحلة من مراحل إنتاجه بينما يمثل طيلة الوقت المنتجات الجزئية التى تتم في المراحل المختلفة على أنها أجزاء من المنتج النهائى أو الكلى من حيث عملها ووظيفتها .

بما أن الغزال ينتج ٢٠ رطلا من الغزل فى ١٢ ساعة فهو ينتج ١٣/٤ رطل فى الساعة الواحدة ، ١٣/٤ رطل فى ٨ ساعات ، وهذا منتج جزئى يعادل من حيث القيمة كل القطن المغزول فى يوم عمل بأكمله . وبنفس الطريقة يكون المنتج الجزئى للفترة الثالثة وقدرها ساعة وست وثلاثون دقيقة مساوياً لرطلين وثلثى رطل من الغزل وبذا يمثل قيمة أدوات العمل المستهلكة أثناء يوم العمل ذى الإثنى عشرة ساعة . وبالمثل ينتج الغزال رطلين من الغزل = ٣ شلنات فى الفترة التالية وقدرها ساعة و١٢ دقيقة ، وقيمة هذا المنتج مساوية للقيمة كلها التى يولدها فى ٦ ساعات من العمل الضرورى . وأخيراً فى الفترة الأخيرة (ساعة واثنى عشرة دقيقة) ينتج ١٢ رطل من الغزل قيمتها مساوية للقيمة الفائضة التى أنتجها فى نصف يوم عمل . وهذه الطريقة فى الحساب تخدم صاحب المصنع الانجليزى لأنها توضح أنه في الثمانية ساعات الأولى أى فى ثلثى يوم العمل يسترد قيمة قطنه ، وهكذا نفس الأمر بالنسبة للساعات الباقية . والطريقة سليمة وتماثل الطريقة الأولى التى أسلفنا ذكرها مع هذا الفارق وهو أنه بدلا من تطبيقها فى عالم المكان أى الفراغ حيث توجد مختلف أجزاء المنتج جنباً إلى جنب فى الشكل الكامل فانها تطبق فى عالم الزمن حيث يتبع كل جزء الآخر . وبرغم هذا فقد تكون مثل هذه الطريقة فى الحساب مصحوبة بأبشع الآراء والنظريات وبخاصة فى رؤوس الذين لهم مصلحة قوية كمصلحتهم في سوء إدراك تلك العملية فى الميدان النظرى .

قد يخيل إلى أمثال هؤلاء أن صديقنا الغزال مثلا ينتج خلال الساعات الثمانية الأولى من يوم العمل قيمة القطن ، وفى الفترة التالية (ساعة وست وثلاثون دقيقة) قيمة أدوات العمل المستهلكة ، وفى الفترة التى بعد ذلك (ساعة وإثنى عشرة دقيقة) قيمة أجره . وأخيراً يخصص « الساعة الأخيرة » المشهورة لإنتاج فائض القيمة . وهكذا فرض الغزال على نفسه

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مهمة أداء معجزة مزدوجة ، فليس عليه فقط أن ينتج القطن والمغازل والآلة البخارية والفحم والزيت الخ فى نفس الوقت الذى يغزل بواسطتها ، بل يجب عليه فى نفس الوقت أن يحول يوم عمل واحد إلى خمسة ، لأنه فى المثال الذى نحن بصدده يتطلب إنتاج المادة الخام وأدوات العمل أربعة أيام عمل طول كل منها ١٢ ساعة ، ويتطلب تحويلها إلى غزل يوم عمل آخر طوله ١٢ ساعة . وسأضرب مثلا صار مشهوراً يوضح كيف يؤدى الجشع إلى الاعتقاد بمثل هذه المعجزات وكيف أنه لن ينتهى أمثال هؤلاء النظريين الذين يحاولون إثبات حقيقة هذه المعجزات .

— ٣ — نظرية سينيور عن « الساعة الأخيرة »

فى صباح يوم جميل من عام ١٨٣٦ استدعى من أكسفورد إلى مانشستر أحد الاقتصاديين الإنجليز وهو نساو و . سينيور وقد اشتهر بحسن أسلوبه . وكان الرجل يتولى تدريس علم الاقتصاد فى المدينة الأولى وقدر له أن يتعلمه فى الثانية . وقد اختاره أرباب المصانع ليقوم بالنيابة عنهم بمحاربة قانون المصانع الذى صدر إذ ذاك ، وكذلك ليهاجم الحركة التى اتسع نطاقها بعد صدور القانون والرامية إلى تقرير يوم الساعات العشر . وقد أدرك أرباب المصانع أن الأستاذ العالم فى حاجة إلى « صقل جيد » أما سينيور فقد قام من جانبه باصدار كتيب جعل عنوانه Letters on the Factory Act., as it affects Cotton Manufacture, London. 1837.

ومن هذا المؤلف أقتطف القطعة الآتية :

« حسب القانون الحالى لا يمكن لأى مصنع يستخدم أشخاصا دون الثامنة عشرة من عمرهم أن يشتغل أكثر من ١١ ساعة فى اليوم ، أى ١٢ ساعة خلال ٥ أيام فى الأسبوع ، ٦ ساعات يوم السبت . والآن سنرى من التحليل الآتى (!) أنه فى مصنع يشتغل على هذا النحو يأتى الربح الصافى كله عن طريق الساعة الأخيرة . أفرض أن أحد رجال الصناعة يستثمر ١٠٠,٠٠٠ ج : — ٨٠,٠٠٠ فى مصنعه وآلاته ، ٢٠,٠٠٠ فى المادة الخام والأجور . وبفرض دوران رأس المال مرة واحدة فى السنة مع ربح إجمالى قدره ١٥ ٪ يجب أن ينتج المصنع بضائع تساوى ١١٥,٠٠٠ ج .. من هذا المبلغ وقدره ١١٥,٠٠٠ ج ينتج كل نصف من أنصاف الساعات الثلاث والعشرين $\frac{٥}{٢٣}$ أو $\frac{١}{٢٣}$ من هذا الرقم ٢٣ × $\frac{١}{٢}$ (أى مبلغ ١١٥,٠٠٠ ج كله) نجد أن ٢٠ قسما فقط أى ١٠٠,٠٠٠ ج من ١١٥,٠٠٠ تحل محل رأس المال المستثمر

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى الأصل ، ١/٢٣ (أو ٥٠٠٠ ج من ١١٥,٠٠٠ ج) عبارة عما يصيب المصنع والآلات من بلى . أما الباقى وهو ٢٢/٢٣ أى نصفا الساعة الأخيران من يوم العمل وقدره ٢٣ نصف ساعة فينتج الربح الصافى وقدره ١٠٪ . وعلى ذلك (مع بقاء الأثمان كما هى) إذا اشتغل المصنع ١٣ ساعة بدلا من ١١ ١/٢ ، بإضافة حوالى ٢٦٠٠ ج إلى رأس المال المتداول لزاد صافى الربح إلى أكثر من الضعف . ومن جهة أخرى إذا خفضت ساعات العمل بمقدار ساعة واحدة كل يوم (مع بقاء الأثمان كما هى) لقضى على الربح الصافى . وإذا كان الخفض ١ ١/٢ ساعة فإن الربح الإجمالى يقضى عليه »[1] .

وهذا مايدعوه الأستاذ العالم « تحليلا » ! لو أنه آمن بصحة الشكاوى التى يجأر بها أصحاب المصانع الذين يصرحون أن العمال يبددون أفضل ساعات اليوم فى إنتاج — وبالتالى فى إعادة إنتاج قيمة المبانى والآلات والقطن والفحم الخ . إذن لكان تحليلا لامعنى ولا لزوم له . وكان من الواجب عليه أن يجعل رده كالآتى « سادتى ، لو أدار كل منكم مصنعه ١٠ ساعات بدلا من ١١ ١/٢ ساعة لترتب على ذلك ، بفرض تساوى الأشياء الأخرى ، أن هبط استهلاك

---

(١) Senior, op. cit., pp. 12—13 — لن أكلف نفسى مشقة التعليق على بعض آراء غريبة فى تلك القطعة التى اقتبسناها ومن ذلك القول بأن أرباب المصانع يعدون من أجزاء ربحهم (الاجمالى أو الصافى) المقدار اللازم لتعويض بلى الآلات أو بعبارة أخرى للحلول محل جزء من رأس المال ، كما أنه لا يعنينا التأكد من دقة الأرقام التى أوردها الكاتب فقد أظهر ليونارد هورنر فى « خطاب إلى سينيور الخ ، لندن ١٨٣٧ أن هذه الأرقام لاتساوى شيئاً شأنها فى ذلك شأن « التحليل » المزعوم . وكان هورنر أحد أعضاء لجنة التحقيق فى المصانع سنة ١٨٣٣ وصار مفتشاً للمصانع حتى سنة ١٨٥٩ وأدى خدمات لا تقدر للطبقة العاملة فى انجلترا إذ شن الحرب طيلة حياته لا ضد اصحاب المصانع فحسب بل وضد الوزراء الذين كان عدد أصوات رجال المصانع فى مجلس العموم بالنسبة إليهم أكثر أهمية من عدد الساعات التى يشتغل خلالها العمال فى المصانع — . وفضلا عن الأخطاء فى المبدأ فان عبارة سينيور ينسودها الاضطراب وإليك ما أراد فعلا قوله « يستخدم صاحب المصنع العامل يومياً لمدة ١١ ١/٢ ساعة أى ٢٣ نصف ساعة . فاذا كان متوسط يوم العمل ٢٣ نصف ساعة أمكن القول بأن سنة العمل تتكون من نفس العدد من أنصاف الساعات (بضربها فى عدد أيام العمل فى كل سنة) . على هذا الأساس تنتج الانصاف الثلاث والعشرين من وقت العمل منتجاً سنوياً قدره ١١٥,٠٠٠ جنيه ، وينتج نصف الساعة ١/٢٣ × ١١٥,٠٠٠ جنيه ، وتنتج ٢٠ نصف ساعة ٢٠/٢٣ × ١١٥٠٠٠ = ١٠٠,٠٠٠ جنيه وهو الذى يحل محل رأس المال المستثمر أولا. يتبقى إذاً ٣ أنصاف ساعة تنتج ٣/٢٣ × ١١٥٠٠٠ = ١٥٠٠٠ جنيه وهذا هو الربح الاجمالى من هذه الانصاف ساعة وينتج ٢/٢٣ × ١١٥٠٠٠ = ١٠٠٠٠ جنيه وهذا يحل محل المصنع والالات . والنصفان الباقيان أى « الساعة الأخيرة » ينتجان ٢/٢٣ × ١١٥٠٠٠ = ١٠,٠٠٠ جنيه وهذا هو صافى الربح . وتجد فى النص أن سينيور يحول النصفين الباقيين من المنتج إلى أجزاء من يوم العمل نفسه .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

القطن والآلات الخ . اليومى بمقدار ساعة ونصف ساعة ، وبذا يكون كسبكم معادلا لخسارتكم. فى المستقبل سيبذل عمالكم وقتاً أقل بمقدار ١½ ساعة فى إنتاج رأس المال الذى سبق استثماره أو فى إحلال شىء مكانه » .

ومن جهة أخرى إذا لم يكن يؤمن بما يقولون بل رأى — كما يفعل الخبراء — ضرورة إجراء تحليل ، لكان لزاماً عليه فى مسألة متصلة بالعلاقات بين صافى الربح وطول يوم العمل ، أن يطلب من أرباب المصانع قبل كل شىء ألا يضموا سوياً الآلات ومبانى المصنع والمادة الخام والعمل بطريقة جمع المتنوعات وإنما يتفضلون بأن يجعلوا رأس المال المستثمر فى المبانى والآلات والمادة الخام الخ فى قائمة رأس المال الثابت ، وأن يضعوا رأس المال المدفوع كأجور تحت اسم رأس المال المتغير . فإذا وجب طبقاً لتقدير أرباب المصانع — أن العامل ينتج من جديد أجره فى ساعتين لوجب عليه أن يواصل تحليله على النحو التالى :

طبقا للأرقام التى قدمتموها ينتج العامل أجره فى الساعة قبل الأخيرة ، وفى الساعة الأخيرة فائض القيمة لكم أو ربحكم الصافى . وبما أنه ينتج قيما متساوية فى فترات الزمن المتساوية ، فإن منتج الساعة قبل الأخيرة لاتختلف قيمته عنها فى حالة منتج الساعة الأخيرة . وأكثر من هذا فهو ينتج قيمة بقدر ما يبذل من عمل ، ويقاس مقدار العمل بوقت العمل وهذا عبارة عن ١١ ½ ساعة فى اليوم حسب البيانات التى أوردتموها . والعامل ينفق جانباً من هذه الساعات فى إعادة إنتاج أجره أو ماحل محله ، ويبذل الباقى من الوقت فى إنتاج ربحكم الصافى . ولا يفعل خلاف هذا طيلة يوم العمل كله . وبما أن أجره ومقدار مايغله من قيمة فائضة قيم ذات حجم متساو وذلك حسب فرضكم ، فمن الواضح أن عليه أن ينتج جره فى ٥ ¾ ساعة وصافى ربحكم فى ٥ ¾ ساعة . وعلى اعتبار أن قيمة الغزل الناتج فى ساعتين مساوية لقيم أجره وصافى ربحكم ، وجب أن تكون ١١ ½ ساعة عمل مقياساً لقيمة هذا الغزل فيقاس منتج الساعة السابقة للأخيرة بالمقدار ٥ ¾ ساعة عمل . والآن نصل إلى نقطة محرجة ولذا يتعين عليكم أن تصغوا بدقة . إن الساعة قبل الأخيرة ساعة عادية من وقت العمل شأنها فى ذلك شأن الساعة الأولى ، أى هى ساعة عادية لا أكثر ولا أقل . فكيف اذن يستطيع الغزال أن ينتج فى ساعة عمل واحدة على هيئة غزل قيمة تمثل ٥ ¾ من ساعات العمل ؟ الواقع أنه لا يأتى بمثل هذه المعجزة . إن ما ينتجه على هيئة قيمة استعمالية فى ساعة عمل واحدة مقدار من الغزل محدود ، وتقاس قيمة هذا الغزل بواسطة ٥ ¾ ساعة عمل منها ٤ ¾ ساعة مستترة (دون تآمر من جانب الغزال) فى أدوات الإنتاج المستهلكة خلال

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تلك الساعة ـ أى فى القطن والآلات الخ ـ بينما الساعة الواحدة الباقية يضيفها العامل نتيجة لهذا بما أن أجره يتم إنتاجه فى ٥ ٣/٤ ساعة كما أن مقدار الغزل الناتج فى ساعة واحدة من الغزل تتجسم فيه كذلك ٥ ٣/٤ ساعة ، فلا سحر إذن فى النتيجة وهى أن القيمة التى يخلقها الغزل مدى ٥ ٣/٤ ساعة ، مساوية لقيمة المنتجات المغزولة فى ساعة واحدة . إنكم تضلون الطريق تماماً إذا تصورتم أن العامل يضيع لحظة واحدة من يوم العمل حين يعيد إنتاج قيم القطن والآلات وما اليها . بل بالعكس إن قيم القطن والمغازل تنقل ذاتها إلى الغزل عن رضاء منها بسبب أن عمله يحول القطن والمغازل إلى غزل أى بسبب أنه يقوم بعملية الغزل . ويتوقف النقل على صفة العمل لا على كميته . حقيقة ينقل إلى الغزل فى ساعة مقداراً من القيمة على هيئة قطن أكثر مما يفعل فى ١/٢ ساعة ، ولكن السبب فى هذا راجع فقط إلى أنه يغزل فى ساعة قطناً أكثر مما يفعل فى نصف ساعة . وبهذا ترون أنه فيما يختص بدعواكم أن العامل ينتج أجره فى الساعة قبل الأخيرة وينتج صافى الربح فى الساعة الأخيرة لا يتعدى الأمر الحقيقة التالية وهى أن ما ينتجه من الغزل فى ساعتى عمل سواء كانتا الساعتين الأوليتين أو الأخيرتين من يوم العمل ، تتجسم فيه ١١ ١/٢ ساعة عمل أو أى عدد من الساعات فى يوم العمل بأكمله . وقولكم إنه ينتج ما تدفعون له من أجر عن عمله فى الـ ٥ ٣/٤ ساعة الأولى وينتج صافى ربحكم فى الـ ٥ ٣/٤ الأخيرة نقول إن هذا الادعاء معناه أنكم تدفعون له مقابل الساعات الأولى ولا تدفعون له شيئاً عن الأخيرة .

إنى أتكلم عن دفع مقابل « العمل » بدلا من دفع مقابل « قوة العمل » لأنى أريد أن أستخدم أسلوبكم . والآن أيها السادة إذا عقدتم الموازنة بين وقت العمل الذى تدفعون عنه مقابلا وذلك الذى لا تدفعون عنه شيئاً لوجدتهما متساويين أى كتساوى نصف اليوم مع نصفه الآخر وهذا يساوى ١٠٠ ٪ وهى نسبة مئوية بديعة حقاً . وفضلا عن هذا فليس ثمت ريب أنكم إذا حلتم عمالكم على أن يكدوا ١٣ ساعة بدلا من ١١ ١/٢ واعتبرتم ـ كما ينتظر منكم ـ العمل الذى يؤدى فى هذه الفترة الاضافية وهى ساعة ونصف الساعة على أنه عمل فائض بحت ، إذن لزاد العمل الفائض من ٥ ٣/٤ ساعة إلى ٧ ١/٤ ولارتفعت نسبة فائض القيمة من ١٠٠ ٪ إلى ١٢٦ ٪ وعلى ذلك فأنتم متفائلون أكثر مما يجب إذ تعتقدون إن إضافة ١ ١/٢ ساعة إلى يوم العمل يرفع معدل القيمة الفائضة من ١٠٠ ٪ إلى ٢٠٠ ٪ أو أكثر من هذا ، وبعبارة أخرى إذا اعتقدتم أنه يزيد أكثر من الضعف . ومن جهة أخرى (إن قلب الانسان شىء غريب وخاصة إذا جعل المرء قلبه فى جيبه) انكم متشائمون إذا خشيتم أن خفض يوم العمل من ١١ ١/٢ ساعة إلى ١٠ ١/٢ يذهب بصافى ربحكم تماماً إذ لن يحدث شىء من هذا القبيل ، لأنه

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مع تساوى الأشياء الأخرى يهبط فائض العمل من ٣/٤ ٥ إلى ٣/٤ ٤ ساعة مما يدع لكم معدل قيمة فائضة طيب وهو ٨٣ ١/٢ ٪. وعلى ذلك فهذه الساعة الأخيرة الشهيرة والتى أكثرتم من السفه عنها أكثر مما فعل الناس عن يوم الحساب إن هى إلا دعاية لا أساس لها . إنكم إذا فقدتم هذه الساعة الأخيرة فلن يكلفكم هذا كل ربحكم الصافى وان يكلف من يشتغل لديكم من الصبيان والفتيات ما لديهم من صفاء الذهن[1].

---

(١) بيناكرس سينيور نفسه لكى يثبت أن ,,الساعة الأخيرة،،فى ,,يوم العمل،، الأساس الذى يقوم عليه صافى ربح أرباب المصانع ووجود صناعة القطن الانجليزية ومركز انجلترا المتفوق فى السوق العالمية . نجد أن الدكتور اندرو يظهر من جهة أخرى أنه لو أن الاطفال والاحداث دون الثامنة عشرة من أعمارهم بدلا من إبقائهم الساعات الاثنى عشرة بأكملها فى جو المصانع الدافىء والاخلاق غادروه إلى العالم الخارجى الذى لا قلب ولا خلاق له قبل ذلك الميعاد بساعة فانهم يحرمون من فرصة الخلاص الابدى وذلك بسبب الكسل والرذيلة . ومنذ سنة ١٨٤٨ لم ينقطع مفتشو المصانع عن الصخرية بأصحاب المصانع من أجل هذه ,, الساعة الاخيرة ،، أو هذه ,, الساعة ذات الأهمية القصوى ،، . فقد كتب المستر هوول فى تقريره بتاريخ ٣١ مايو ١٨٥٠ يقول ,, لو أن التقرير التالى (ويقتطف كلام سينيور) صحيح لكان كل صاحب مصنع فى المملكة المتحدة يشتغل بخسارة منذ سنة ١٨٥٠ ،، (تقارير مفتشى المصانع عن نصف السنة المنتهى فى ٣٠ أبريل ١٨٥٠ ص ١٩ — ٢٠) . وفى سنة ١٨٤٨ بعد صدور قانون العشر ساعات طاف بعض أصحاب معامل غزل الكتان خلال الأرياف الواقعة على حدود دورست وسمرست وضغطوا على عمالهم ليوقعوا على التماس ضد ذلك القانون وجاء فى أحد مواد الالتماس ما يأتى . وأصحاب الالتماس بصفتهم والدين يرون أن إضافة ساعة إلى وقت الفراغ يميل إلى إفساد أخلاق الاطفال ذلك أن الكسل يولد الرذيلة ويعلق على هذا تقرير مفتش المصانع (٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ١٠٤) بما يأتى ,, إن أطفال هؤلاء الاباء والامهات الفضلاء الرقيقى العاطفة يعملون فى جو مصانع الكتان المحمل بالغبار والالياف من المادة الخام بحيث أن الوقوف ١٠ دقائق فى غرف الغزل مؤذ للغاية إذ لا تستطيع أن تفعل ذلك دون أن تحس إحساساً مؤلماً بسبب سحب الغبار المتطاير من الكتان التى لا مهرب منها والتى تملأ العين والآذان والأنف والفم . والعمل ذاته بسبب سرعة الالات الشديدة يتطلب بلا انقطاع استخدام المهارة والحركة تحت رقابة لا تمل ، ومن الصعب أن نسمح للوالدين باستخدام عبارة ,,تكاسل،، بالنسبة لأطفالهم الذين يقيدون ١٠ ساعات كاملة إلى مثل هذا العمل فى مثل هذا الجو ، مع استقطاع وقت وجبات الطعام ... وهؤلاء الأطفال يشتغلون وقتاً أطول من العمال فى القرى المجاورة ... مثل هذا الكلام الدال على القسوة عن ,, الخمول والرذيلة ،، إن هو إلا نفاق لا يعرف الخجل ... إن ذلك الفريق من الجمهور الذى تأثر منذ ١٢ سنة مضت بما قاله حجة كبيرة من أن الربح الصافى كله ينشأ عن عمل الساعة الأخيرة وأن خفض يوم العمل بمقدار ساعة يقضى على هذا الربح الصافى — نقول إن هذا الفريق من الجمهور لن يصدق عينيه حين يجد أن هذا الكشف الخاص بفضائل ,, الساعة الأخيرة ،، قد تحسن منذ ذلك الوقت بحيث يشمل الأخلاق مع الربح سواء ، بحيث لو خفض وقت عمل الأطفال إلى ١٠ ساعات لزالت أخلاقهم مع الأرباح الصافية لأن كليهما يعتمدان على هذه الساعة الأخيرة ,,الساعة الخطيرة،، . ثم يواصل التقرير ضرب الأمثلة عما يلجأ إليه أرباب الصناعة من حيل ==

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حين تدق ساعتكم الأخيرة بصفة جدية فعليكم بالتفكير فى ذلك الأستاذ من أكسفورد والآن وداعاً أيها السادة ولعلنا نلتقى فى عالم أفضل ! !(١).

لقد وصل سينيور إلى كشفه الشهير حوالى سنة ١٨٣٦ : وفى ١٥ ابريل سنة ١٨٤٨ قرع جيمس ولسن الطبول فى مجلة « الايكونومست » من جديد لذلك المذهب حين كتب مقالا هاجم فيه قانون العشر ساعات .

المنتج (الناتج) الفائض

إنى أطلق عبارة المنتج الفائض على ذلك الجزء من المنتج الذى يمثل فائض القيمة (وهو فى المثال الذى ضربناه به من أرطال الغزل العشرين أى رطلان) . وكما أن معدل فائض القيمة تعينه علاقته برأس المال المتغير لا رأس المال الكلى المستثمر ، فكذلك الحجم النسبى لفائض المنتج لاتعينه النسبة بينه وبين الباقى من المنتج الكلى وإنما يتحدد بواسطة نسبته إلى ذلك الجزء من المنتج الضرورى . وبقدر ما يكون إنتاج فائض القيمة غاية الانتاج الرأسمالى والهدف منه . فكذلك ينبغى أن تقاس الثروة لا بواسطة الحجم المطلق للمنتج وإنما بواسطة

= وخداع وتهديد وأباطيل ليحملوا أولا بعض العمال الضعاف على تقديم الالتماسات ، وثانياً لفرض هذه الالتماسات على البرلمان على أنها تمثل وجهة نظر فرع من الصناعة بأكمله أو مقاطعات بأسرها . ومما يميز الحالة الحاضرة لما يقال له « العلم الاقتصادى » ، أنه لا سينيور نفسه الذى أخذ بعد ذلك يناصر تشريع المصانع بنشاط ولا خصومه من البداية إلى النهاية ، نجحوا فى كشف طبيعة هذه المغالطات التى أثبتت عدم صحة الكشف الأصلى الذى وصل إليه . ولعدم وجود تعليل سليم نودى بالاعتماد على التجارب العملية ولكن أسباب هذه التجارب العملية وماهيتها ظلت سراً خافياً .

(١) برغم أن سينيور لم يتعلم بالقدر الكافى كى يكتب بهذه الروح فمن المؤكد أنه استفاد من رحلته إلى منشستر بعض الشىء . وفى « خطابات عن قانون المصانع » يجعل كل صافى الربح بما فى ذلك « الربح » و« الفائدة » ، بل « وشيئاً آخر زيادة على ذلك » ، يتوقف على ساعة عمل واحدة لا أجر لها . وقبل ذلك بعام وضع كتابه « معالم الاقتصاد السياسى » لطلاب جامعة أكسفورد وفيه « كشف » أن الربح مصدره عمل الرأسمالى ، وأن الفائدة مصدرها « الامتناع » من جانب الأخير (وهو فى هذا يعارض ريكاردو الذى يذهب إلى أن القيمة يعينها وقت العمل) . وفكرة الرجل على مخالفتها للعقل فكرة قديمة وما الجديد فيها سوى كلمة « امتناع » ، وكان الهر روشير على حق حين ترجم abstinence بالكلمة الالمانية « enthaltung » ، وقد ترجمها بعض مواطنيه ممن لا يدرون عن اللاتينية إلا القليل . بأنها entsagung (renunciation) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الحجم النسبي للمنتج الفائض(١) .

إن يوم العمل أو الوقت الفعلي الذى يشتغل فيه العامل عبارة عن مجموع العمل الضرورى والعمل الفائض أى فترة الوقت التى ينتج العامل خلالها القيمة التى تحل محل قيمة قوته على العمل وكذلك فائض القيمة علاوة على ذلك .

---

(١) ,, فى حالة الفرد الذى رأس ماله ٢٠٠٠٠٠ جنيه وأرباحه ٢٩٠٠ فى السنة فلا أهمية إلا إذا كان رأس ماله يستخدم ١٠٠ أو ١٠٠٠ رجل أو إذا كانت السلعة المنتجة بيعت بـ ١٠٠٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠٠ جنيه بشرط ألا تنقص أرباحه فى جميع الحالات عن ٣٠٠٠ جنيه . أليست فائدة الشعب الحقيقية مشابهة لذلك ؟ وبشرط تشابه دخله الصافى الحقيقى ، وريعه وأرباحه فلا أهمية إذا كان الشعب مكوناً من ١٠ أو ١٢ مليوناً من السكان،، (ريكاردو ص ٤١٦) وقبل ريكاردو بزمن طويل نقرأ ما يلى لآثر ينبج وهو من أنصار المنتج الفائض المتعصبين ومن نواح أخرى مؤلف تعوزه روح النقد ولا تتناسب شهرته مع مزاياه ,, ما الفائدة التى تعود على مملكة حديثة من تقسيم مقاطعة بأسرها على هذا النحو (حسب الطريقة الرومانية القديمة بين صغار الفلاحين المستقلين) ,,مهما كانت طريقة زراعتها جيدة اللهم إلا إذا كانت الفائدة مجرد توالد الناس ، وهو غرض فى حد ذاته عديم الفائدة،، Political Arithmetic (لندن ١٧٧٤ ص ٤٧) — مما له اهمية حقيقية ,, الميل القوى لتمثيل الثروة الصافية على أنها ذات نفع للطبقة العاملة .. وإن كان من الواضح أن السبب فى ذلك ليس كونها صافية،، T. Hopkins : On Rent of Land etc. لندن ١٨٢٣ ص ١٢٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الثامن

يوم العمل

١ — حدود يوم العمل

فرضنا منذ البداية أن قوة العمل تشترى وتباع بقيمتها التى يعينها وقت العمل اللازم لإنتاجها . فإذا كان إنتاج متوسط وسائل العيش اليومية يتطلب ست ساعات تعين على العامل أن يشتغل فى المتوسط ٦ ساعات يومياً حتى ينتج قوته على العمل اليومية ، أو بمعنى آخر ليعيد إنتاج القيمة التى تسلمها نتيجة بيعه قوة العمل .

فالجزء الضرورى من يوم عمله والذى يبلغ ٦ ساعات مقدار معلوم ، ولكن إلى جانب هذا لا يعلم مدى يوم العمل ذاته .

لنفرض أن الخط ا ب يمثل وقت العمل الضرورى وليكن ست ساعات ، فإذا أطلنا العمل بعد المدة المرموز لها ا ب بمقدار ساعة أو ثلاث ساعات أو ١٢ ساعة صارت لدينا خطوط ثلاثة وهى :

يوم العمل (١)	يوم العمل (٢)	يوم العمل (٣)
ا — ب — حـ	ا — ب — حـ	ا — ب — حـ

هذه الخطوط تمثل ثلاثة أيام عمل مختلفة طولها ٧ ، ٩ ، ١٢ من الساعات على التوالى .

والمدة ب حـ المضافة إلى ا ب تمثل فائض العمل . وبما أن يوم العمل هو ا ب + ب حـ أو ا حـ فإنه يختلف حسب المقدار المتغير (ب حـ) . وبما أن ا ب ثابت فالنسبة بين ب حـ ، ا ب يمكن حسابها دائماً فهى فى حالة يوم العمل (١) عبارة عن $\frac{1}{6}$ ا ب ، وفى (٢) $\frac{3}{6}$ وفى (٣) $\frac{6}{6}$ وبما أن النسبة $\frac{\text{فائض وقت العمل}}{\text{وقت العمل الضرورى}}$ تحدد نسبة فائض القيمة صار فى الإمكان معرفة الأخير بواسطة النسبة بين ب حـ ، ا ب وهى تبلغ فى أيام العمل الثلاثة المشار إليها $16\frac{2}{3}$ ، ٥٠ ، ١٠٠ فى المائة على التوالى . ومن جهة أخرى نجد أن نسبة فائض القيمة وحدها لا تدلنا على مدى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يوم العمل فإذا كانت هذه مثلا ١٠٠ /. فقد يكون يوم العمل ٨ ، ١٠ ، ١٢ ساعة على التوالى ، وهى تشير إلى أن الجزئين اللذين يتكون منهما يوم العمل وهما الوقت الضرورى والوقت الفائض كانا متساويين فى مداها ، ولكنها لا تدل على طول أى الجزئين .

فيوم العمل إذن مقدار متغير . حقيقة يحدد أحد جزئيه وقت العمل اللازم لإعادة إنتاج قوة العمل ، ولكن يختلف مبلغه الكلى حسب مدة فائض العمل . وعلى هذا فيوم العمل قابل للتعيين ولكنه فى حد ذاته غير محدود أى غير معين(١) .

وبالرغم من أن يوم العمل مقدار غير ثابت إلا أنه يتغير فى نطاق حدود معينة وإن كان من غير المستطاع تعيين الحد الأدنى . وبطبيعة الحال إذا جعلنا الجزء المضاف إلى الخط وهو ب حـ أو فائض العمل = صفر صار لدينا حد أدنى أى الجزء الذى ينبغى للعامل أن يشتغل فيه للابقاء على حياته . وعلى أساس الإنتاج الرأسمالى هذا العمل الضرورى جزء من يوم العمل . أما يوم العمل نفسه فلا يمكن مطلقا أن يرد إلى هذا الحد الأدنى . ومن جهة أخرى هناك حد أعلى ليوم العمل أى لا يمكن إطالته بعد نقطة معينة . وهذا الحد الأعلى يعينه أمران أولهما الحدود الطبيعية لقوة العمل . ففى خلال الساعات الأربع والعشرين لا يستطيع الإنسان أن يبذل سوى قدر معلوم من قواه على العمل ؛ إذ لابد من الراحة والنوم خلال جزء معلوم من اليوم ، كما أن صاحبها مضطر خلال جزء آخر منه إلى قضاء حاجياته الطبيعية من مأكل وغسيل وملبس . وفضلا عن هذا هناك اعتبارات أدبية ، فالعامل يحتاج وقتاً لقضاء مطالبه العقلية والاجتماعية التى يتوقف مداها وعددها على درجة التقدم الاجتماعى العام. ولكن هذه الشروط التى تحدد يوم العمل مرنة ، ومن هنا نجد يوم عمل طوله ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ساعة أى أن طوله عرضة للاختلاف الشديد .

يشترى الرأسمالى قوة العمل بقيمتها مدى يوم واحد ، وبذا يحصل على حق حمل العامل على أن يشتغل من أجله خلال هذا اليوم . ولكن ماهو يوم العمل؟(٢) انه أقل فعلا من اليوم الطبيعى ولكن السؤال الهام هو: بأية نسبة يقل يوم العمل عن اليوم الطبيعى ؟ لصاحب رأس المال

---

(١) ,,إن يوم العمل غامض وقد يكون طويلا أو قصيراً،، An Essay on Trade and Commerce Containing Observations on Taxation etc. لندن سنة ١٧٧٠ ص ٧٣

(٢) هذا السؤال أعظم أهمية من السؤال الشهير الذى وجهه سير روبرت بيل إلى غرفة برمنجهام التجارية ,, ما هو الجنيه ؟ ،، ولم يسأل بيل هذا السؤال إلا لجهله بطبيعة النقود كما كان الحال بالنسبة إلى صغار أصحاب الأموال فى برمنجهام .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وجهة نظر بصدد الحد الضرورى ليوم العمل ، فبفصته رأسماليا هو الصورة التى يتمثل فيها رأس المال . وروحه هى روح رأس المال . ولكن رأس المال له دافع واحد فى الحياة ألا وهو الميل إلى خلق القيمة وفائض القيمة ، وإلى جعل أدوات الانتاج تمتص أعظم قدر ممكن من فائض العمل (١). إن رأس المال عمل ميت لاحياة له إلا بامتصاص العمل الحى ، وتزيد حياته كلما زاد مقدار هذا الامتصاص .

والوقت الذى يشتغل فيه العامل هو الوقت الذى فيه يستهلك الرأسمالى تلك القوة على العمل التى اشتراها (٢). فإذا كان العامل يستهلك لنفسه الوقت الذى تحت تصرفه فإنه يسرق الرأسمالى(٣) وهنا يستند الأخير إلى قانون تبادل السلع فهو كغيره من المشترين يسعى إلى الحصول على أكبر نفع ممكن من القيمة الاستعمالية لسلعته . هنا يرتفع صوت العامل الذى ظل خافتاً أثناء عملية الانتاج قائلا : إن السلعة التى بعتها لك تختلف عن غيرها من حيث أن استعمالها يخلق قيمة أكبر من قيمتها ولهذا اشتريتها . فما يبدو فى نظرك تبدداً لرأس المال معناه فى نظرى أننى أنفق من قوتى على العمل قدراً كبيراً يزيد عن الحد الضرورى . إن كليتنا يعرف فى السوق قانوناً واحداً ذلك هو قانون تبادل السلع ، واستهلاك السلعة ملك لشاريها لا للذى يتنازل عنها . وعلى ذلك فاستخدام قوتى اليومية على العمل ملك لك .

ولكنى بالثمن الذى تدفعه لى يومياً أعيد إنتاجها كل يوم وأبيعها ثانية . وبغض النظر عن الإجهاد الطبيعى الناشىء عن السن وما اليه فمن الواجب أن أكون قادراً فى الغد على العمل بنفس القوة والصحة والنشاط . إنك تعظنى يومياً بفضائل «الاقتصاد» و «الاعتدال»، حسناً هذا ! وسأعمل بهذه النصيحة وأوفر ثروتى الوحيدة وهى قوة العمل ولن أنفق منها كل يوم سوى ذلك القدر المتناسب مع مدتها العادية ونموها السليم . وفى استطاعتك اذا أطلت يوم العمل إلى غير ماحد أن تستهلك فى يوم واحد مقداراً من قوة العمل أكبر مما أستطيع

---

(١) «إن غاية الرأسمالى أن يحصل على أعظم قدر ممكن من العمل مقابل مبلغ رأس المال الذى ينفقه فى شراء العمل» J. G. Courcelle-Seneuil : Traité théorique et pratique des entreprises industrielles الطبعة الثانية ، باريس ١٨٥٧ ص ٦٣ .

(٢) «إن ضياع ساعة عمل فى يوم واحد أسامة مسرفة للدولة التجارية .. هناك استهلاك عظيم جداً للحكاليات بين الفقراء العاملين فى هذه المملكة وبخاصة بين الجماهير المشتغلة فى الصناعة ، وبواسطة هذا يستهلكون وقتهم وهذا أخطر أنواع الاستهلاك» An Essay on Trade and Commerce etc., ص ٤٧ ، ١٥٣ .

(٣) «إذا كان العامل اليدوى الحر يستريح لحظة فان الاقتصادى الجشع الذى يراقب ذلك فى قلق يدعى أن العامل يسلبه» . N. Linguet : Théorie des lois civiles لندن ١٧٦٧ الجزء الثانى ص ٤٦٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تعويضه فى ثلاثة أيام . فما تكسبه من العمل أخسره من حيث المـــادة أى جوهر العمل وعلى ذلك فاستخدام قوتى على العمل واستغلالها أمران مختلفان اختلافاً تاماً . اذا كان متوسط الزمن الذى يحياه العامل العادى ٣٠ سنة فإن قيمة قوتى على العمل التى تدفعها الىّ من يوم إلى آخر هى $\frac{١}{٣٦٥ \times ٣٠}$ أى $\frac{١}{١٩٥٠}$ من قيمتها الكلية . أما إذا كنت تستهلك هذه القوة فى ١٠ سنوات فأنت تدفع لى يومياً $\frac{١}{١٠٥٩٠}$ بدلا من $\frac{١}{٣٦٥٠}$ من قيمتها الكلية ؛ وبعبارة أخرى تدفع لى $\frac{١}{٣}$ قيمتها اليومية وتسلبنى بذلك قيمة سلعتى كل يوم . فأنت تدفع ثمن يوم من قوة العمل وتستغل ذلك القدر ثلاثة أيام . وهذا يخالف التعاقد بيننا ويناقض قانون المبادلات . ولذلك أطالب بيوم عمل عادى فى طوله دون مناشدة عطفك وكرمك إذ ليس للعاطفة محل فى مسائل المال . قد تكون مواطناً نموذجياً ، وقد تكون عضواً فى جمعية الرفق بالحيوان ورجلا صالحاً ، ولكنك تمثل فى نظرى شيئاً سليب القلب والعاطفة . فإذا كنت أطالب بيوم عمل عادى فإنى أفعل ذلك لأنى ـ كأى بائع آخر ـ أريد قيمة السلعة التى أملكها(١) .

هكذا نرى أن طبيعة تبادل السلع لا تفرض حداً ليوم العمل أو لفائض العمل . فصاحب رأس المال يتصرف فى نطاق حقه كمشتر حين يحاول إطالة يوم العمل إلى أقصى حد ممكن وأن يجعل من يوم العمل يومين إن استطاع . ونرى من جهة أخرى أن طبيعة هـذه السلعة النافعة تفرض حدوداً على مشتريها بصدد استهلاكها . وكذلك يحافظ العامل على حقوقه كبائع حين يرغب فى خفض يوم العمل إلى الحد العادى المحدود .

فهنا إذن تناقض بين مايبدو منطقياً فى ظاهره ، أى هنا صدام بين حقين كل منهما يستند إلى قانون المبادلات ولهذا ففى تاريخ الإنتاج الرأسمالى يبدو لنا تحديد ماهو العمل كنتيجة نضال بين رأس المال أى الرأسماليين ، والعمل الجماعى Collective أى الطبقة العاملة .

---

(١) أثناء الاضراب الكبير الذى قام به البناؤون فى لندن (١٨٦٠ — ٦١) بقصد خفض يوم العمل إلى ٩ ساعات نشرت لجنة الاضراب منشوراً يطابق ذلك الالتماس الخيالى من وجوه كثيرة ، وأشار فى سخرية إلى أن سير صمويل مورتن بيتو وهو من أشد رجال صناعة البناء جشعاً كان يعيش حياة الزهد والطهر . وفى سنة ١٨٦٧ تعرض بيتو هذا لنهاية سيئة من الوجهة المالية ، كما حدث بعد ذلك بسنوات قلائل لشخص أشد منه جشعاً وهو مقاول السكك الحديدية الالمانى الشهير سنتر وسيرج .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

٢ — المجتمع فى سبيل فائض العمل

لم يكن فائض العمل كشفاً جديداً اهتدى إليه رأس المال ، إذ حيثما يملك جانب من المجتمع وسائل الإنتاج تعين على العامل حراً كان أم غير حر أن يضيف إلى وقت العمل اللازم لإعالته قدراً إضافياً من وقت العمل لكى ينتج وسائل العيش لأولئك الذين يملكون وسائل الإنتاج (١) سواء كان هذا المالك زاهداً أثينياً ممن يعبد الخير والجمال ، ثيوقراطياً من إتروريا ، مواطناً رومانيا ، بارونا نورمندياً ، مالكا حدثياً ،أو رأسمالياً (٢). ومن الجلى أنه فى ظل أى نظام اقتصادى للمجتمع تسوده القيمة الاستعمالية للسلعة لاقيمتها التبادلية ، يتحدد فائض العمل بواسطة مجموعة معلومة من الحاجات قد تعظم أو تقل ، كما أن التعطش غير المحدود لفائض العمل لاينشأ عن طبيعة الإنتاج نفسه . وعلى ذلك كان الإرهاق شنيعاً فى العصور القديمة حين كان الغرض منه الحصول على القيمة التبادلية فى مظهرها النقدى المستقل وهو إنتاج الذهب والفضة . فالعمل الإجبارى حتى الموت هو هنا مظهر الإرهاق الذى أقره المجتمع ، وماعليك إلا أن تقرأ ديودور الصقلى (٣). ومع ذلك فهذه حالات شاذة فى العصور القديمة .

ولكن فى الوقت الذى يتجه فيه الناس الذين لايزال إنتاجهم يتحرك فى حيز الأشكال الدنيا من عمل العبيد والسخرة الخ إلى نطاق السوق الدولية حيث يغلب الأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج وحيث همّ الناس الأساسى بيع منتجاتهم للاصـــدار ، فإن الويلات المتمدينة للارهاق فى العمل تتداخل مع الويلات الهمجية للعبودية والرق وما إليهما . لذلك كان عمل السود بالولايات الجنوبية من الاتحاد الأمريكى معتدلاً فى مظهره مادام الهدف من الإنتاج

---

(١) ,,إن الذين يعملون ... يطعمون فى الحقيقة الأغنياء الذين يعيشون على حسابهم كما يطعمون أنفسهم ،، ادمند برك : ص ٢ .

(٢) يقول Niepuhr فى كتابه Romanische gesshcihte بقدر كبير من البساطة ,, لا يسعنا إلا أن ندرك أن مثل هذه الأعمال كالتى نلقاها فى اتروريا القديمة والتى تدهشنا فى خرائبها ، تفترض على نطاق صغير (!) دولا تتكون من سادة وأرقاء ، ويقول سيسمندى وقد كان ادق فى إدراك الأمور إن ,,شريط بروكسل ،، يفترض وجود سادة الأجر والعبيد الأجراء ،، .

(٣) من يستطيع أن ينظر إلى هؤلاء البؤساء دون أن تأخذه الشفقة على حظهم ونصيبهم ،، (وهو هنا يتكلم عن العبيد فى مناجم الذهب على حدود مصر والحبشة وبلاد العرب) ,, أولئك البؤساء الذين لا يستطيعون الحا فظة على نظافة أجسامهم أو ستر عوراتهم بأى نوع من الرداء . لسنا نجد هنا نوعاً من التسامح أو الاشفاق على المرضى والضعفاء والمسنين أو النساء المرضى . ففى ظل إرهاب السوط يجب على الجميع أن يعملوا حتى الموت الذى يضع حداً لآلامهم وشقائهم ،، Bibliotheca historica الكتاب الثالث الفصل ١٣ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إشباع الحاجات العاجلة المباشرة ؛ ولكن حينما أصبح إصدار القطن ذا أهمية حيوية بالنسبة إلى هذه الولايات صار إرهاق الأسود أو استنفاد حياته فى سبع سنوات أحياناً عاملا له أهميته فى نظام مقرر معلوم واضح الهدف . لم يعد الأمر مقصوراً على الحصول من العبد على مقدار معلوم من المنتجات النافعة . بل صار عبارة عن إنتاج فائض العمل نفسه . وكذلك حدث نفس الشىء بالنسبة إلى السخرة فى ولايتى الطونة (ويطلق عليهما اليوم إسم رومانياً) .

والموازنة بين الجشع فى سبيل فائض العمـــل فى ولايتى الطونة وبين مثيله فى المصانع الإنجليزية ذات أهمية خاصة إذ لفائض العمل فى السخرة مظهر مستقل ملموس .

لنفرض أن يوم العمل يتكون من ٦ ساعات من العمل الضرورى ، ٦ ساعات من العمل الفائض . فالعامل الحر فى هذه الحالة يعطى الرأسمالى كل أسبوع ٦ × ٦ أى ٣٦ ساعة من فائض العمل ، كما لو أنه اشتغل كل أسبوع ثلاثة أيام لنفسه ومثلها للرأسمالى . ولكن هذا الأمر غير واضح فى الظاهر بسبب تداخل كل من فائض العمل والعمـل الضرورى . وأستطيع بذلك أن أعبر عن نفس العلاقة بالقول مثلا إن العامل يشتغل فى كل دقيقة ثلاثين ثانية لنفسه ومثلها لصاحب رأس المال . غير أن الأمر خلاف هذا فى حالة السخرة إذ يتميز تماماً العمل الضرورى الذى يقوم به الفلاح فى ولاية الأفلاق للابقاء على ذاته عن فائض العمل الذى يؤديه لحساب السيد لأن النوع الأول من العمل يؤديه فى حقله الشخصى والثانى فى مزرعة السيد . وهكذا يوجد جزءا العمل جنباً إلى جنب وكل منها مستقل عن الآخر . ففى حالة السخرة يتميز فائض العمل بدقة عن العمل الضرورى إلا أن هذا لا يسبب أى اختلاف بصدد العلاقة الكمية بين فائض العمل والعمل الضرورى إذ تظل الثلاثة أيام من فائض العمل فى الأسبوع ثلاثة أيام لا تغل مايقابلها للعامل نفسه سواء دعوناه عامل سخرة أو عاملا بأجر . ولكن يبدو جشع صاحب رأس المال فى سبيل فائض العمل فيما يبذل من مجهود لمد مدة يوم العمل يعنى السيد فى ولاية الأفلاق بالحصول مباشرة على ثلاثة أيام من السخرة (١).

وبرغم اختلاط السخرة فى ولايتى الطونة بإيجارات نوعية ومظاهر عبودية أخرى ظلت أهم ضريبة تدفع إلى الطبقة الحاكمة . وحيثما سادت السخرة فنادراً ما نشأت عن الرق ، بل كانت فى الغالب سبباً فيه . وهذا ماحدث فى الولايتين حيث قام أسلوب الإنتاج فى الأصل على أساس الاشتراك فى الأرض ولكن على خلاف النظام الصقلبى أو الهندى . فجزء من الأرض يزرعه أعضاء

(١) ما يتلو ذلك ينطبق على الأحوال التى ساءت سائدة فى الولايتين الرومانيتين قبل حرب القرم .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الجماعة بصفتهم حائزين أحرار كل نفسه ، أما الجزء الآخر وهو الأرض العامة فيزرعونه بالاشتراك . والغاية من منتجات هذا العمل المشترك أن تكون احتياطياً فى حالة سوء المحاصيل والحوادث المماثلة ، وأن تكون وسيلة لتغطية نفقات الحرب والدين وما إلى ذلك من المصروفات العامة . غير أنه بمرور الوقت اغتصب الزعماء العسكريون ورجال الدين الأرض العامة ومعها العمل الذى يبذل فيها فانقلب عمل الفلاحين الأحرار فى أرضهم العامة إلى سخرة للأولئك اللصوص وما لبثت هذه السخرة أن تحولت إلى علاقة دنيئة قائمة بالفعل وإن لم يقرها القانون ، واستمرت حتى أكسبتها الروسيا ، محررة العالم (!) ، الطابع القانونى تحت ستار إلغاء الرق .

ومن المحقق أن طبقة السادة الملاك هى التى أملت قانون السخرة الذى أصدره القائد الروسى كيسيلف سنة ١٨٣١ . وبهذه الطريقة غزت الروسيا قلوب أفرادها ونالت الثناء من جانب الأحرار فى كافة أرجاء القارة الأوربية .

وقد نص ذلك القانون Réglement Organigue أن على كل فلاح بالأفلاق أن يؤدى للسيد فضلا عن مجموعة مفصلة من المدفوعات العينية : (١) ١٢ يوماً من العمل العام (٢) يوماً واحداً من عمل الحقل (٣) يوماً واحداً فى حمل الخشب ، ومجموع ذلك كله ١٤ يوم فى السنة . ولكن روح الادراك الدقيق للاقتصاد نجحت فى صياغة القانون بمهارة ودهاء بحيث أن يوم العمل لا يؤخذ بمعناه العادى ولكن على أنه يوم العمل اللازم لانتاج متوسط فى اليوم . وبعبارة واضحة صيغ القانون بحيث يفهم منه أن ١٢ يوم يقصد بها منتج العمل اليومى فى ٣٦ يوماً وأن يوماً واحداً من عمل الحقل معناه ٣ أيام ، وكذلك الحال فى اليوم المخصص لحمل الخشب وبذلك يكون المجموع فى الواقع ٤٢ يوما من السخرة يضاف إليها خدمات تؤديها كل قرية بنسبة عدد سكانها فى المناسبات غير العادية ، وتقدر هذه السخرة الإضافية بأربعة عشر يوم لكل فلاح فى الأفلاق وبذلك تصل السخرة المقررة إلى ٥٦ يوماً فى السنة . ولكن السنة الزراعية فى الأفلاق ٢١٠ يوم بسبب قسوة الجو . يستقطع منها ٤٠ يوماً للآحاد والعطلة ، ٣٠ يوماً فى المتوسط لرداءة الطقس ومجموع هذه الأيام التى لا أهمية لها ٧٠ وبذلك يتبقى ١٤٠ يوم وتصبح نسبة السخرة إلى العمل الضرورى عبارة عن ٥٦ : ٨٤ أى ٦٦ ٪ . وهذه نسبة من فائض القيمة أقل بكثير من تلك التى تنظم عمل المزارع أو عامل المنصتع فى انجلترا . ولكن هذه هى السخرة المنصوص عليها قانوناً .

وقد عرف القانون الروسى كيف يهيء سبيل الهرب من نصوصه ، إذ بعد أن جعل من الإثنى عشرة يوم ستاً وخمسين نراه ينظم العمل فى كل من هذه الأيام الأخيرة بحيث لا يعد من

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أداء جزء منه فى اليوم التالى . ففى يوم واحد مثلا يجب إزالة الأعشاب من قطعة من الأرض تتطلب ضعف هذا الوقت وخاصة فى مزارع الذرة . وكذلك العمل اليومى القانونى بالنسبة إلى بعض أنواع العمل الزراعى يفسر بطريقة تجعل ذلك اليوم يبدأ فى مايو وينتهى فى أكتوبر . أما فى ولاية البغدان فالحالة أسوأ . وقد قال أحد الملاك وهو فى نشوة الخمر إن الإثنى عشرة يوماً من السخرة والتى نص عليها القانون تصل إلى ٣٦٥ يوما فى السنة (١) .

وإذا كان ذلك القانون فى ولايتى الطونة يعبر بطريقة إيجابية عن ذلك الجشع في سبيل الحصول على فائض العمل والذى أجازته كل فقرة واردة فيه ، فإن قوانين المصانع الصادرة فى انجلترا تعبر عن نفس ذلك الجشع بطريقة سلبية . إن هذه القوانين تحد من رغبة رأس المال الشديدة فى ذلك الاستغلال غير المقيد لقوة العمل وذلك عن طريق تحديد الدولة ليوم العمل وهى دولة يسيطر عليها أصحاب رؤوس الأموال والملاك الزراعيون . وإذا صرفنا النظر عن الحركة العمالية التى زاد تهديدها وخطرها يوماً بعد يوم ، فإن الذى سبب تحديد العمل فى المصانع هو نفس الضرورة التى قضت باستعمال الجوانو فى الحقول الانجليزية . كما أن الرغبة فى النهب وهى التى أنهكت التربة من جهة زعزعت من جهة أخرى جذور قوة الشعب الحيوية . وتحدثنا أقل الأوبئة التى تنتشر من وقت لآخر عن هذا الأمر بوضوح يماثل ما يدل عليه تناقص المستوى الحربى فى ألمانيا وفرنسا(٢) .

إن قانون العمل الصادر سنة ١٨٥٠ والمعمول به الآن (١٨٦٧) يجعل متوسط يوم العمل ١٠ ساعات أى ١٢ ساعة خلال الأيام الخمس الأولى من السادسة صباحاً حتى السادسة

---

(١) يمكن الحصول على تفاصيل أكثر من كتاب :

E. Regnault's : Histoire politique et sociale des principautés danubiennes باريس ١٨٥٥ ص ٣٠٧ وما بعدها .

(٢) ,, ويقال بوجه عام إنه فى نطاق حدود معينة يكون الدليل على رخاء وتقدم الكائنات العضوية حين يتخطى حجمها متوسط حجم أعضاء الجنس . وفيما يختص بالانسان يكون نموه غير واف حين تكون الأحوال الطبيعية والاجتماعية غير ملائمة . ففى جميع البلدان الأوربية حدث هبوط فى متوسط طول الأفراد البالغين الذكور منذ تقررت الخدمة العسكرية الاجبارية ، ويمكن القول بصفة عامة إنه حدث نقص فى صلاحيتهم للخدمة العسكرية . فقبل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ كان الحد الأدنى لطول المشاة ١٦٥ سم فصار ١٥٧ سنة ١٨١٨ (حسب قانون ١٠ مارس) ثم ١٥٦ (قانون ٢١ مارس سنة ١٨٥٢) وفى هذا البلد يرفض قبول أكثر من نصف المتقدمين للخدمة بسبب نقص طولهم . وكان الحد الأدنى للمشاة فى سكسونيا سنة ١٧٨٠ ، ١٧٨ سم وهو الآن ١٥٥ سم ، كما أنه ١٥٧ فى بروسيا . ويستفاد من بيان أورده الدكتور ماير فى صحيفة Bayrische Zeitung (٩ مايو سنة ٢-١٨) بعد دراسة لمتوسطات ٩ سنوات ==

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مساء ويشمل ذلك ½ ساعة للافطار وساعة للغداء. وبذا يتبقى ½ ١٠ ساعة من العمل . أما فى يوم السبت فمدة العمل من السادسة صباحاً حتى الثانية مساء يستقطع منها ½ ساعة للافطار وهكذا يتبقى ٦٠ ساعة بحساب ½ ١٠ ساعة خلال كل يوم من الأيام الخمس الأولى ، ½ ٧ ساعة للأخير .

ونص القانون على تعيين مفتشين للمصانع تحت إشراف وزير الداخلية مباشرة وتنشر تقاريرهم كل نصف عام باذن البرلمان . وتمدنا هذه التقارير بإحصائيات رسمية منتظمة تنم عن مبلغ ما فى نفوس الرأسماليين من جشع فى سبيل الاستحواذ على فائض العمل . ولنستمع لحظة إلى ما يحدثنا به مفتشو المصانع (١) . إن صاحب المصنع المخادع يبدأ العمل قبل السادسة بربع ساعة (أو أكثر أو أقل من ذلك) . وهو يستولى على خمس دقائق من بداية ونهاية نصف الساعة المسموح به للافطار ، وعلى ١٠ دقائق عند بداية ونهاية ساعة الغداء . وفى يوم السبت يشتغل ربع ساعة (أو أكثر أو أقل) بعد الثانية مساء ، وبذا يكون ما يكسبه على النحو الآتى :

= أنه من ١٠٠٠ مجند كان ٨٧١٦ غير صالحين للخدمة العسكرية منهم ٣١٧ بسبب القصر ، ٣٩٩ نتيجة عيوب صحية وضعف جثمانى ... وفى سنة ١٨٥٨ عجزت برلين عن أن تمد الجيش بالفرقة المطلوبة منها من المجندين إذ نقص العدد بمقدار ١٥٦ ،،، .

J. von Liebig, Die Chemie in ihrer Andwendung auf agricultur und Physiologie سنة ١٨٦٢ ، الطبعة السابعة ، المجلد الأول ص ١١٧ ، ١١٨ .

(١) فيما يختص بالفترة الممتدة من بداية الصناعة الكبيرة فى انجلترا لغاية سنة ١٨٤٥ سأمس المسألة هنا وهناك محيلا القارىء على تفاصيل أوفى فى كتاب ،،حالة الطبقة العاملة فى انجلترا،، (ليبزج ١٨٤٥) تأليف فردريك انجلز وإن كمال فهمه العميق لطبيعة الأسلوب الرأسمالى فى الانتاج قد أثبتته بجلاء التقارير عن المصانع والمناجم الخ . والتى ظهرت منذ نشر ذلك الكتاب . وحين نوازن بين ما قاله فى كتابه وبين التقارير الرسمية للجنة تشغيل الأطفال والمنشورة بعد ذلك بثمانية عشر أو عشرين سنة (١٣٦٨ — ٦٧) ، ندرك بأى قدر من الأمانة فى إيراد التفاصيل قد صور الظروف . وتقارير لجنة تشغيل الأطفال خاصة بتلك الفروع من الصناعة التى لم تنطبق عليها قوانين المصانع قبل سنة ١٨٦٢ والتى لم تطبق عليها فى الواقع ، وعلى ذلك لم يحدث فى تلك الميادين تغير فى الأحوال التى وصفها إنجلز . والأمثلة التى سأوردها مستقاة فى الأغلب من فترة حرية التجارة بعد سنة ١٨٤٨ وهى ذلك العصر الذهبى الذى تحدث عجائبه للألمان أولئك الذين يملأون جيوبهم بالمال والذين يتميزون بالجهل . وهناك سببان للاعتماد على التمثيل عن بانجلترا فهى أولا البلد الكلاسيكى للانتاج الرأسمالى ، وثانياً البلد الوحيد الذى نشر سلسلة متصلة من الاحصائيات الرسمية بصدد المسائل التى نبحثها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

قبل السادسة صباحاً	١٥	دقيقة
بعد « مساء	١٥	«
وقت الافطار	١٠	«
وقت الغداء	٢٠	«
	٦٠	«

أى ٣٠٠ دقيقة فى ٥ أيام .

فى يوم السبت قبل السادسة صباحاً	١٥	دقيقة
وقت الأفطار	١٠	«
بعد الثانية مساء	١٥	«
	٤٠	«
المجموع الكلى فى الأسبوع	٣٤٠	«

أو ٥ ساعات ، ٤٠ دقيقة فى الأسبوع ؛ فاذا ضربنا هذا الرقم فى ٥٠ أى عدد الأسابيع فى السنة (مع مراعاة أيام العطلة والتوقف عن العمل من حين إلى آخر) لكان ذلك مساوياً لسبع وعشرين يوماً من أيام العمل(١) . وجاء فى موضع آخر « إن زيادة وقت العمل بمقدار ٥ دقائق فى اليوم يعادل يومين ونصف يوم من الانتاج فى السنة (٢). وكذلك « الساعة الإضافية فى اليوم والتى يحصل عليها أجزاء قبل السادسة صباحاً وبعد السادسة مساء وعند بداية ونهاية الساعات المحدودة إسمياً لتناول الطعام تساوى العمل فى السنة ١٢ شهراً(٣). والأزمات التى تؤدى إلى تعطيل الانتاج وتحمل المصانع على العمل جانباً من الأسبوع ، لا تؤثر فى الميل إلى إطالة يوم العمل ، وكلما قل الوقت المبذول فى العمل بدت الضرورة لزيادة تحويل هذا الوقت إلى فائض وقت العمل . وقد جاء ما يأتى فى تقرير مفتشى المصانع عن فترة الأزمة التى حدثت ما بين عامى ١٨٥٧ ، ١٨٥٨ « قد يكون من التناقض يتعرض العمال للارهاق فى الوقت الذى ساءت فيه حالة التجارة ، ولكن هذه الحالة السيئة تحمل فريقاً من الناس ممن لا وازع لهم من ضميرهم على أن يتخطوا الحدود المرسومة بقصد اجتناء ربح أكبر ... ففى

---

(١) « مقترحات » الخ ذكرها مفتش المصانع المسترل . هورنر فى Factory Regulations Act والذى أمر بالنشر هو مجلس العموم (٩ أغسطس ١٨٥٩ ص ٤ — ٥) .

(٢) تقارير مفتشى المصانع أكتوبر ١٨٥٦ ص ٣٥ .

(٣) شرحه ، أبريل ٣٠ ، ١٨٥٨ ص ٩ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

نصف العام الماضى على ما يقول ليونارد هورنر تعطل ١٢٢ مصنعاً وظل ١٤٣ مصنعاً قائماً بالعمل ومع ذلك استمر تشغيل العمال أكثر من الساعات التى يعينها القانون (١) ويقول المستر هوول « ترتب على الأزمة التجارية أن أغلقت مصانع كثيرة أبوابها كلية بينما اشتغل عدد أكبر من ذلك جانباً من الأسبوع أقل من المعتاد ، وبرغم هذا لا زلت أتلقى الشكاوى بشأن التعدى على حقوق العمال واغتصاب نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة من الأوقات المخصصة للراحة والتغذية (٢) وحدثت نفس الظاهرة ولكن على نطاق أضيق خلال الأزمة القطنية المخيفة التى امتدت من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ (٣).

ويحدث أحياناً عند ما يوجد بالمصنع أفراد يشتغلون أثناء ساعة الأكل أو خلال وقت لايجيزه القانون أن تكون الحجة من قبيل الاعتذار أنهم لايغادرون العمل فى الساعة المحدودة وأن من الضرورى إرغامهم على ترك عملهم (تنظيف الآلات الخ) وبخاصة بعد ظهر أيام السبت . ولكن إذا كان العمال يبقون فى المصنع بعد توقف الآلات عن العمل . . لما اشتغلوا كذلك إذا كان هناك وقت كاف معدّ خاصة للتنظيف وما إلى ذلك سواء قبل السادسة صباحا أو بعد السادسة مساء فى أيام السبت (٤) .

---

(١) مصدر سابق ص ٤٣ (٢) شرحه ص ٢٥

(٣) تقارير الخ (٣٠ أبريل ١٨٦١) أنظر الملحق رقم ٢ شرحه ٣١ أكتوبر سنة ١٨٦٢ ص ٧ ، ٥٢ ، ٥٣ . زادت حوادث نقض القوانين خلال النصف الأخير من سنة ١٨٦٣ شرحه ، ٣١ أكتوبر سنة ١٨٦٣ .

(٤) تقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٦٠ ص ٢٣ . ان شهادة أصحاب المصانع التى أدلوا بها فى محاكم القضاء تدل على مدى مقاومة العمال لأية محاولة ترمى إلى الاقلال من عدد الذين يشتغلون فى المصنع ! ففى بداية بوفية سنة ١٨٣٦ قبل لقضاة ديوزبرى ويوركس أن أصحاب ثمانية معامل كبيرة فى جوار باتلى خرقوا قوانين المصانع ، واتهم بعض أصحاب المصانع بتشغيل ٥ أولاد تتراوح أعمارهم بين ١٢ ، ١٥ سنة مدة تمتد من السادسة صباحاً يوم الجمعة إلى الرابعة مساء فى اليوم التالى دون السماح لهم بأى وقت للراحة عدا الفترات المخصصة لتناول وجبات الطعام وساعة واحدة للنوم فى منتصف الليل . وكان على هؤلاء الأولاد أن يؤدوا العمل خلال هذه الفترة الممتدة ٣٠ ساعة فى حجر خانق وهو مكان ملىء بالخرق الصوفية المهلهلة ، والجو محمل بالأتربة والغبار المتصاعد من بقايا القماش ، الأمر الذى يضطر العامل البالغ نفسه إلى أن يضع منديلا على فمه كيما يحمى رئتيه . وكان السادة المتهمون وكلهم من جماعة الأصدقاء (Quakers) ممتنعين لأسباب دينية عن حلف اليمين . وقد أكدوا أن شفقتهم على هؤلاء الصغار جعلتهم يسمحون لهم براحة قدرها أربع ساعات لينامو أثناءها ولكن أولئك الأولاد رفضوا النوم بعناد وقد صدر الحكم على السادة المبجلين بتغريمهم ٢٠ جنيهاً ، ولا بد أن دريدن كان يفكر فى أمثالهم حين كتب يقول :

Fox full franght in seeming sanctity, That feared an oath but like the devil would lie, That look'd like Lent, and the holy leer and durst not Sin before he said his prayer.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

« إن الربح الذى يمكن الحصول عليه (من وراء إطالة وقت العمل خلافا لما ينص عليه القانون) يبدو فى نظر الكثيرين إغراء أعظم من أن يقاوموه وهم يعتمدون على فرصة عدم كشف أمرهم ، كما أنهم حينما يرون بساطة العقوبة وتفاهة الغرامات التى دفعها من وقع عليهم الجزاء ، يدركون أنه إذا ما كشف أمرهم ظل جانب الربح فى ناحيتهم (١) . وفى الحالات التى يكسب فيها صاحب المحل قدراً من العمل الإضافى مكوناً من سرقات بسيطة خلال اليوم تبدو جسامة الصعاب القائمة فى وجه المفتشين الذين يكشفون حالة من هذه الحالات (٢) . وهذه « السرقات الصغيرة » التى يرتكبها الرأسمالى على حساب الزمن المقرر لراحة العامل وتناوله الطعام يدعوها بعض المفتشين « سرقات تافهة للدقائق (٣) » أو « اغتصاب بضع دقائق » .

من هذا يتضح بجلاء أنه فى هذا الجو لا يمكن أن يظل تكوين فائض القيمة بواسطة فائض العمل سراً خافياً . وقد قال لى سيد محترم إلى حد بعيد « لو أتيح لى أن أشتغل عشر دقائق فقط زيادة عن الوقت المحدود يوميا لكسبت ألف جنيه فى السنة (٤) وذلك « لأن اللحظات هى عناصر الربح (٥) » .

ومن هذه الناحية لا نجد شيئاً أكثر تمييزاً فى الوصف من تسمية العمال الذين يشتغلون كل ساعات العمل باصطلاح « الذين يعملون كل الوقت » Full timers بينما يقال للأطفال دون الثالثة عشرة والذين يسمح لهم بالعمل ست ساعات « الذين يشتغلون نصف الوقت (٦) » half-timers . فالعامل هنا ليس إلا صورة مجسمة لوقت العمل وكل الفوارق الفردية تدخل أو تمتزج فى عبارتى « الذين يعملون كل الوقت » و « الذين يشتغلون نصف الوقت » .

٣ — فروع هذه الصناعة البريطانية ليس فيها حدود قانونية للاستغلال

درسنا حتى الآن الميل إلى إطالة مدة يوم العمل أو ذلك التعطش نحو فائض العمل فى ناحية امتازت بقسوة لا تفوقها قسوة الأسبان فى معاملة الهنود الحمر الأمريكيين بقصد البحث

---

(١) شرحه ٣١ أكتوبر ١٨٥٦ ص ٣٤
(٢) شرحه ص ٣٥
(٣) شرحه ص ٤٨
(٤) شرحه ص ٤٩
(٥) شرحه ص ٤٨
(٦) هذا هو التعبير الرسمى سواء فى المصانع أو فى التقارير .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عن الذهب(١) كما قال كاتب اقتصادى انجليزى من البورجوازية . هذه القسوة ذاتها أدت إلى تدخل القانون لتقييد رأس المال والحد من حريته . ولنلق الآن نظرة على فروع من الإنتاج لايزال فيها الاستغلال طليقاً من أى قيد ، وكان ذلك بالأمس القريب .

صرح مستر بروتون شارلتون حين رأس اجتماعاً فى اسمبلى رومز بتوتنام فى ١٤ يناير سنة ١٨٦٠ بما يأتى « لقد كان ذلك الفريق من الأهلين المشتغل بصناعة الدنتلا عرضة لألم وحرمان لامثيل لهما فى أى جهة أخرى بالمملكة بل وفى العالم المتمدين . فكان الأطفال من سن التاسعة أو العاشرة ينزعون من فراشهم فى الساعة الثانية أو الثالثة أو الرابعة صباحا ويجبرون على العمل حتى العاشرة أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة مساء ، وذلك بما يكاد يقوم بأودهم مما سبب هزالهم وتضاؤل أجسامهم واصفرار وجوههم وانحطاط بشرتهم إلى نوع من التحجر الباهت مما يبعث الرعب في نفس من يفكر فيه . إنه لايدهشنا إن يتقدم مستر ماليت أو أى صانع آخر ويحتج على المناقشة . . إن النظام القائم كما وصفه السيد مونتاجو فالى نظام من العبودية ليس لها مايبررمنها ، وذلك من النواحى الاجتماعية والجثمانية والأدبية والروحية.. ماذا يكون الرأى فى مدينة يعقدفيها اجتماع عام يطلب فيه خفض مده العمل للرجال إلى ١٨ ساعة يوميا ؟ . إننا نحمل ساخطين على ملاك مزارع القطن فى فرجينيا وكارولينا . فهل ما لديهم من سوق سوداء واستعمال للسوط وبيع للحم البشرى أشد كراهية إلى النفس من هذه التضحية البطيئة بالإنسانية والتى تقع أمام أبصارنا حتى يتسنى لنا صنع نقب وربطات عنق لصالح الرأسماليين ؟ »

وقد تعرضت مصانع الفخار فى ستافورد شير للتحقيق البرلمانى ثلاث مرات خلال الاثنين وعشرين سنة الأخيرة ، وقد وردت نتائج التحقيقات فى تقرير مستر سكريفن المرفوع سنة ١٨٤١ إلى أعضاء « لجنة تشغيل الأطفال » ، وفى تقرير الدكتور جرينها والمنشور سنة ١٨٦٠ بأمر الموظف الصحى فى المجلس المخصوص (الصحة العامة ، التقرير الثالث ١١٢ — ١١٣) ، وأخيراً فى تقرير مستر لونج سنة ١٨٦٢ والوارد فى « التقرير الأول للجنة تشغيل الأطفال فى ١٣ يونية ١٨٦٣ » .

ويكفينى فى هذا المقام أن أورد من تقريرى ١٨٦٠ - ١٨٦٣ بعض مافاه به الأطفال

---

(١) الكلمات الموجودة فى النص مأخوذة عن John Wadane فى كتابه History of the Middle and Working Classes الطبعة الثالثة لندن ١٨٣٥ ص ١١٤ . والجزء النظرى من هذا الكتيب عن الاقتصاد السياسى يعتبر مبتكراً إذا راعينا التاريخ الذى وضع فيه . أما الجزء التاريخى فسرقة مكشوفة من سير ف . م . آيدن : State of the Poor لندن ١٧٩٧ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أنفسهم الذين كانوا موضع الاستغلال ، ومنهم تستطيع تكوين فكرة عن حالة البالغين من البنات والنساء وذلك فى صناعة يبدو إلى جانبها غزل القطن عملا مقبولا وتراعى فيه الاعتبارات الصحية . (انجلز — حالة انجلترا .... ص ٢٤٩ — ٢٥١) .

التحق الطفل وليم وود وعمره ٩ سنوات بالعمل وكانت سنه إذ ذاك ٧ سنوات وعشرة أشهر ، وكان عمله عبارة عن نقل القوالب إلى غرفة التجفيف ثم إعادة الشكل الفارغ . وكان يبدأ العمل كل يوم فى السادسة صباحاً ويغادره حوالى التاسعة مساء ، وقد قال الطفل «ظللت مدى سبع أو ثمان أسابيع أعمل حتى التاسعة مساء ستة أيام فى الأسبوع » . وهكذا يشتغل طفل فى السابعة من عمره ١٥ ساعة فى اليوم ! ويقول ج . موراى وعمره ١٢ سنة « اتوجه إلى العمل فى السادسة أو فى الرابعة أحيانا ، وقد عملت طيلة ليل أمس حتى السادسة من صباح اليوم . وقد اشتغل كذلك ثمانية أو تسعة أولاد خلال ليلة أمس كلها وجاءوا جميعاً عدا واحداً هـذا الصباح . أما الأجر الذى أتناوله فثلاث شلنات وست بنسات . ولا أحصل على زيادة مقابل العمل الليلى . وفى الأسبوع الماضى اشتغلت ليلتين » .

ويقول فرينهو فى العاشرة من عمره « لا أحصل دائماً على ساعة للغداء وإنما يصرح لى بنصف ساعة فقط أحيانا فى أيام الخميس والجمعة والسبت » . (لجنة تشغيل الأطفال ، التقرير الأول ١٨٦٣ ص ١٦ و ١٩ و ١٨) .

ويقرر الدكتور جرينهاو أن متوسط العمر قصير إلى درجة غير عادية فى منطقة صناعة الفخار فى ستوك أون ترنت وولستانتون . وبرغم أن نسبة المشتغلين بهذه الصناعة إلى عدد البالغين لاتتعدى ٣٦,٦ ٪ فى المنطقة الأولى ، ٣٠,٤ ٪ فى الثانية فإن أكثر من نصف الوفيات فى الجهة الأولى وما يقرب من الثلثين فى الثانية سببها أمراض الرئة . ويقول الدكتور بوتروبد فى هانلى إن كل جيل من الفخاريين أقل بنية وقوة من سابقه . وكذلك لاحظ طبيب آخر هو مستر مابين « أنه منذ مارس مهنته بين صفوف الفخاريين خلال ٢٥ سنة لاحظ انحطاطاً بارزاً فى نقص الطول والعرض » . وهذه الأقوال مستقاة من تقرير الدكتور جرينهاو سنة ١٨٦٠ (الصحة العامة ، التقرير الثالث ص ١٠٢ و ١٠٤ و ١٠٥)

ونقتطف الآتى من تقرير أعضاء اللجنة سنة ١٨٦٣ :

يقول الدكتور ج . ت . أرلدج كبير أطباء مصحة ستافرد شير الشمالية « إن طبقة الفخاريين من الرجال والنساء تمثل فئة منهارة من السكان من الناحيتين الجثمانية والأدبية » فهم فى العادة بطيئو النمو ، مشوهو الجسم ، غالباً ما يكون صدرهم غير سليم ، ويدركهم الهرم

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

قبل الأوان ، ومن المحقق أن أعمارهم قصيرة . وهم مصابون بفقر الدم وشحوب الوجه ، ويبدو ضعف أجسامهم فى تعرضهم لأمراض الكلى والكبد والروماتزم . ولكنهم معرضون بصفة خاصة لأمراض الصـــدر والالتهاب الرئوى ، وداء السل والنزلة الشعبية والربو . ويبدو أن هناك نوعاً خاصاً بهم يعرف باسم ربو أو سل الفخارى . ويصاب نحو ثلثيهم أو اكثر بداء الخنازير الذى يصيب الغدد أو العظام او أجزاء أخرى من الجسم . والسر فى أن تناقص السكان ليس أعظم مما هو عليه راجع إلى دوام الحصول على العمال من المناطق المجاورة وإلى التزاوج بأجناس أوفر صحة »[1] .

وكتب المستر شارل بارسنز الجراح فى نفس المعهد فى خطاب بعث به إلى عضو اللجنة لونج يقول : إنى أتحدث استناداً إلى ما لاحظته بنفسى لا اعتماداً على بيانات ومعلومات إحصائية . إنى لا أتردد فى التأكيد بأن غضبى الشديد . قد أثاره منظر أولئك الأطفال الذين تضحى صحتهم لإشباع نهم الآباء أو أرباب الأعمال ، وبعد أن عدد أسباب الأمراض التى تنتاب الفخاريين أجملها فى عبارة واحدة وهى « ساعات العمل الطويلة » ويعرب تقرير اللجنة عن ثقته « أن هذه الصناعات التى تشغل محلا بارزاً فى العالم بأجمعه لن تظل موضعاً للمؤاخذة من حيث القول بأن نجاحها مصحوب بانحطاط وألم جثمانيين واسعى النطاق والانتشار ، وبالموت المبكر يصيب أولئك الذين أمكن بفضل جهودهم ومهارتهم الحصول على نتائج باهرة (شرحه ص ٢٢ ، ١١). ولا مراء أن ما يقال عن مصانع الفخار بانجلترا ينطبق تماماً على مثيلتها فى اسكتلنده (شرحه ص ٤٧) .

ويرجع تاريخ صناعة الكبريت إلى عام ١٨٣٣ أى منذ كشف طريقة استخدام الفسفور مع الثقاب نفسه . وقد تقدمت هذه الصناعة بانجلترا منذ سنة ١٨٤٥ وعظم انتشارها وبخاصة فى الجهات الآهلة بالسكان فى لندن ومنشستر وبرمنجهام وليفربول وبرستول ونورتش ونيوكاسل وجلاسجو . وقد صحب تقدمها انتشار مرض يعرف باسم phossy jaw كشف أمره طبيب من فينا سنة ١٨٤٥ وأوضح أنه يصيب المشتغلين بهذه الصناعة خاصة ، ونصفهم من أطفال دون سن الثالثة عشرة أو من الأحداث ممن لم يبلغوا الثامنة عشرة من أعمارهم . ونظراً لعدم توافر العنصر الصحى فى هذه الصناعة تجد أن الكثيرين لا يميلون إليها ، وهذا فضلا عن الرائحة الكريهة المنبعثة ، الأمر الذى لا يجذب إلى هذه الصناعة سوى أشد أفراد الطبقة العاملة بؤساً من أمثال الأرامل اللاتى عضهن الجوع بنابه ومن فى حكم هؤلاء . ويضف لنا

---

(١) لجنة تشغيل الأطفال ، التقرير الأول ص ٢٤ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أحد التقارير هؤلاء الأطفال « بأنهم يسيرون وقد ارتدوا أسمالا ممزقة ، يكاد الجوع أن يفتك بهم ، ولم يحصلوا على أدنى حظ من التعليم » (شرحه ص ٥٤) وقد كان الشهود الذى استجوبهم عضو اللجنة هوايت فى عام ١٨٦٣ يضمون ٢٧٠ فرداً دون الثامنة عشرة من أعمارهم ، ٥٠ دون العاشرة ، ١٠ فى الثامنة ، ٥ لا يتجاوز الواحد منهم السادسة . أما يوم العمل فكان يتراوح بين ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ساعة ، ويضاف إلى ذلك العمل الليلى وعدم تناول الطعام فى أوقات منظمة . وأكثر من هذا كانوا يتناولون غـــداءهم فى حجرات العمل ذاتها وهى أماكن موبوءة مليئة بمادة الفسفور[1] بحيث لو أن دانتى شاهدها لرأى أن أهوال تلك الصناعة تفوق أهوال الجحيم الذى وصفه لنا .

وفى صناعة ورق الحائط تستخدم الآلات فى صنع الأنواع السميكة بينما تعمل الأصناف الرقيقة باليد . ويبلغ نشاط هذه الصناعة أقصاه فيما بين بداية أكتوبر ونهاية أبريل ، وخلال هذه الفترة كلها يواصل العمال العمل بلا انقطاع منذ السادسة صباحاً حتى العاشرة مساء أو ما بعد ذلك . ويحدثنا ج . ليتش كيف « أن ستاً من الفتيات التسعة عشر انقطعن عن العمل دفعة واحدة خلال الشتاء الماضى إذ ضعفت صحتهن نتيجة الارهاق فى العمل ، وكنت اضطر إلى الصراخ فى وجوه الفتيات حتى لا يأخـــذهن النوم » ويقول و . د . دفى « لاحظت أنه فى الوقت الذى يعجز فيه الأطفال عن فتح أعينهم لمزاولة العمل لا يستطيع أحد منا أن يفعل ذلك » وقال ج . لا يتبورن « إنى فى الثالثة عشرة من عمرى ... وكنا نعمل فى الشتاء الماضى حتى التاسعة مساء ، وفى الشتاء الذى تقدمه حتى العاشرة . وقد كنت خلال الشتاء الماضى أصرخ دائماً من الألم الذى أصاب قدمى . وذكر ج . آبسدن ما يأتى : « حينما كان ابنى فى السابعة من عمره كنت اضطر إلى حمله على ظهرى ذهاباً وإياباً فوق الجليد ، وكان يشتغل ١٦ ساعة فى اليوم الواحـــد ... وغالباً ما كنت أركع إلى جانبه لأطعمه وهو واقف إلى جانب الآلة إذ لم يكن فى وسعها أن يغادر مكانه فتتعطل الآلة عن العمل » وحدث سميث الشريك المشرف على العمل فى مصنع نمنشستر : إنا (ويقصد «العمال» الذين يعملون « لنا ») نشتغل باستمرار دون أن نتوقف عن العمل لتناول الطعام بحيث أن يوم العمل وطوله عشر ساعات ونصف الساعة ينتهى فى منتصف الخامسة مساء ، وأما مايزيد عن ذلك فيدفع عنه أجر [2] » .

---

(١) تقرير لجنة تشغيل الأطفال ، التقرير الأول ص ٥٤

(٢) يجب ألا نفهم هذه الكلمة overtime بنفس المعنى الذى أقصده حين أتكلم عن «العمل الفائض» .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولنا أن نتساءل : ألا يتناول المستر سميث هذا طعاماً خلال الساعات العشر ونصف ؟ ويقول نفس الرجل «نادراً ما نغادر العمل قبل السادسة مساء» (ويقصد مغادرة استهلاك «ما لدينا» من آلات قوة العمل) بحيث أننا طول العام نشتغل فى الواقع وقتا أكثر من المعتاد وذلك بأجر .

وكان متوسط العمل بالنسبة إلى هؤلاء جميعاً (وعددهم ١٥٢ من الأطفال والأحداث، ١٤٠ من البالغين) عبارة عن ٧ أيام ٥ ساعات أى ٧٨ ½ ساعة فى الأسبوع على الأقل وذلك خلال الثمانية عشر شهر الماضية . وأثناء الأسابيع الست المنتهية فى مايو من هذا العام (١٨٦٢) ارتفع المتوسط فبلغ ٨ أيام أى ٨٤ ساعة فى الأسبوع» . ومع هذا يقول مستر سميث نفسه بابتسامة على محياه «إن عمل الآلة ليس كبيراً إلى هذا الحد» وبهذا المعنى يقول أصحاب العمل فى قسم الطباعة «إن العمل اليدوى أصلح من عمل الآلة» وعلى العموم تجد رجال الصناعة ساخطين على أى اقتراح يرمى إلى إيقاف الآلة على الأقل خلال أوقات تناول الطعام «ويقول مستر أوتلى مدير أحد مصانع عمل ورق الحائط فى المدينة «إن المادة (من القانون) التى تبيح العمل بين السادسة صباحا والتاسعة مساء تناسبنا جداً (!) ولكن ساعات المصنع بين ٦ صباحا، ٦ مساء غير ملاءمة . إن آلتنا تتوقف دائما بسبب تناول الغداء (ياللكرم !) وليس هناك إسراف فى الورق أو اللون» ثم يستطرد مبدياً روح العطف : «ولكنى أستطيع أن أفهم أن ضياع الوقت أمد غير مستحب» .

ويصرح تقرير اللجنة أن الخوف الذى تشعر به بعض الشركات الرئيسية من ضياع الوقت ومعنى هذا الوقت الذى يستغل فى استخدام عمل الغير والحصول على الربح، ليس مبرراً كافيا لحرمان الأطفال ممن دون الثالثة عشرة او الأحداث دون الثامنة عشرة والذين يعملون من ١٢ إلى ١٦ ساعة يومياً، من تناول غذائهم أو إعطائه لهم كما يعطى الفحم والماء للآلة البخارية أو الصابون للصوف أو الزيت للعجلة، فالغذاء كأنه مجرد شىء تحتاجه اداة العمل[1].

= إن مستر سميث ومن على شاكلته يعدون عشر ساعات ونصف الساعة يوم عمل عادياً يتضمن بالطبع فائض العمل العادى وحين تنتهى هذه الساعات يبدأ العمل الزائد بأجر أحسن نوعا . وسنرى فيما بعد أن العمل الذى يبذل خلال ما يقال له يوم العمل العادى يدفع عنه أقل من قيمته بحيث أن هذا «العمل الزائد» ليس سوى حيلة رأسمالية لاستخلاص قدر أكبر من فائض العمل ؛ وهو كذلك حتى ولو كانت قيمة العمل المبذولة خلال يوم العمل العادى يدفع عنها قيمتها الكاملة .

(١) لجنة تشغيل الأطفال، التقرير الأول ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٤٠،

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ليس من صناعة بانجلترا لازالت محتفظة بالطريقة العتيقة فى الإنتاج أكثر من صناعة الخبز (ونحن هنا لانتعرض لصناعة الخبز بواسطة الآلات وقد اتبعت حديثاً) . ولكن رأس المال كما أوضحنا من قبل لا يأبه للطابع الفنى لعملية العمل .

إن غش الخبز لدرجة يصعب تصديقها (وبخاصة فى لندن) لم يكشف الغطاء عنه لأول مرة إلا فى تقرير لجنة مجلس العموم عن غش المواد الغذائية (١٨٥٥-٥٦) وفى المؤلف الذى وضعه الدكتور هاسال بعنوان «كشف أنواع الغش[١]» . وقد ترتب على ذلك أن أصدر فى ٦ اغسطس سنة ١٨٦٠ قانون لمنع غش مواد الطعام والمشروبات وهو قانون غير ذى أثر ناجع فعال لأنه يراعى إلى حد كبير مصالح دعاة حرية التجارة ممن يرون في الاتجار في السلع المغشوشة وسيلة لكسب بنس بطريقة شريفة»[٢] وقد قالت اللجنة ببساطة إنها تعتقد إن حرية التجارة معناها الاتجار بالسلع المغشوشة أو غير الحقيقية (السفسطائية كما يدعوها الإنجليز) . وهذا النوع من السفسطة يعرف خيرا من براتاجوأراس كيف يجعل الأبيض اسود والأسود ابيض ، ويعرف خيراً من أتباع إيليا كيف يظهر ان كل شيء ليس إلا مظهرا فقط[٣] .

وعلى كل حال فقد وجهت اللجنة أنظار الجمهور إلى «خبزه اليومى» وبالتالى صناعة الخبز . وفى الوقت ذاته ارتفع صوت العمال بالمخابز بالشكوى من الإرهاق فى العمل وما إليه وذلك عن طريق الاجتماعات العامة يعقدونها والإلتماسات يرفعونها إلى البرلمان . وقد ترتب على هذا الضجيج من جانبهم أن تألفت لجنة تحقيق ملكية رئاسة المستر ه . س . تريمنهير .

---

(١) إن مسحوق الشبه الدقيق والممتزج أحياناً بالملح . أداة عادية للاتجار فيها وتحمل إسم «مادة الخبازين» .

(٢) من المعلوم أن الهباب شكل قوى من الكربون وسماد له قيمة ولهذا نجد ماسحى المداخن من ذوى الميول الرأسمالية يبيعون هذه المادة للفلاحين الانجليز ، وفى سنة ١٨٦٢ طلب من إحدى هيئات المحلفين أن تقرر هل الهباب الذى مزج به ٩٠ ٪ من التراب والرمل (دون أن يدرى المشترى) يعد «طبيعياً» أى صحيحاً بالمعنى «التجارى» أم «مغشوشاً» بالمعنى «القانونى» . وقد قررت الهيئة وهى مكونة من «أصدقاء التجارة» أن الهباب حقيقى من وجهة النظر التجارية وأصدرت الحكم لصالح المدعى عليه وكلفت المدعى بدفع نفقات الدعوى .

(٣) درس الكيماوى الفرنسى شيفاليه فى رسالة له عن «غشوشات» السلع أكثر من ٦٠٠ سلعة وعدد مابين ١٠ ، ٢٠ بل وثلاثين طريقة للغش . ويقول إنه لا يعرف كافة الطرق كما أنه لا يذكر جميع الوسائل التى يعرفها ويصف لنا ٦ طرق لغش السكر ، ٨ لزيت الزيتون ، ١٠ فى الزبد ، ١٢ الملح ، ١٩ فى اللبن ، ٢٠ فى الخبز ، ٢٣ فى البراندى ، ٢٤ فى الدقيق ، ٢٨ فى الشيكولاته ، ٣٠ فى النبيذ ، ٣٢ فى البن وهكذا . أنظر فى هذا الصدد «وارد دى كارد De la falsification des substances sacramentelles باريس ١٨٥٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(أحد أعضاء لجنة ١٨٦٣ التى أشرنا إليها عدة مرات) . وإن التقرير[١] الذى قدمه والأدلة التى أوردها فيه لم يثر عاطفة الشعب وشعوره وإنما أثار معدته وحرك الناحية المادية منه . والانجليز وهم المعروفون بنشاطهم فى قراءة الكتاب المقدس، يؤمنون أن على الإنسان ان يكسب عيشه بعرق جبينه (إلا إذا كان بفضل الله من الراسماليين وملاك الأراضى) ، ولكنهم لم يعلموا من قبل أن الإنسان محكوم عليه يومياً أن يأكل الخبز بعد أن يكون العجين قد امتزج بقدر معين من عرق الإنسان والافرازات من الخراريج وأنسجة العناكب والجعارين الميتة والخميرة الألمانية المتعطنة ـ ولا نقل شيئاً عن الشبه والرمل وغير ذلك من العناصر المعدنية اللذيذة . ونتيجة لهذا تقرر فى ختام الدورة البرلمانية سنة ١٨٦٣ وضع صناعة الخبز تحت إشراف مفتشى الدولة دون إقامة وزن لقدسية مبدأ حرية التجارة ، ونص القانون على تحريم العمل بالمخابز بالنسبة إلى الأحداث الذين لم يبلغوا الثامنة عشرة من أعمارهم وذلك فيما بين التاسعة مساء والخامسة صباحاً . وتحدثنا المادة الأخيرة عن مبلغ الإرهاق فى تلك الصناعات المنزلية العتيقة الطابع ، حديثاً أقوى مما نلقاه فى مجلدات بأسرها .

« يبدأ العمل بلندن بالنسبة إلى عمال المخابز بالمياومة حوالى الساعة الحادية عشرة عادة، فيبدأ عمل العجين فى هذه الساعة وهى عملية شاقة تستغرق ما بين نصف وثلاثة أرباع الساعة حسب حجم الكمية أو العمل المخصص لها . يوضع العجين بعد ذلك على لوح الخشب المخصص له وهو فى الوقت ذاته غطاء الوعاء الذى يعجن فيه الدقيق . ينام العامل نحو ساعتين على زكيبة بينما يجعل من أخرى شيئاً كالوسادة ، ثم ينهض لمواصلة عمل سريع متصل وهو إخراج العجين وتقريصه وضعه فى الفرن وإعداد الأرغفة وتجهيزها وإخراجها إلى المخبز وهكذا . ويتم مثل هذا العمل فى نحو ٥ ساعات وتتراوح درجة حرارة المكان ما بين ٧٥ و٩٠ وقد تصل إلى ما بعد ذلك فى المحلات الصغيرة . وإذ ينتهى صنع الخبز تبدأ عملية التوزيع فيخرج الغلمان إلى الطرقات والشوارع يجوبونها ساعات حاملين الأسفاط أو جارين العربات وقد يرجعون أحياناً إلى المخبز ويتركون العمل فى ساعات مختلفة فيما بين الواحدة والسادسة مساء حسب الفصل ومبلغ عمل مخدومهم وطبيعته ، بينما يشتغل غيرهم ثانية بالمخبز لإعداد

---

(١) Report, etc. relating to the grievances complained of by the Journeymen Bakers, etc, London, 1862 and Second Report, etc, London, 1863.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مقادير أخرى وذلك حتى ساعة متأخرة بعد الظهر[١] وخلال الفترة التى تعرف باسم موسم لندن نجد العمال بالمخابز الراقية فى حى وست إند يبدأون العمل عادة فى الحادية عشرة ويقومون بإعداد الخبز حتى الثامنة صباحاً مع منحهم فترتى راحة قصيرتين (جداً) ، ثم ينهمكون طول النهار فى التوزيع حتى الساعة الرابعة أو الخامسة أو السادسة بل والسابعة مساء وقد يعودون أحياناً إلى المخبز للمساعدة فى عمل البسكويت . وبعد أداء عملهم ربما لا يتبقى لهم سوى خمس أو ست ساعات بل وأربع أحياناً يستأنفون بعدها العمل من جديد . وفى أيام الجمعة يبدأون العمل فى العاشرة مساء ويواصلونه سواء فى عمل الخبز أو توزيعه حتى الثامنة من مساء السبت ولكن فى العادة حتى الرابعة أو الخامسة من صباح الأحد . وفى أيام الآحاد على الرجال أن يترددوا على المحال مرتين أو ثلاثاً لعمل الاستعدادات اللازمة لليوم التالى . أما أولئك الناس الذين يبيعون خبزهم بأقل من السعر الكامل فإنهم يحملون رجالهم على العمل فى المخبز خاصة ، لأن هؤلاء السادة عادة يبيعون خبزهم . . . فى المحل نفسه ، وإذا ما بعثوا به خارجاً وهو أمر غير عادى فإنهم يستخدمون عمالا آخرين إذ ليس من عادتهم إرسال الخبز من بيت إلى بيت . وحوالى نهاية الأسبوع يبدأ الرجال العمل يوم الخميس فى العاشرة مساء ويواصلونه مع فترة قصيرة من الراحة حتى ساعة متأخرة من مساء السبت . (التقرير الأول الخ ص ٧١) .

وحتى من وجهة النظر البورجوازية كان من الممكن أن ندرك ما يفعله أصحاب المخابز الذين يبيعون بأسعار دون الـ يبيع بها غيرهم ، فقد أمكن التنافس بفضل عمل العمال الذين لا يتقاضون عنه أجراً[٢] أما الخباز ذو السعر الكامل ، فقد شكا منافسيه الذين يبيعون بأقل منه إلى لجنة التحقيق وأنهما أنهم لصوص يسرقون عمل الغير وغشاشون ، لأنهم يعيشون أولا بغش الجمهور وثانياً بالحصول من عمالهم على عمل ١٨ ساعة لقاء أجر ١٢ ساعة[٣] . أما غش الخبز وتكون طبقة من الخبازين تبيع بأقل من السعر السليم فيرجعان إلى بداية القرن الثامن عشر أى من الوقت الذى زالت فيه الصفة الطائفية لهذه الصناعة وقام بها الرأسمالى على هيئة صاحب المطحن مستتراً وراء الخباز الإسمى[٤] . وهكذا وضعت فى هذه الصناعة أسس

---

(١) التقرير الأول الخ ص ٦ .

(٢) George Read: The History of Baking, London, 1848, p. 16

(٣) First Report etc, evidence of the «full-priced baker» Cheeseman p. 108

(٤) جورج ريد (مصدر سابق) — فى نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر كان الوكلاء الذين يملأون كل مهنة موضع الاستنكار إذ اعتبروا مصدر إقلاق للراحة العامة . فمثلا قدمت هيئة المحلفين الكبرى فى مقاطعة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الإنتاج الرأسمالى وإطالة يوم العمل وأداء العمل الليلى ولو أن هذا الأمر الأخير لم تثبت دعائمه فى لندن إلا منذ سنة ١٨٢٤ .

ويفهم مما أوردته لجنة التحقيق فى تقريرها أن طبقة عمال المخابز بالمياومة تدخل فى زمرة العمال ذوى الأعمار القصيرة ونادراً ما يدرك أفرادها الثانية والأربعين من عمرهم .

وبرغم هذا لاتزال هذه الصناعة مزدحمة بمن يتهافتون عليها من اسكتلنده والمناطق الزراعية فى غرب انجلترا ثم ألمانيا . وقد نظم عمال صناعة الخبز بأرلنده فى سنوات (١٨٥٨ — ٦٠) اجتماعات كبيرة احتجاجاً على العمل الليلى وفى يوم الأحد ، وانحاز إلى صفهم الجمهور وذلك أثناء الاجتماع الذى عقدوه فى مايو ١٨٦٠ . وقد ترتب على هذه الحركة أن تقرر العمل نهاراً فقط وذلك فى وكسفورد وكلكنى وكلونمل ووترفورد الخ ، أما فى ليمريك حيث تعرض عمال المخابز لمساوىء شديدة مرهقة فقد أخفقت الحركة بسبب المعارضة من جانب أصحاب المخابز ، وبخاصة من ناحية أرباب المطاحن . وقد سبب ما حدث فى ليمريك حركة رجعية فى إنس Ennis وتيبرارى Tipperary ، كما استطاع أصحاب المخابز فى كورك إخماد الحركة عن طريق التهديد بطرد العمال . وفى دبلن قاوم أصحاب المخابز مقاومة عنيفة واستطاعوا حمل القائمين بالحركة على الرضاء بالعمل أثناء الليل وفى يوم الأحد ، مخالفين بذلك مايؤمنون به (١) .

وتحتج لجنة الحكومة الإنجليزية القائمة فى أرلنده ، بعبارة مخففة اللهجة وإن كانت محزنة على مسلك أصحاب المخابز العدائى فى دبلن وليمريك وكورك الخ فتقول « تعتقد اللجنة أن ساعات العمل تحددها قوانين طبيعية لايمكن الخروج عليها دون خوف عقاب القانون وإن محاولة أصحاب المخابز عن طريق التهديد بالطرد لحمل عمالهم على نكث معتقداتهم الدينية ومشاعرهم ، ومحاولة عصيان قوانين البلاد وعدم مراعاة الرأى العام (وهذا كله إشارة إلى العمل يوم الأحد) مما يثير النفور بين العمال وسادتهم . كما أنه مثل خطير الأثر على الدين والاخلاق والنظام الاجتماعى . وتعتقد اللجنة أن تشغيل العامل أكثر من ١٢ ساعة فيه اعتداء

= سمرست بياناً إلى مجلس العموم جاء فيه « وهؤلاء الوكلاء من بلاكول هول مصدر مضايقة عامة ويسيئون إلى صناعة القماش ويجب القضاء عليهم » The Case of our English wool, etc, London, 1685, pp, 6-7 هكذا وضع أساس الانتاج الرأسمالى فى هذه الصناعة ، ولمدى العمل إلى غير حد ، وللعمل الليلى ولو أن هذا الأخير لم يصبح عاماً فى لندن إلا بعد سنة ١٨٢٤ (التقرير الأول الخ ص ٨)

(١) Report of Commitee on the Baking Trade in Ireland for 1861

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

على حياته المنزلية والخاصة ، ويؤدى إلى نتائج أدبية خطيرة بالنسبة إلى بيته وإلى قيامه بواجباته إزاء أسرته بصفته ابنا أو أخاً أو زوجاً أو والداً . إن العمل أكثر من ١٢ ساعة ليحطم صحة العامل ويجلب الهرم والموت قبل الأوان مما يسىء إلى أسرات العمال التى تحرم بذلك من عناية رؤسائها وعونهم فى وقت تكون فى أشد الحاجة إلى هذين الأمرين» (شرحه) .

بحثنا الأمر فى إرلنده فإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر من القنال رأينا العامل الزراعى والحراث باسكتلنده يحتجان على العمل مدة ١٣ — ١٤ ساعة فى جو شديد القسوة ، فضلا عن العمل أربع ساعات يوم الأحد [١] بينما نجد فى الوقت ذاته ثلاثة من رجال السكك الحديدية وهم كمسارى وسائق وإشارجى يدلون بشهادتهم عن الإرهاق فى هذه المهنة أمام هيئة محلفى قاضى التحقيق بلندن . فقد وقعت حادثة سكة حديدية أودت بحياة مئات من الركاب بسبب إهمال الموظفين ، وقد صرحوا أمام المحلفين أنهم كانوا منذ عشر سنوات أى اثنى عشرة سنة سابقة يعملون ثمانية ساعات فى اليوم ، ولكنهم خلال السنوات الخمس أوالست الأخيرة كانوا يشتغلون ١٤ أو ١٨ أو ٢٠ ساعة . ونظراً لشدة ضغط حركة الركاب الخارجين لقضاء إجازاتهم يوم الأحد ، وكثرة قطر الرحلات ، كانوا يشتغلون أحيانا ٤٠ أو ٥٠ ساعة بلا انقطاع وهم مع ذلك أفراد عاديون تخونهم القدرة على العمل فى وقت معين ويصيبهم الإعياء ويعجزون عن التفكير والرؤية . فما كان من المحلفين «المحترمين» تماما إلا أن أصدروا قرارهم بإحالة هؤلاء على محكمة الجنايات بتهمة القتل مع رجاء ينم على الصلاح بأن يعمل أصحاب السكك الحديدية الرأسماليون فى المستقبل على استخدام عدد أكبر من العمال وأن يبدوا قدراً أعظم من « العفة » و « إنكار الذات » و « الاقتصاد » فى استنزاف قوة العمل التى دفعوا ثمنها [٢]

---

(١) اجتماع عام للعمال الزراعيين فى لاسويد قرب إدنبره ، ٥ يناير ١٨٨٦ . ,, نصير العمال ,, ، ١٣ يناير ١٨٦٦ — وحوالى ختام سنة ١٨٦٥ بدأ فى إسكتلنده تكوين اتحاد للعمال الزراعيين ، وهذا حادث ذو أهمية تاريخية . وفى مارس ١٨٦٧ أضرب العمال الزراعيون بمقاطعة بكنجهام وهى أشد المناطق الزراعية بانجلترا خضوعاً للاستبداد والظلم مطالبين بزيادة أجورهم من ٩ أو ١٠ شلنات إلى ١٢ شلناً فى الاسبوع .

(٢) ,, صحيفة رينولدس ,, يناير ١٨٦٦ ، وقد أخذت الجريدة تنشر أسبوعاً بعد الآخر قائمة طويلة عن حوادث السكك الحديدية تحت عنوان ,, حوادث فظيعة وميتة ,, ، ,, مآسى مرعبة ,, ، وقد علق على هذه الحوادث أحد رجال السكك الحديدية فى خط ستامفورد شير بقوله ,, يعلم كل امرىء النتائج المترتبة على عدم عناية السائق والوقاد فى القاطرة . وكيف ننتظر هذا من رجل اشتغل ٢٩ أو ٣٠ ساعة معرضاً لتقلبات الطقس ودون أن يتمتع بالراحة ، —

ومن هذا الجمع الخليط من أفراد يمثلون كافة المهن والأعمار من كلا الجنسين تستطيع أن ترى على وجوههم من أول نظرة طابع الإرهاق فى العمل . وإنا لنذاكرون مثلين آخرين بينهما أشد التناقض ولكنهما يثبتان أن الناس جميعاً سواء فى نظر رأس المال ، وهذان المثلان عن حائكة وحداد .

فى الأسبوع الأخير من شهر يونية سنة ١٨٦٣ نشرت كافة صحف لندن اليومية ففرة بهذا العنوان المثير « الموت بسبب ارهاق العمل » ، وهذه قصة فتاة تدعى مارى آن ووكلى البالغة من العمر عشرين عاماً . كانت الفتاة تعمل فى محل حياكة محترم وتستغلها سيدة ذات اسم ظريف يقال لها إليز . وبلغ متوسط ماتعمله الفتاة ١٦½ ساعة فى اليوم ، أما خلال الموسم فكان العمل يستمر ثلاثين ساعة بلا انقطاع ، وكانوا يعطونها بعض المنبهات مثل الشاى والنبيذ والقهوة حتى لاتخر من الإعياء . وإذ كانت تلك الفترة أشد الفترات فى الموسم نشاطا وكان لابد من إعداد الملابس الفخمة الرائعة للسيدات النبيلات فى أسرع وقت ممكن حتى يتسنى لهن الظهور فى حفلة تقام تكريما لأميرة ويلز التى وفدت من الخارج حديثاً . لهذا اشتغلت مارى آن ٢٦½ ساعة بدون توقف مع ٦٠ فتاة أخرى كل ٣٠ منهن فى غرفة واحدة لاتسمح لأى منهن إلا بنصف قدم مكعب من الهواء . نامت الفتيات ليلا كل اثنتين منهن فى إحدى الجحور الخانقة التى قسمت الحجرة إليها بواسطة ألواح من الخشب (١) ويلاحظ أن هذا المحل كان

= وفيما يلى مثال كثير الوقوع : — بدأ وقاد العمل فى ساعة مبكرة جداً من صباح الاثنين . وبعد أن أتم ما ينال له عمل اليوم كان قد اشتغل ١٤ ساعة ، ٥٠ دقيقة . وقبل ان يحمد الوقت لتناول الشاى استدعى للعمل .... وفى المرة الثانية كان قد اشتغل ١٤ ساعة ، ٢٥ دقيقة ، ومجموع ذلك ٢٩ ساعة ، ١٥ دقيقة بدون توقف . وكانت بقية عمل الأسبوع كالآتى : الأربعاء ١٥ ساعة ، الخميس ١٥ ساعة ، ٣٥ دقيقة ، الجمعة ½ ١٤ ساعة ، السبت ١٤ ساعة ، ١٠ دقائق وبدا يكون المجموع فى الأسبوع ٨٨ ساعة ، ٤٠ دقيقة . والآن تصور ياسيدى دهشته إذ يتناول الأجر عن ½ ٦ يوم ، فظن ذلك خطأ ولجأ إلى مؤذن الوقت سائلا عما يعدونه يوم عمل فكان الجواب أن يوم العمل ١٣ ساعة للرجل الكفء (اى ٧٨ ساعة) .... وهنا طلب اجراً عما اشتغله زيادة عن ٧٨ ساعة فى الأسبوع ولكن رفض طلبه ، واخيراً قيل له انهم سيعطونه ١٠ بنسات ،، (مصدر سابق ، ٤ فبراير ١٨٦٦) .

(١) صرح الدكتور Letheby طبيب لجنة الصحة بما يأتى :

,, يجب أن يكون الحد الأدنى من الهواء لكل بالغ ٣٠٠ قدم مكعبة فى غرفة النوم ، ٥٠٠ فى حجرة المكن ،،. وقال الدكتور ريتشارسن رئيس أطباء أحد مستشفيات لندن ,, إن النساء المشتغلات بالابرة بما فى ذلك مختلف أنواع الخياطات يتعرضن لثلاثة ألوان من الشقاء وهى : الارهاق فى العمل ، نقص الهواء ، وقلة الغذاء او سوء الهضم ... إن عمل الابرة فى الغالب . انسب للنساء منه للرجال . ولكن شرور المهنة وبخاصة فى العاصمة تنحصر فى ان هذه =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من خير محال الحياكة فى لندن . مرضت مارى آن يوم الجمعة وماتت يوم الأحد دون إتمام العمل المنوط بها وهو ما أثار دهشة السيدة إلين . وجيء بالدكتور كينز فى ساعة متأخرة إلى فراش الموت وقد أدلى بشهادته أمام المحقق قائلا ان الموت كان نتيجة الساعات الطويلة من العمل فى مكان شديد الازدحام وفى غرفة نوم صغيرة رديئة التهوية .

وكأنما أراد المحقق أن يلقى على الطبيب درساً فى حسن الأخلاق فصدر قرار المحلفين معلنا أن « الفقيدة توفيت من الإختناق ، ولكن هناك من الأسباب مايحمل على الظن بأن الوفاة قدعجل بها الإرهاق فى محل شديد الازدحام الخ » . وكتبت صحيفة المورننج ستار لسان حال نصيرى حرية التجارة كوبدن وبرايت تقول صارخة «إن عبيدنا البيض الذين يجبرون على العمل الشاق الذى يودى بحياتهم — هؤلاء فى الغالب يذوبون ويموتون فى صمت وسكون (١) .

= الصناعة إحتكار لست وعشرين من الراسماليين الذين ، بسبب المزايا الناجمة عن رأس المال يستطيعون ان يأتوا برأس مال كاف لاحداث الاقتصاد عن طريق العمل . ويبدو أثر هذه القوة فى الطبقة كلها . فاذا كانت صانعة الملابس لها عدد قليل من العملاء تعرضت لمنافسة تحملها على ان تعمل حتى الموت وهى بالضرورة تفرض هذا الارهاق على كل من يساعدها . فاذا اخفقت او لم تحاول العمل مستقلة اضطرت إلى الالتحاق بأحد المنشآت حيث لا ينقص عملها ولكنها تطمئن إلى سلامة مالها . وإذ توضع فى هذا المركز فانها تصبح مجرد عبد تحركه تقلبات المجتمع . والآن فى البيت وفى غرفة واحدة تموت جوعاً او تعيش فيما يقرب من هذه الحالة ، ثم تشتغل ١٥ ، ١٦ بل ١٨ ساعة من ساعات اليوم الأربع والعشرين فى هواء لا يكاد يطاق ، وتعيش على غذاء لا يمكن هضمه ولو كان طيباً وذلك بسبب عدم توافر الهواء . على اجساد هذه الضحايا يتغذى المل وهو مرض ناشىء عن الهواء الفاسد » .

(١) وجدت صحيفة التيمس فى هذا الحادث فرصة طيبة تدافع فيها عن ملاك العبيد الأمريكيين ضد برايت وشركاه وإليك ما ورد فى مقال نشر بالعدد الصادر يوم ٢ يوليه سنة ١٨٦٨ « يتراءى لكثير منا انه بينما نحمل فتياتنا على العمل إلى حد الموت مستخدمين فى ذلك التهديد بدلا من السوط اداة للارغام يكاد لايكون لنا الحق فى الحملة الشديدة على أولئك الذين ولدوا ملاكاً للعبيد والذين على الأقل حرروا عبيدهم ويكلفونهم بأداء عمل خفيف » . وبنفس الروح حملت صحيفة ستاندرد على القس نيومان هول فقالت « إنه هدد ملاك العبيد بالحرمان ولكنه يصلى من اجل القوم الطيبين الذين لايشعرون بوخز الضمير وهم يجبرون سائقى السيارات العمومية فى لندن على العمل ١٦ ساعة فى اليوم لقاء اجر لايزيد عما يدفع للكلب » . واخيراً يجىء ذلك العراف توماس كارليل الذى كتبت عنه سنة ١٨٥٠ مايلى « لقد ذهب العبقرى إلى الشيطان ولكن تعاليمه باقية » . لقد وصف الحرب الأهلية الأمريكية بهذه العبارة الموجزة فقال إنها تتلخص فى أن بطرس الشمال يريد تحطيم رأس بولص الجنوب لأن بطرس الشمال يستأجر العمال « باليوم وبولص الجنوب يستأجرهم مدى الحياة » .

Macmillan's Magazine, Jlias America in nuce

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وقد جاءت هذه العبارات فى المقال الصادر بعدد ٢٣ يونيه سنة ١٨٦٣ .

وليست غرف حياكة الملابس بالمكان الوحيد الذى يسوده نظام من الارهاق المميت بل إن هناك ألف مكان سواه شبيه به ، بل إننا نجد نفس الأمر فى كل مكان به « عمل ناجح يدر الربح على صاحبه » . ولنضرب مثلا بالحداد . « لو صدق الشعراء لما كان ثمت رجل أشد منه عطفا وابتهاجاً ، فهو يصحو مبكراً ويطرق الحديد حتى يتطاير الشرر وذلك قبل الشروق ويأكل ويشرب بما لا يفعله الغـــير . وإذا اشتغل بقصد واعتدال لكانت مهنته من خير ما يمارس الناس من الوجهة الجثمانية . ولكننا إذا تتبعناه إلى المدينة ورأينا تأثير العمل على ذلك الرجل القوى ، فماذا يكون مركزه فى نسبة الوفيات فى هذا البلد ؟ . ففى Marylebone يبلغ متوسط الوفيات بين الحدادين ٣١ فى الألف سنوياً وهذه النسبة تزيد ١١ فى الألف عن مثيلها فى حالة البالغين فى البلاد كلها . وهكذا نجد أن هذا العمل الذى هو بالغريزة جزء من الفن الإنسانى والذى لا اعتراض عليه بصفته أحد فروع الصناعة الإنسانية ، يصبح بسبب الإرهاق هادماً لذلك الرجل الذى يستطيع أن يضرب ضربات عدة كل يوم ويمشى خطوات كثيرة ويتنفس كثيراً وينتج انتاجاً كبيراً ويعيش فى المتوسط ٥٠ عاماً . ولكننا نحمله على أن يعمل ويمشى ويتنفس وينتج أكثر مما يجب فتكون النتيجة أنه لكى ينتج ربح عمل زيادة عن المعتاد يموت فى سن ٣٧ بدلا من ٥٠ » (١) .

القسم الرابع — العمل النهارى والليلى — نظام المناوبات

اذا نظرنا الى رأس المال الثابت ووسائل الإنتاج من وجهة نظر خاق فائض القيمة لوجدنا أن الغاية من وجودهما امتصاص العمل ، فكل قطعة من العمل تلقى إلى جانبها مقداراً متناسباً من فائض العمل ، فإذا أخفقا فى تحقيق هذه الغاية لسبب وجودهما خسارة نسبية لصاحب رأس المال إذ أنهما خلال الوقت الذى يظلان فيه عاطلين يمثلان مبلغاً من رأس المال قدمه صاحبه بلا نفع ولا جدوى . وتصبح هذه الخسارة ايجابية ومطلقة بمجرد أن يتطلب

= أغسطس سنة ١٨٦٣ . وهكذا انفجر عطف التورى أخيراً على عمال المدن (لأن جماعة التورى لا تبدى العطف على العمال الزراعيين) . وفى داخل هذا العطف نجد الاستعباد .

(١) Social Science Review. July 18, 1863.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

توقفها عن العمل مبالغ إضافية عند استئنافه . أما إطالة يوم العمل أكثر من اليوم الطبيعي حتى جانب من الليل فليس إلا وسيلة مخففة تطفىء إلى حد بسيط تعطش رأس المال لدم العمل الذى يتميز به الإنتاج الرأسمالى . ولما كانت هناك استحالة مادية أى جثمانية فى استغلال مقدرة الفرد على العمل ليلا ونهاراً لهذا يحاولون التغلب على هذه العقبة الطبيعية عن طريق نظام التناوب بين العمال الذين تنهك قوائم نهاراً وأولئك الذين تنهار مقدرتهم على العمل ليلا . ويتم هذا الإجراء بأساليب متنوعة كأن ينظم العمل بحيث يشتغل فريق ليلا فى أسبوع ما ونهاراً فى الأسبوع الآخر .

ومن المعلوم أن هذه الطريقة سادت فى عهد شباب صناعة القطن الإنجليزية ، ولاتزال حتى اليوم مزدهرة فى صناعة غزل القطن بمنطقة موسكو ، كما أن هذه الطريقة فى الإنتاج والقائمة على استغلال الساعات الأربع والعشرين لازالت موجودة ببريطانيا العظمى فى كثير من الصناعات التى لاتزال « حرة » كما هو الشأن فى أفران الصهر وغيرها من المنشآت المعدنية الصناعية بانجلترا وويلز واسكتلنده . والعمل هنا يشمل جانبا من يوم الأحد إلى جانب الساعات الأربع والعشرين فى كل من الأيام الست الأخرى . والعمال يشملون الرجال والنساء والبالغين والأطفال من كلا الجنسين ، وتتراوح أعمار الأطفال والأحداث من الثامنة (بل والسادسة أحياناً) حتى الثامنة عشرة [1] وفى بعض فروع الصناعة تشتغل الفتيات والنساء بالليل إلى جانب الذكور [2] .

وإذا ماطرحنا جانبا الأثر الضار المترتب على العمل بالليل [3] فإن استمرار عملية الإنتاج

---

(١) لجنة استخدام الأطفال ، التقرير الثالث ، لندن ١٨٦٤ ص ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٢) فى كل من ستافورد شير وجنوب ويلز تستخدم الفتيات الصغيرات والنساء للعمل نهاراً وليلا على جانبي المنجم وفوق أكوام الكوك . ولاحظت التقارير المرفوعة إلى البرلمان أن مثل هذه العادة مصحوبة بشرور سيئة كبيرة . فهؤلاء الاناث اللائى يعملن مع الرجال ، ولا يتميزن عنهم من حيث الملبس ، ويعلو أجسامهن التراب والقذارة ، يتعرضن للانهيار الخلقى الناشىء عن فقدان احترام الذات الأمر الذى يستتبع هذا العمل الذى لم تعد له الأنثى ،، . شرحه ١٩٤ ص ٢٦ . وانظر كذلك التقرير الرابع ١٨٦٥ ، ص ١٣ ونجد الأمر نفسه فى مصانع الزجاج .

(٣) يلاحظ صاحب مصنع للصلب يستخدم الأطفال فى العمل الليلى ما يأتى ،، يبدو من الطبيعى أن الأولاد الذين يعملون بالليل لا يستطيعون النوم أو يحصلون على الراحة الكافية بالنهار . وإنما يجرون هنا وهناك ،، ـ المصدر السابق ، التقرير الرابع ٦٣ ص ١٣ . وفيما يختص بأهمية ضوء الشمس بالنسبة إلى المحافظة على الجسم ونموه كتب طبيب يقول ،، يؤثر الضوء تأثيراً مباشراً على أنسجة الجسم فيزيدها صلابة ويزيد من مرونتها ،، . وحين تحرم الحيوانات من القدر الصحيح من الضوء فان عضلاتها تصبح لينة غير مرنة ، وتفقد القوة العصبية طابعها نتيجة نقص =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بلا انقطاع مدى ٢٤ ساعة كاملة يتيح الفرص لتجاوز حدود يوم العمل العادى ، والمثال لذلك متوافر فى فروع الصناعة التى سلفت الإشارة إليهـــا والتى هى مجهدة بطبيعتها . ويوم العمل بعد هذا الحد « مخيف حقاً » (١) على حد تعبير التقرير الرسمى البريطانى . و . ء فى التقرير كذلك « أن من المستحيل على العقل أن يدرك مبلغ العمل الذى تصفه هذه الصفحات والذى يقوم به أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثانية عشرة ، دون أن يرى أن من الضرورى ألا يسمح بعد الآن ببقاء هذا الاستغلال للسلطة من جانب الوالدين وأصحاب الأعمال (٢) » وإن عادة تشغيل الأولاد بالدور ليلا ونهاراً سواء فى الأوقات العادية أو الحالات الماسة لابد وأن يفتح الباب لاشتغالهم ساعات أطول مما يستدعيه الحال . وهـذه الساعات طويلة بالنسبة إلى الأطفال إلى حد القسوة بدرجة يصعب تصديقها ، ولذا يحدث أن يتغيب واحد أو أكثر منهم لسبب ما ، وحين يقع هذا يحل محلهم غيرهم من الأولاد ، وهذا النظام واضح مفهوم على مايبدو من اجابة مدير مصانع كبيرة حين سألته كيف يشغل محل الأولاد المتخيبين عن دورهم فقال « انك لتعلم ذلك مثلى » واعترف بالحقيقة (٣) . وفى أحـــد مصانع طرق المعادن حيث يمتد العمل من ٦ صباحاً إلى ٥½ مساء اشتغل حدث أربع ليال فى كل أسبوع لغاية الساعة ٨½ على الأقل واستمر على هذا النحو ٦ أشهر وقام آخر فى التاسعة من عمره أحيانا بالعمل فى فترات ثلاث كل منها ٢½ ساعة ولما بلغ العاشرة اشتغل يومين وليلتين » . وهناك ثالث « سنه العاشرة الان . اشتغل من ٦ صباحاً حتى ١٢ مساء مدى ثلاث ليال وحتى ٩ مساء فى الليالى الأخرى .

=العامل المنشط ، ويبدو كأنما سبيل النمو كله يسير فى اتجاه غير سليم ... وفى حالة الأطفال نجد أن التعرض الدائم للضوء الكثير أثناء النهار ولأشعة الشمس المباشرة خلال جانب منـــه ، من ألزم الأشياء للصحة ، إذ الضوء يساعد على نقاء الدم ويزيد من صلابة الألياف ، وينشط كذلك أجهزة البصر وبذا يسبب نشاطا أكبر فى مختلف وظائف النخاع الشوكى ،، . أما الدكتور و. سترانج Strange كبير أطباء مستشفى ورستر العمومية (والذى اقتبسنا الفقرة السابقة من مؤلفه عن ,, الصحة ،، المنشور سنة ١٨٦٤) فقد كتب ما يأتى فى خطاب إلى مستر هوايت أحد أعضاء لجنة استخدام الأطفال ,, عند ما كنت فى لانكشير سابقاً أتيحت لى الفرص لملاحظة آثار العمل الليلى على الأطفال ، وإنى بخلاف ما كان بعض أرباب الاعمال يرددونه . لا أتردد فى القول بأن الأطفال الذين كانوا يخضعون لهذا النظام ، سرعان ما كانت تتأثر صحتهم ،، التقرير ٢٨٤ ص ٥٥ . وإن كون مثل هذا الموضوع يصبح عرضة لمثل هذا الجدل مما يشهد بالطريقة التى يؤثر بها الانتاج الرأسمالى فى الوظيفة الفخرية للرأسماليين ومن يلوذون بهم .

(١) مصدر سابق ٥٧ ص ١٢ .

(٢) التقرير الرابع ١٨٦٥ ، ٥٨ ص ١٢ .

(٣) شرحه

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

واشتغل آخر عمره الآن ١٣ سنة من ٦ مساء حتى ظهر اليوم التالى خـــلال أسبوع بأكمله وأحياناً ثلاث دورات بأكملها أى من صباح الإثنين حتى ليلة الثلاثاء ، وغيره فى الثانية عشرة من عمره الآن كان يشتغل فى ورشة حديد بستاقلى من ٦ صباحاً حتى ١٢ مساء لمدة أسبوعين ولم يستطع بعد ذلك أن يفعل نفس الشىء ، وحضر جورج ألنسورث وعمره التاسعة إلى هنا يوم الجمعة الماضى بصفته أحد صبيان القبو . وفى صباح اليوم التالى كان علينا أن نبدأ العمل فى الثالثة ولذا بقيت هنا طول الليل لأنى أسكن على بعد ٥ أميال ونمت على أرضية الفرن وتحتى فوطتى وغطائى قطعة من جاكتة ، أما الولدان الآخران فكانا هنـا فى السادسة . آه إن الحر شديد هنا . وقبل أن أفد إلى هنا اشتغلت نحو عام ببعض الورش فى الجهة ، وهنـاك كنت أبدأ العمل أيضاً فى الثالثـة من صباح السبت ولكنى كنت أنام فى بيتى وهو على مقربة من محل عملى وفى بعض الأيام الأخرى كنت أبدأ فى السادسة صباحاً وأواصله حتى ٦ أو ٧ مساء الخ[1]

---

(١) المصدر المشار إليه ص ١٣ . من المحتوم أن المستوى العلمى لقوة عمل من هذا الطراز يجب أن يكون بالصورة التى تظهرها المحادثة التالية مع أحـد أعضاء اللجنة : أرميا هايز وعمره ١٢ سناً : ,, أربعة فى أربعة ٨ ، أربع أربعات ١٦ . الملك هو ذلك الذى يملك كل المال والذهب . لنا ملك (وقيل له إنها ملكة) ويدعونها الأميرة الأسكندريةAlexandria قيل له إنها تزوجت ابن الملكة . ابن الملكة هو الأميرة اسكندرية . الأميرة عبارة عن رجل ،، . وليم تيرنر وعمره ١٢ سنة ,, لا اسكن فى انجلترا . اظن انها ملكة ولكنى لم اعلم ذلك من قبل ،، . جون موريس وعمره ١٤ ,, سمعتهم يقولون إن الله خلق العالم وإن الناس جميعاً غرقوا عدا واحداً ، وسمعتهم يقولون إن ذلك الواحد كان طائراً ،، . وليم سميث وعمـره ١٥ ,, لا أعرف شيئاً عن لندن ،، . هنرى ماثيومان وسنه ١٧ ,, كنت أتوجه إلى الكنيسة ولكنى لم أفعل ذلك عدة مرات فى المدة الأخيرة . وكانوا يعظون عن اسم يسوع المسيح ولكنى لا أذكر أسماء أخرى كما أنى لا أعلم شيئاً عنه . لم يقتل ولكنه مات كغيره من الناس . وكان يخالف الناس فى بعض الأمور لأنه كان متديناً فى بعض النواحى بينما سواه ليسوا كذلك ،، . (نفس المصدر ص ١٥) ,,إن الشيطان شخص طيب ولا أدرى أين يقيم ،، — ,,كان المسيح رجلا شريراً ،، . هذه الفتاة أخطأت فى هجاء كلمة God ولم تعرف إسم الملكة ،، — تقرير لجنة استخدام الأطفال ، التقرير الخامس ١٨٦٦ ، ص ٥٥ رقم ٢٧٨ . النظام الذى وصفناه عن المصانع المشتغلة بالصناعات المعدنية تجده كذلك فى مصـــانع الزجاج والورق . وفى الأخيرة حيث يصنع الورق بواسطة الآلة نجد أن العمل الليلى هو القاعدة السائدة بالنسبة إلى جميع عمليات العمل عدا ترتيب الخرق . وفى بعض الحالات تجد أن العمل الليلى بطريق التناوب يستمر خلال الأسبوع كله فيبدأ فى منتصف الليل كل يوم سبت ويستمر حتى منتصف ليل السبت التالى . والذين يؤدون عمل النهار يستخدمون ٥ أيام كل منها ١٢ ساعة ويوماً واحداً طوله ١٨ ساعة ، وأولئك الذين يشتغلون بالليل يستخدمون خمس ليال كل منها ١٢ ساعة وليلة ذات ٦ ساعات — وذلك أسبوعاً بعد أسبوع . ومع هذا ففى حالات أخرى نجد أفراد كل نوبة يشتغلون بالتوالى ==

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولنستمع الآن لنرى كيف ينظر رأس المال إلى نظام الساعات الأربع والعشرين هذا . إنه يمر فى صمت على مظاهر هذا النظام المتطرفة ومساوئه القاسية التى يبعد على العقل تصديقها من حيث إطالة يوم العمل . إن رأس المال يتحدث عن هذا النظام فى شكله « العادى » وإليك ما يقوله السادة نيلور وفيكرز من أصحاب مصانع الصلب ويستخدمان ما بين ٦٠٠ ، ٧٠٠ شخص منهم حوالى ١٠٪ دون الثامنة عشرة ومن هؤلاء عشرون فقط يعملون فى الجماعات الليلية . لا يقاسى الأولاد شيئاً من الحرارة . قد تكون هذه بين ٨٦° ، ٩٠° .... ففى الأكوار ومصانع طرق المعادن يشتغل العمال ليلا ونهاراً بالتناوب ولكن بقية أجزاء العمل نهارية أى من ٦ صباحاً حتى ٦ مساء . وفى الفرن forge تجد ساعات العمل من ١٢ إلى ١٢ . ويشتغل بعض العمال ليلا دائماً بدون أى تبادل بين عملى النهار والليل ... ولا نجد فارقاً بين صحة من يعملون ليلا بانتظام وأولئك الذين يشتغلون نهاراً . ومن المحتمل أن فى استطاعة الناس النوم بطريقة أفضل إذا حصلوا على نفس فترة الراحة مما لو تغيرت ... وحوالى ٢٠ حدثاً دون الثامنة عشرة منخرطون فى زمرة الجماعات الليلية ... ولم يكن فى استطاعتنا الاستغناء عن الأحداث ممن هم دون الثامنة عشرة فى أداء العمل ليلا . وينحصر الاعتراض فى زيادة نفقة الإنتاج ... من الصعب الحصول على العمال المهرة والأسطوات فى أية ناحية ولكن نستطيع الحصول على أى عدد من الأولاد ... ولكن نظراً لصغر نسبة الأولاد الذين نستخدمهم فان الموضوع (أى القيود المفروضة على العمل الليلى) قليل الأهمية بالنسبة لنا[1] .

= فى أيام بالتبادل ، فتشتغل مجموعة ٦ ساعات يوم الاثنين ، ١٨ يوم السبت لتكملة الساعات الأربع والعشرين . وفى حالات أخرى خلاف هذه يسود نظام وسط بين الاثنين السابقين ، فكل الذين يعملون فى مصنع الورق يشتغلون ١٥ أو ١٦ ساعة كل يوم فى الأسبوع . وكتب عضو اللجنة لورد يقول إن هذا النظام الأخير ,, يبدو كأنه يجمع فى طياته كافة مساوىء نوبتى الساعات ١٢ ، ٢٤ ،، . ويشتغل فى ظل هذا النظام الليلى أطفال دون الثالثة عشرة من أعمارهم واحداث لم يبلغوا الثامنة عشرة ونساء . واحياناً فى ظل نظام الساعات الاثنى عشر يضطرون إلى العمل نوبة مضاعفة قدرها ٢٤ ساعة حين لا يأتى افراد الفرقة التى يجب ان تحل محلهم . ويظهر من الأدلة ان الأولاد والبنات غالباً ما يشتغلون زيادة عن الوقت المقرر (بأجر) ، بل إنهم احياناً يعملون ٢٤ بل ٣٦ ساعة فى عمل مجهد غير منقطع . وفى بعض الأحيان تشتغل البنات من سن الثانية عشرة الشهر كله مدى ١٤ ساعة فى اليوم وذلك فى عملية التزجيج المتصلة المملة ,, بدون اكتراث للراحة اللهم إلا فترتين او ثلاث كل منها نصف ساعة حتى يتناولن غذائهن ،، . وفى بعض المعامل حيث اقلعوا عن العمل الليلى كنظام عادى يتبع نظام العمل زيادة عن الوقت إلى الحد الأقصى المرعب ،، وذلك فى أشد العمليات قذارة وحرارة ومللا ،، . لجنة استخدام الأطفال ، التقرير الرابع ١٨٦٥ ص ٣٨ ، ٣٩

(١) التقرير الرابع ١٨٦٥ ، ٢٩ ص ١٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ويملك السادة جون براون وشركاه مصانع للحديد والصلب تستخدم حوالى ٣٠٠٠ من الرجال والأولاد ، ويؤدى جانب من العمل وبخاصة الحديد والصلب الثقيل ليلا وفق نظام التناوب . وهاك ما يقرره مستر ج . اليس أحد رجال هذه الشركة « فى صناعة الصلب الثقيل نستخدم ولداً أو ولدين مقابل كل ٢٠ أو ٤٠ رجلا » وفى شركتهم أكثر من ٥٠٠ ولد دون الثامنة عشرة وثلثهم أو ١٧٠ أقل من الثالثة عشرة . ويقول المستر اليس بصدد التغيير المقترح فى القانون « لا أظن أن هناك داعياً للاعتراض على منع من هم دون سن ١٨ من الاشتغال أكثر من ١٢ ساعة فى أل ٢٤ ، ولكننا لا نظن إمكان وضع حد فوق سن ١٢ وهى السن التى يمكن فيها الاستغناء عن الأطفال فى العمل الليلى . إن الأولاد الذين يعملون فى مجموعات النهار يأخذون دورهم فى المجموعات الليلية أيضاً إذ ليس باستطاعة الرجال الاشتغال فى الجماعات الليلية فقط لأن هذا يفسد صحتهم ... ونعتقد أن العمل الليلى أسابيع بالتناوب لاضرر ينجم عنه (يلاحظ أن السادة نيلور وفيكرز بريان لصالح عملهما أن تغيير العمل الليلى من وقت لآخر قد يضر أكثر مما يفعل العمل الليلى المتصل) وإننا نجد الرجال الذين يقومون بهذا العمل وكذلك غيرهم الذين يؤدون عملا آخر فى النهار ... وإن اعتراضنا على عدم السماح للأولاد دون الثامنة عشرة بالعمل ليلا راجع إلى ما يسببه من ازدياد النفقات ، ولكن هذا هو السبب الوحيد (يالبساطة الدالة على حب الذات !) ونرى أن هذه الزيادة فى النفقات أكثر مما تستطيع الصناعة تحمله إذا أريد مواصلتها بنجاح (يا للأسباب الدالة على المصلحة الذاتية) . إن الأيدى العاملة هنا قليلة وقد يزداد نقصها إذا وجد مثل هذا القانون » ومعنى ذلك أن إليس براون وشركاه قد يقعون فى الارتباك الخطير حيث يضطرون أن يدفعوا لقوة العمل قيمتها الكاملة(١) .

وتدار مصانع سيكلوبس للصلب والحديد التابعة للسادة كامل وشركاهم على نفس النطاق الكبير كما هو الشأن فى المنشآت المذكورة آنفاً ملك جون براون وشركاه . وقد سلم المدير المشرف على العمل شهادته كتابة إلى عضو اللجنة الحكومية مستر هوايت ، إلا أنه رأى من صالحه إخفاء النسخة الأصلية حين أعيدت اليه لمراجعتها « ولكن لمستر هوايت ذاكرة قوية إذ تذكر ما قاله السادة سيكلوبس من أن تحريم العمل الليلى بالنسبة للأطفال والأحداث « أمر مستحيل ويقرب معناه من أن يكون إغلاق مصانعهم ، ومع هذا تستخدم مصانعهم أقل من ٦ ٪ من الأحداث ممن هم دون الثامنة عشرة ، وأقل من ١ ٪ ممن لم يبلغوا الثالثة عشرة(٢) .

---

(١) شرحه ٨٠ ص ١٦ (٢) شرحه ٨٢ ص ١٧

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ويقول مستر ا . ن . سندرسن من شركة سندرسن اخوان وشركاهم فى أنتركليف إن منع العمال دون سن الثامنة عشرة من العمل ليلا سوف يؤدى إلى صعاب كبيرة أهمها مايترتب على استخدام الرجال مكان الأولاد من ازدياد التكاليف . ولا أدرى ما ذا يكون هـــذا ، ولكن من المحتمل أنه لن يكف أن يمكن أصحاب المصانع من رفع ثمن الصلب و بناء على ذلك سيقع العبء عليهم (يالغرابة تفكير هؤلاء القوم) لأن الرجال يرفضون دفعها . ولا يعرف المستر سندرسن الأجر الذى يدفعه للأطفال ولكن من المحتمل أن الصغار يتناولون ما بين ٤ ، ٥ شلنات فى الأسبوع . . . إن عمل الأحداث من النوع الذى تكفيه قوتهم بوجه عام (ليس على الدوام بالطبع) وبذلك لن يكن هناك أى كسب من استخدام الرجال الذين هم أشد قوة إلا فى الحالات التى يكون فيها المعدن ثقيلا . ولن يقبل الرجال ألا يكون تحت إمرتهم أولاد لأن الرجال أمثالهم يكونون أقل طاعة للأوامر . وفضلا عن هذا لابد للأولاد من أن يبدأوا العمل فى سن الصغر حتى يتعلموا الصنعة ، ولن يتحقق هذا الهدف إذا قصرنا الأولاد على العمل النهارى » ولماذا ؟ لم لا يتعلمون الصنعة أثناء النهـــار فقط ؟ أين السبب الذى تدلون به ؟ نظراً لأن الرجال يشتغلون ليلا ونهاراً بالتناوب من أسبوع لآخر فانهم سينفصلون نصف الوقت عن الأولاد الذين يعملون معهم وبذا يخسرون نصف ما يحصلون عليه منهم من الكسب . والتدريب الذى يهيئونه للصبى يعتبر جزءاً من الأجر عن عمل الأولاد وبذا يمكن الرجال من الحصول على هذا العمل بسعر أرخص . فكل رجل يرغب فى الحصول على نصف هذا الربح . وبعبارة أخرى يرى السادة سندرسن أنهم سيضطرون إلى دفع جزء من أجور الرجال البالغين من جيوبهم بدلا من أن يكون ذلك عن طريق عمل الأولاد الليلى وبهذا يهبط ربح جماعة سندرسن الى حد ما ، وهذا هو السبب الذى من أجله يقول سندرسن ان الأولاد لا يستطيعون تعلم الصنعة نهاراً (١١) ويضاف الى ذلك أن هذا يلقى عبء العمل الليلى على الذين يعملون بدلا من الأولاد ولن يستطيعوا تحمله . وفى الحقيقة ستكون الصعاب كبيرة إلى الحـــد الذى يؤدى إلى الاقلاع عن العمل الليلى كلية ، وأما فى فيما يختص بالعمل نفسه فان هـذا يكون مناسباً ولكن .. .» غير أن السادة سندرسن لديهم ما يعملونه بجانب الصلب ، لأن صناعة الصلب ليست سوى ذريعة يخفون بها السعى إلى تكوين فائض القيمة . فأفران الصهر والمبانى والآلات والحديد والفحم الخ لها مهمة فى التحول إلى صلب . إنها موجودة لتمتص فائض العمل ؛ وبالطبع أنها تمتص فى ٢٤ ساعة أكثر مما تفعل فى ١٢ ساعة .

---

(١) ،،فى عصرنا هذا حيث نغرم بالتأمل والتعليل لا يساوى المرء شيئاً كثيراً إذا عجز عن إبداء السبب فى كل شىء مهما كان السبب رديئاً وسخيفاً . وكل شىء وقع فى العالم خطأ إنما حدث خطأ لسبب طيب ،، (هيجل ص ٢٤٩).

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إنها فى الواقع تعطى جماعة سندرسن حقاً فى امتلاك وقت عمل عدد معين من العمال أثناء الساعات الأربع والعشرين كلها . فاذا توقفت عن أداء وظيفتها فى امتصاص العمل فقدت صفتها كرأس مال وأصبحت خسارة بالنسبة إلى آل سندرسن ، ولكن فى هذه الحالة ستنشأ الخسارة بسبب بقاء الآلات عاطلة نصف الوقت . وإذا أردنا إنتاج نفس الكمية التى ننتجها الآن وفق النظام الحالى لاضطررنا إلى مضاعفة النفقات . ولكن لماذا يتمسك جماعة سندرسن بهذا الامتياز الذى لا يتمتع به غيرهم من الرأسماليين الذين يشتغلون نهاراً والذين تظل مبانيهم وآلاتهم وموادهم الأولية عاطلة « أثناء الليل » ؟ هنا يمدنا ا . ف سندرسن بالإجابة نيابة عن شركائه جميعاً ، حقيقة هناك خسارة بسبب تعطيل الآلات وذلك بالنسبة للصناعات التى تدور نهاراً فقط . ولكن استعمال الأفران ينطوى على خسارة أكبر فى حالتنا . فاذا ظلت دائرة لترتب على ذلك تبديد الوقود (وذلك بدلا من تبديد حياة العمال كما هو الحال الآن) ، وإن لم نبقها كذلك لحدثت خسارة فى الوقت بسبب إطفاء النيران ، بينما خسارة وقت النوم حتى بالنسبة للأطفال فى سن الثامنة كسب فى وقت العمل بالنسبة لجماعة سندرسن ، وتتأثر الأفران ذاتها بسبب تغيير درجة الحرارة ، بينما هذه الأفران نفسها لا تتأثر من تغيير العمل فى الليل والنهار(١).

---

(١) مصدر سابق ٨٥ ، ص ١٧ — يبدى بعض أصحاب مصانع الزجاج هذه المشاعر الرقيقة حين يقولون إن إعداد مواعيد منتظمة لتناول وجبات الطعام أمر مستحيل إذ لو حدث هذا لحدثت خسارة لتبديد قدر معين من الحرارة التى تشعها الأفران . ولدى عضو اللجنة هوايت الرد على هذا لأنه ليس على غرار بور وسينيور ومن شاكلهم من لصوص الأدب الألمان أمثال روشير Roscher الذين تتأثر قلوبهم بمظاهر ,,الحرمان،، و ,, إنكار الذات ،، و ,, القصد فى الانفاق ،، التى يبديها الرأسماليون فى إنفاق المال ، ومظاهر ,, الاسراف ،، الجديرة بتيمور لنك والتى يظهرها نفس هؤلاء الرأسماليين فى إنفاقهم للحياة البشرية . ويقول مستر هوايت ,, إن مقدار معيناً من الحرارة زيادة عن المقدار المعتاد الآن قد يتعرض للتبديد إذا نظمنا مواعيد تناول الطعام فى هذه الحالات ، ولكن هذا لا يعادل قيمة الخسارة الناجمة للبلاد من تبديد القوة الحيوانية فى الأولاد إذ لا يتاح لهم الوقت الكافى لتناول طعامهم فى يسر مع منحهم راحة بسيطة بعد الأكل لهضم الطعام،، المصدر المشار إليه ص ٤٥ — وكان هذا فى ,,سنة التقدم ،، عام ١٨٦٥ ! ولسنا نقول شيئاً عن النشاط الذى يبذل فى رفع الأشياء وحملها لأن الطفل الذى يشتغل فى الخطائر التى يصنع فيها الزجاج عليه أثناء تأديته العمل أن يمشى مابين ١٥ ، ٢٠ ميلا فى ٦ ساعات ! وأحياناً يستمر العمل ١٤ أو ١٥ ساعة ! وفى كثير من مصانع الزجاج هذه ، كما هو الحال فى معامل الغزل بموسكو ، يتبع نظام من التناوب كل فترة فيه طولها ٦ ساعات . ,, خلال جزء العمل من الأسبوع لا تزيد فترة الراحة المتصلة التى يمكن الحصول عليها عن ٦ ساعات تشمل الوقت الذى يضيع فى الحضور إلى العمل ومغادرته ، وفى الاغتسال واللبس وتناول وجبات الطعام بحيث لا يتبقى فى الواقع إلا فترة قصيرة جداً للراحة ولا يتبقى شىء للتريض فى الهواء الطلق واللعب إلا اذا كان ذلك على =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

القسم الخامس — النضال فى سبيل يوم عمل عادى — القوانين الصادرة منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن السابع عشر لتطبيق مدى يوم العمل

« ما هو العمل ؟ وما طول الزمن الذى قد يستهلك رأس المال خلاله القوة على العمل التى يدفع قيمتها اليومية ؟ وإلى أى حد يمكن إطالة يوم العمل زيادة على وقت العمل اللازم لإعادة انتاج قوة العمل ذاتها ؟ لقد رأينا أن رأس المال يجيب عن هذه الأسئلة الإجابات التالية : يحتوى يوم العمل على الساعات الأربع والعشرين الكاملة مع اقتطاع الساعات القلائل للراحة والتى بدونها تأبى قوة العمل عرض خدماتها ثانية . ولهذا فمن الواضح أن العامل وقوته والوقت الذى تحت تصرفه ليس إلا — بحكم الطبيعة والقانون — وقت العمل الذى يجب تخصيصه لتمدد رأس المال . أما الوقت اللازم للتعليم والنمو العقلى وأداء الوظائف الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية وإبراز النشاط الجثمانى والعقلى ووقت الراحة فى الأحد[1] إن هذا كله مظهر لا حقيقة له . ولكن رأس المال بنتيجة جشعه غير المحدود فى سبيل الحصول على فائض العمل ، يتخطى الحدود العليا ليوم العمل ويغتصب الوقت اللازم لنمو الجسم والمحافظة السليمة

= حساب النوم الضرورى للأولاد الصغار وبخاصة فى مثل هذا العمل الحار المجهد .. وحتى ذلك النوم القليل الأمد قد يتعرض لأن يقطع حبله اذا صحا الولد ليلا او أيقظه صوت اذا كان النوم فى النهار ،، . ويذكر مستر هوايت حالات يشتغل فيها أولاد صغار ٣٦ ساعة مرة واحدة ، وأخرى اشتغل فيها أولاد فى سن الثانية عشرة حتى الساعة الثانية صباحاً ثم ناموا ثلاث ساعات صحوا بعدها لاستئناف العمل ! ويقول Tufnell , Tremenhere اللذان وضعا صورة التقرير العام ,, ان مقدار العمل الذى يؤديه الاولاد والاحداث والفتيات والنساء خلال عملهم النهارى أو الليلى شاذ وغير مألوف للغاية ،، شرحه ص ٤٣ ، ٤٤ . وفى أثناء ذلك يعود الرأسمالى صاحب مصنع الزجاج من ناديه فى طريقه الى بيته وهو يتغنى بالعبارة التالية ونفسه راضية ,,ان البريطانيين لن يصيروا أبداً عبيداً،، .

(١) وحتى الآن فى انجلترا غالباً ما يحدث أن يحكم على العامل فى بعض الجهات الزراعية بالسجن عقاباً له على العمل يوم الأحد فى حديقته الصغيرة ، ولكنه إذا لم يذهب إلى معامل المعادن أو الورق أو الزجاج يوم الأحد عوقب على الاخلال بالعقد ، حتى ولو كان تخلفه راجعاً إلى أسباب دينية ، والبرلمان المكون من المؤمنين لن يؤيد أى شكاوى بشأن العمل يوم الأحد اذا كان هذا العمل يساعد على تنمية توسع رأس المال . ففى أغسطس ١٨٦٣ طالب عمال محال السمك والدجاج الغاء العمل يوم الأحد قائلين ان متوسط عملهم فى أيام الأسبوع ١٥ ساعة يومياً ويطلب منهم العمل من ٨ الى ١٠ ساعات يوم الأحد ، وصرح الشاكون أن بين المنافقين الارستقراطيين فى اكسترهول من يشجع عمل يوم الأحد ، وهؤلاء القديسون يظهرون مسيحيتهم بتحمل ما يعانيه الآخرون من الارهاق والحرمان والجوع ، وينطبق عليهم قول هوارس (Satires II, 104) ,, ان الشفقة نحو الغير الذين يمضهم الجوع بنابه مما يؤدى الى خراب هؤلاء المشفقين ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الصحية عليه ، ويسرق الوقت اللازم لاستهلاك الهواء الطلق والاستمتاع بضوء الشمس ، ويجرى وراء الوقت المخصص لتناول الغـــذاء فيضمه إلى عملية الإنتاج ما استطاع إلى ذلك سبيلا بحيث يعطى الغذاء للعامل كأن الأخير مجرد أحد أدوات الإنتاج وكما يعطى الفحم للمغلى والشحم والزيت للآلات ، ويخفض وقت النوم العميق الضرورى لاستعادة القوى الجثمانية وتنشيطها إلى عدد من الساعات الذى يستلزمه بعث الحياة من جديد فى جسم قد أصابه الإعياء الكامل . ليست المحافظة العادية على قوة العمل هى التى تعين حدود يوم العمل، بل إن أقصى قدر يبذل يومياً من قوة العمل هو الذى يعين حدود فترة الراحة للعمال مهما كانت هذه القوة مريضة ومتألمة . إن رأس المال لا يعبأ بطول حياة قوة العمل لأن كل ما يعنيه إنما هو الحد الأقصى من هذه القوة الذى يمكن انسيابه خلال يوم العمل ، وهو يحقق هذا الغرض بتقصير أمد حياة العمل كما يفعل المزارع الجشع حين ينتزع مقداراً أكبر من المحصول بأن يسلب الأرض خصوبتها .

والطريقة الرأسمالية فى الإنتاج (وتقوم فى أساسها على إنتاج فائض القيمة وامتصاص فائض العمل) بواسطة إطالة يوم العمل لا تسبب انحطاط قوة العمل فحسب بأن تسلبها الأحوال العادية والأدبية والطبيعية اللازمة لنموها وتمكينها من أداء وظيفتها ، بل إنها تسبب كذلك الإعياء والموت المبكرين لقوة العمل ذاتها[1] . فهى تطيل وقت العامل فى الإنتاج خلال فترة معلومة عن طريق تقصير زمن حياته الفعلى .

ولكن قيمة قوة العمل تتضمن قيمة السلع اللازمة لا عادة إنتاج العامل أو بعبارة أخرى للابقاء على الطبقة العاملة . ولكن إذا كان جشع رأس المال فى سبيل التضخم يدعو إلى قصر حياة العامل وبالتالى مدة قدرته على العمل، فإن القوى التى تستهلك لابد أن تحل محلها غيرها بسرعة أعظم ولذا تزيد النفقات اللازمة لاعادة إنتاج قوة العمل ، كما هو الشأن فى الآلة اذ تزيد قيمة الجزء الذى يستهلك منها يومياً كلما زادت سرعة استهلاك الآلة . ومن هنا يبدو أن من صالح رأس المال نفسه أن يتجه نحو يوم العمل العادى .

ان صاحب العبد يشتريه كما يشترى حصانه فاذا أضاع العبد أضاع كذلك رأس مال لا يمكن استرجاعه الا بانفاق مبلغ جديد فى سوق الرقيق . ولكن مناطق زراعة الأرز فى جورجيا أو مستنقعات المسيسبى قد تكون شديدة الخطر على الحياة البشرية ولكن تبديد

---

(١) أوردنا فى تقاريرنا السابقة أقوال عدد من رجال الصناعة المحنكين مؤداها أن العمل زيادة على الساعات المقررة ... يميل الى انهاك قوة عمل العامل قبل الأوان (مصدر سابق ٦٤ ص ١٣) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأخيرة الذى تستلزمه زراعة هذه الجهات ليس كبيراً الى الحد الذى لا يمكن تعويضه من احتياطى فرجينيا وكنتوكى . وفضلا عن هذا ، فان الاعتبارات الخاصة بالاقتصاد فى النفقات والتى قد تهيء فى ظل النظام الطبيعى بعض الضمان لمعاملة انسانية بأن تجعل مصلحة السيد متفقة مع الابقاء على حياة العبد — نقول ان هذه الاعتبارات ذاتها تؤدى إلى تشغيل العبد الى الحد الأقصى ما دامت تجارة الرقيق قائمة اذ طالما كان فى الامكان ايجاد من يحل محل العبد من الأسواق الأجنبية أصبح طول حياة العبد أقل أهمية من انتاجه ما دام حياً . ومن هنا كان السائد فى البلاد التى تستورد العبيد ان خير سبل الاقتصاد فى النفقات تكون بالحصول من هذه الأدوات الآدمية على أعظم قدر من العمل والمجهود فى أقل فترة من الزمن . ففى الجهات الاستوائية حيث غالبا ما تعادل الأرباح السنوية رأس المال كله المستغل فى المزارع ، ترى أن حياة السود يضحى بها بدون اكتراث . فالزراعة بجزر الهند الغربية والتى طلت قرونا مشهورة بثروتها الشبيهة بالخرافات ، هى التى قضت على الملايين من أفراد الجنس الافريقى . وفى كوبا التى تعد ايراداتها اليوم بالملايين والتى يعيش فيها أرباب المزارع كالأمراء نرى ارهاقا لامثيل له واقعا على الطبقة العاملة بل إنا لنجد أحيانا القضاء على جانب من أفرادها سنويا(١).

لكى تعلم ماتريدعن ، تجارة الرق ، عليك بقراءة « سوق العمل » وعن كنتوكى وفرجينيا اقرأ « ارلندة والمناطق الزراعية فى انجلترا واسكتلندة وويلز ، وعن افريقية ، اقرأ « ألمانيا ». لقد سمعنا كثيراً أن الارهاق انقص عدد الخبازين فى لندن ، وبرغم هذا فسوق العمل بلندن مزدحمة دائما بطلاب الموت فى المخابز من الألمان وغيرهم . وصناعة الفخار من الصناعات التى يقصر عمر المشتغلين فيها . فهل هناك نقص فى عدد الفخاريين ؟ ها هو جوسيا ودجود مخترع صناعة الفخار الحديثة والذى كان فى الأصل عاملا ، يقول(٢) سنة ١٧٨٥ أمام مجلس العموم ان هذه الصناعة كانت تستخدم ما بين ١٥,٠٠٠ ، ٢٠,٠٠٠ وفى سنة ١٨٦١ بلغ عدد سكان المناطق المشتغلة بهذه الصناعة فى انجلترا ١٠١,٣٠٢ وقد عاشت صناعة القطن منذ ٩٠ عاما .. لقد عاشت مدى ثلاثة أجيال من الشعب الانجليزى ، وأعتقد أنى استطيع أن أقرر مطمئنا أنها قضت خلال هذه الفترة على تسعة أجيال من عمال المصانع(٣) .

---

(١) كيرنز ، The Slave Power ص ١١٠ — ١١١

(٢) John Ward : History of the Borough of Stohe-upon - Trent, London, 1843, p. 42.

(٣) فران ، خطاب فى مجلس العموم ٢٧ أبريل ١٨٦٣

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لا شك أنه فى فـــترات معينة من النشاط الكبير حدث نقص فى سوق العمل كما فى سنة ١٨٣٤ مثلا ، ولكن فى تلك الحالة كان أصحاب الصناعات يطلبون من الموظفين المشرفين على تنفيذ قانون الفقراء أن يبعثوا إليهم « بالفائض من السكان فى المناطق الزراعية الواقعة إلى الشمال » حيث يمتصهم أرباب الصناعات (١) ، ولهذا عين وكلاء بموافقة هؤلاء الموظفين وأنشىء مكتب بمنشستر ترسل إليه قوائم بأسماء العمال فى المناطق الزراعية والذين يطلبون عملا وتسجل أسماؤهم فى دفاتر أعدت لذلك .

وكان أرباب الصناعات يتوجهون إلى المكتب لاختيار من يشاؤون وبعد ذلك يعطون التعليمات بإرسالهم إلى منشستر ، وهم يرسلون بعد ذلك كبالات السلع بواسطة القنوات أو العربات ، بينما تذهب جماعات من هؤلاء العمال سيراً على الأقدام ، ولهذا ضل بعضهم الطريق وكان يهلك من الجوع . وقد نما هذا النظام حتى صار حرفة أو تجارة منتظمة « قد يصعب على هذا المجلس أن يصدق هذه الأقوال ، ولكنى أقرر أن هذا الاتجار فى الأجساد الآدمية كان قائما ، ويرسل القوم بانتظام إلى أرباب الصناعات (فى منشستر) كما يباع العبيد لمنتجى القطن بالولايات المتحدة . . فى سنة ١٨٦٠ بلغت تجارة القطن أوجها . ووجد رجال الصناعة نقصاً فى الأيدى العاملة من جديد ، فأرسلوا إلى « وكلاء اللحم البشرى » كما كانوا يدعون . وأرسل هؤلاء الأخيرون فى طلب العمال من جنوب انجلترا ومراعى دورستشير وغابات ديفونشير ، ورعاة الخنازير فى ولتشير ، ولكن كان سعيهم عبثا إذ قد امتص السوق الفائض من السكان . وعندما عقدت المعاهدة مع فرنسا قالت صحيفة Bury Guardian إن فى استطاعة لانكشير أن تستخدم ١٠٠٠٠٠ زيادة عما لديها ، وستنشأ الحاجة إلى عدد يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ — ٤٠٠٠٠٠ . ولما أخفق أولئك الوكلاء ومندوبوهم فى المناطق الزراعية « جاء وفد من لندن وقابل السيد المحترم (المستر فليرز رئيس لجنة قانون إعانة الفقراء) بقصد الحصول على الأطفال الفقراء من الأماكن التى يقيمون بها وذلك سداً لحاجة مصانع لانكشير (٢) » .

---

(١) « تلك هى نفس الكلمات التى استعملها رجال صناعة القطن » (شرحه) .

(٢) شرحه — اضطر المستر Villiers « حسب التعبير القانونى » الى رفض التماس أصحاب المصانع ولكن استطاع الأخيرون ادراك غايتهم بفضل مجاملة السلطات المحلية المشرفة على تنفيذ قوانين الفقراء . ويعلن المفتش ردجراف أنه فى هذه المناسبة لم يكن النظام الذى عومل فيه الأيتام والأطفال الفقراء على أنهم صبيان مصحوباً بالمساوىء القديمة » (راجع بشأنها انجلز — مصدر سابق) . ولكن أسىء استعمال هذا النظام فى حالة واحدة فيما يختص بعدد من الفتيات والنساء الشابات جىء بهن من المناطق الزراعية باسكتلندة الى لانكشير وشيشير . فى ظل هذا النظام كان صاحب المصنع يتعاقد لمدة محدودة مع السلطات المحلية المشرفة على تنفيذ قوانين الفقراء ، وكان عليه خلال==

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إن الذى تدل عليه تجارب صاحب رأس المال وجود فائض دائم من السكان ، وبعبارة أخرى فائض بالنسبة إلى المطالب الوقتية لرأس المال الذى يمتص فائض العمل مع أن هذه الزيادة وليدة أجيال من البشر يحل الواحد منها مكان الآخر ويختطفه الموت فى وقت مبكر (١) والواقع أن التجارب تدل الرجل الذكى القوى الملاحظة على مدى السرعة والقوة اللتين ينتزع بهما الأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج قوة الشعب مع أن تاريخ هذه الطريقة فى الإنتاج يرجع إلى الأمس فقط . وتظهر لنا التجارب كذلك أن انحطاط سكان المناطق الصناعية إنما يؤخره استمرار امتصاص العناصر الأولية من البلاد والتى لم تفسد بعد . وهذه التجارب ترينا كيف أنه برغم الهواء النقى ومبدأ الانتخاب الطبيعى العظيم الأثر فى صفوف العمال والذى لايسمح إلا ببقاء الأصلح فإن العمال قد بدأوا فى الانقراض (٢) وإن رأس المال الذى

= هذه الفترة أن يمد الأطفال بالغذاء والكساء والمسكن ، فضلا عن مبلغ صغير من النقود . وان ماسا نقله عن رد جراف له أهمية اذا ذكرنا أن سنة ١٨٦٠ من أعظم السنوات رخاء بالنسبة لصناعة القطن وخاصة لأن الأجور كانت مرتفعة أكثر من المعتاد بسبب ندرة العمل ، وكان ذلك الطلب الاستثنائى على العمل مصحوباً فى نفس الوقت بنقص السكان فى أرلندة ، والهجرة التى لم يسبق لها مثيل من الجهات الزراعية باسكتلندة وانجلترا الى استراليا وأمريكا ، ونقص مطلق فى عدد السكان ببعض الجهات الزراعية بانجلترا سببه الانحطاط الفعلى فى قوة العمال الزراعيين الحيوية ، ومن جهة أخرى الى أن المتاجرين فى اللحم الآدمى قد استنفدوا العنصر الصالح من الأهالين . ويرشح هذا يحدثنا رد جراف عن الطلب على هذا النوع من العمل لانه عمل عالى القيمة . كان أجر الولد الذى سنه ١٣ عاماً ٤ شلنات فى الاسبوع . ولكن بأربع شلنات أسبوعياً للفرد الواحد لم يكن فى الامكان اعداد المسكن والغذاء والكساء والعناية الطبية والاشراف الصحيح لعدد من هؤلاء الأولاد يتراوح بين ٥٠ ، ١٠٠ ،، . (تقارير ... ٣٠ أبريل ١٨٦٠ ص ٢٧) — ولكن نسى المستر رد جراف أن يحدثنا كيف يستطيع العامل نفسه أن يهيىء كل هذه النعم لأطفاله من أجورهم التى تبلغ ٤ شلنات لكل منهم فى الأسبوع حين يعجز صاحب المصنع عن ذلك مع أن هؤلاء الأطفال يأكلون ويسكنون بالاشتراك. ويجب أن أنبه الى أن صناعة القطن الانجليزية منذ امتداد مفعول قانون المصانع لسنة ١٨٥٠ الى هذا الميدان يجب أن تعتبر الصناعة النموذجية فى انجلترا ، والعامل الانجليزى فى هذه الصناعة أفضل حالا من زميله بالقارة من كافة الوجوه ،، يشتغل عامل المصانع البروسى ما يزيد عما يشتغله منافسه الانجليزى بمقدار ١٠ ساعات فى الأسبوع ، أما اذا اشتغل على نوله وفى بيته لا يقتصر عمله حتى على هذه الساعات الاضافية ،، (تقارير أكتوبر ١٨٣٣ ص ١٠٣) . وقد سافر رد جراف الى أوربا بعد المعرض الصناعى (١٨٥١) وزار بلدانها وبخاصة فرنسا وألمانيا ليبحث أحوال العمل فى المصانع بالقارة . ويحدثنا عن العامل البروسى أن أجره يكفيه للمعيشة البسيطة ومظاهر الترف الضئيلة التى اعتادها مع أنه يشتغل بجد ، ولهذا فمركزه دون مركز العامل الانجليزى (تقارير ٣١ أكتوبر ١٨٥٣ ص ٨٥) .

(١) يموت المرهقون بالعمل بسرعة غريبة ولكن أماكن الذين يهلكون تمتلىء فى الحال ولا يحدث أى تغيير فى المنظر بسبب كثرة تغيير الأشخاص ،، ا . ج . ويكفيلد : انجلترا وأمريكا ، لندن ١٨٣٣ ج ١ ص ٥٥ .

(٢) Public Health, Sixth Report of the Medical Officer of the Privy Council, 1863, London 1864.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لاتؤثر فيه آلام العمال المحيطة به لايهتم كثيراً بما سيتمخض عنه المستقبل من تناقص الجنس البشرى . إن كل شخص يعلم أن الكارثة آتية ولكن كلا يأمل أن تقع على رأس جاره بعد أن يكون هو قد جمع الذهب وأخفاه فى حرز أمين . إن شعار كل الرأسماليين وكل الأمم الرأسمالية « وبعدى الطوفان » . ولهذا فرأس المال لايعبأ بصحة العامل أو طول حياته إن لم يرغم على ذلك من قبل المجتمع (١) فإذا ارتفع الصوت منذراً شاكياً من الانهيار الجثمانى والعقلى والموت المبكر والعذاب الناشىء عن الارهاق فى العمل كان الرد : أينبغى أن نهتم بهذه مادامت تزيد أرباحنا ؟ ولكن إذا نظرنا إلى هذه المسائل بوجه عام لوجدنا أن هذا لايتوقف فى الحقيقة على حسن النية أو سوئها من جانب الرأسمالى الفردى . إن المنافسة الحرة تبرز القوانين الكامنة فى الإنتاج الرأسمالى على صورة قوانين خارجية قاهرة لها سلطان على الفرد الواحد من الرأسماليين (٢) .

= وهذا التقرير يعالج بوجه خاص أحوال العمال الزراعيين ، ويحدثنا أن مقاطعة سذرلند كانت تشتهر بأنها موطن الرجال والجنود الشجعان ولكن التحقيق أثبت انحطاط السكان . ففى أصح الأماكن على سفوح التلال المواجهة البحر تجد وجوه أطفالهم الجائعين مصفرة كما لو كانوا فى جو لندن الفاسد

W.T. Thornton : Overpopulation and its Remedy, pp. 74 — 75.

(١) ,, ولكن برغم أن صحة السكان عامل هام بالنسبة لرأس المال ، الا أننا نخشى أن نقول ان الذين يستخدمون هذا العمل لم يكونوا على القدر اللازم من الاستقامة كى يحافظوا على هذا الكنز وينموه ... وقد أرغم أصحاب المصانع أن يراعوا صحة العمال ،، . (التيمس ، ٥ نوفبر ١٨٦١) — ,, أصبح أهل West Riding القوم الذين يمدون الجنس البشرى بالكساء ... ولكن ضحيت صحة العمال وكان لا بد من أن ينحط الأهلون فى اجيال قلائل ، ولكن بدا رد فعل اذ حدد قانون لورد شافتسبرى ساعات العمل للأطفال ،،

Report of the Registrar General, October, 1861.

(٢) ولهذا السبب تجد فى بداية سنة ١٨١٣ ان ٢٦ شركة تملك معامل واسعة لصنع الأدوات الفخارية فى ستافورد شير (ومنها شركة Josiah Wedgwood & Sons ترسل التماساً تطلب فيه اصدار تشريع لان المنافسة من جانب غيرهم من الرأسماليين جعلت من المستحيل عليهم ان يقوموا ، بمحض رغبتهم ،، بتحديد عمل الاطفال الخ ,, و بقدر ما تأسف على الشرور السالفة الذكر فلن يكن فى الامكان منعها عن طريق الاتفاق بين رجال الصناعة .. ونظراً لهذه الاعتبارات نعتقد بالحاجة الى اصدار تشريع ،، (لجنة تشغيل الاطفال ، التقرير الاول ١٨٦٣ ص ٣٢٢) . ولنذكر مثلا حديثاً بارزاً فى مغزاه . ففى اثناء فترة من النشاط فى صناعة القطن نجد ان الارتفاع فى ثمن القطن حمل اصحاب مصانع المنسوجات فى بلاكبول على تقصير ساعات العمل فى مصانعهم ، وثم هذا باتفاق فيما بينهم لمدة محدودة تنتهى فى نهاية نوفمبر ١٨٧١ . وترتب على هذا الاتفاق نقص الانتاج فانتهز زملائهم الذين يفوقونهم ثراء ويملكون معامل للغزل والنسيج ، الفرصة لتوسيع نطاق اعمالهم واجتناء الارباح على حساب الشركات الاقل منهم . وهنا حرضت الاخيرة العمال على المطالبة بيوم عمل طوله ٩ ساعات ووعدتهم بالمساعدة المالية تأييداً لهم !

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إن تقرير يوم العمل العادى نتيجة صراع دام قرونا بين صاحب رأس المال والعامل . ويظهر لنا هذا الصراع اتجاهين متناقضين كما يبدو من مقارنة تشريع المصانع الإنجليزى الصادر فى أيامنا بقوانين العمل الانجليزية السائدة من القرن الرابع عشر حتى منتصف الثامن عشر [١] فبينما قوانين المصانع الحديثة تعمل قهراً على تقصير يوم العمل كانت قوانين العصور السابقة تزيد طوله قهرا . ولا شك أن ادعاءات رأس المال فى نشأته حين يحصل على حق امتصاص مقدار كاف من فائض العمل لايحكم العلاقات الاقتصادية بل بتأييد الدولة له . تبدو متواضعة جدا أمام الامتيازات التى يضطر إلى منحها حين يدخل فى دور النمو . لابد من انقضاء قرون قبل أن يوافق العامل « الحر » — بفضل تطور الإنتاج الرأسمالى — على أن يبيع حياته العاملة ومقدرته على العمل مقابل ثمن ضروريات الحياة ، ومن هنا من الطبيعى إن إطالة يوم العمل ، الأمر الذى حاول رأس المال بمساعدة الدولة منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن السابع عشر أن يفرضه على العمال البالغين ، يتفق مع تقصير يوم العمل الذى أقدمت عليه الدولة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لمنع تحويل دم الأطفال الى رأس مال . وفى ولاية ماساشوستس وهى أكثر ولايات الجمهورية الأمريكية الشمالية حرية حتى عهد حديث تجد أن ماصار بحكم القانون حدا لعمل الاطفال دون الثانية عشرة كان بانجلترا حتى القرن السابع عشر يوم العمل العادى بالنسبة الى أرباب المهن والعمال والحدادين الأقوياء الجسوم [٢] .

فقانون العمل الأول الصادر فى عهد إدورد الثالث سنة ١٣٤٩ كانت الحجة فى صدوره الوباء العظيم الذى قضى على عدد كبير من السكان بحيث بلغت صعوبة الحصول على العمال

---

(١) لم تلغ قوانين العمل Labour Statutes (ولها مثيل فى فرنسا والاراضى الواطئة) فى انجلترا الا سنة ١٨١٣ وان كانت التغييرات فى طريقة الانتاج ابطلت مفعولها قبل ذلك بزمن طويل .

(٢) « لا يجوز تشغيل طفل دون ١٢ سنة من عمره اكثر من ١٠ ساعات فى اليوم الواحد فى اى منشأة صناعية » General Statutes of Massachusetts 63, cap. 12
(صدرت فيما بين ١٨٣٦ ، ١٨٥٨) . وفى ولاية نيوجرسى يعد يوم العمل القانونى عبارة عن العمل ١٠ ساعات يومياً فى مصانع القطن والصوف والحرير والورق والزجاج والكتان وفى مصانع الحديد والنحاس اليدوية ، ويحرم تشغيل الحدث اكثر من ١٠ ساعات يومياً او ٦٠ ساعة فى الاسبوع ، وكذلك يحرم قبول الذين سنهم دون ١٠ سنوات بصفتهم عمالا فى اى مصنع بالولاية
An Act to Limit the Hours of Labour, etc. 61 & 62 Law of March11,1855
وفى ولاية رود ايلند لايشتغل المعدن الذى يتراوح عمره بين ١٢ ، ١٥ سنة اكثر من ١١ ساعة فى اليوم الواحد فى اى منشأة صناعية ، ويحرم العمل بالنسبة له قبل ٥ صباحاً و بعد ٧/٣٠ مساءا .
Revised Statutes of the State of Rhode Island, cap. 99 § 23,July, 1 1877

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

للعمل بشروط معقولة جداً غير محتمل[١] كما عبر عن ذلك أحد كتاب جماعة التورى (ويراد بهذا الثمن الذى يترك لأصحاب الأعمال مقداراً معقولا من فائض العمل) . ولهذا السبب حدد القانون الأجر وحدود يوم العمل . وتكرر الأمر الأخير وهو الذى يعنينا فى القانون الصادر سنة ١٤٠٦ فى عهد هنرى الثامن ، وقد حدد يوم العمل بالنسبة للصناع وعمال الحقول من الخامسة صباحاً حتى السابعة والثامنة مساء وذلك خلال المدة الممتدة من مارس إلى سبتمبر؛ أما فترات الطعام فعبارة عن ساعة للافطار ، ١ ١/٢ للغداء ، ١/٢ للراحة بعد الظهر ، وذلك ضعف المقرر فى قوانين المصانع النافذة الآن[٢] . ويستمر العمل شتاء من ٥ صباحاً حتى حلول الظلام بما فى ذلك فترات تناول الطعام . ويتعرض قانون ١٥٦٢ الصادر فى عهد إليزابث لطول يوم العمل بالنسبة لجميع العمال «المستأجرين بأجر أسبوعى أو يومى» ولكنه حدد فترات الأكل بساعتين ونصف الساعة صيفاً وساعتين شتاء ، وهو يجعل وقت الغداء ساعة ولا يسمح لراحة بعد الظهر إلا بنصف ساعة وذلك منذ منتصف مايو حتى منتصف أغسطس . وتقرر كذلك خصم بنس واحد من الأجر مقابل غياب ساعة عن العمل . غير أن الأحوال من الناحيـــة العملية كانت أكثر ملاءمة للعمال منها حسب نص القوانين . فها هو وليم بيتى أبو الاقتصاد السياسى والذى يعتبر إلى حد ما مؤسس علم الإحصاء يقول فى مؤلف له نشر فى الثلث الأخير من القرن السابع عشر « إن العمال (ويقصد بهم من يشتغلون فى الحقول) يعملون ١٠ ساعات فى اليوم ويتناولون ٢٠ وجبة فى الأسبوع بمعدل ٣ فى كل من أيام العمل

---

(١) Sophisms of Free Trade (الطبعة السابعة ، لندن ١٥٨٠ ص ٢٠٥ ، الطبعة التاسعة ص ٢٥٣) .. ومع ذلك يعترف نفس الكاتب بأن ,, القوانين التى اصدرها البرلمان لتنظيم الاجور بقيت مدى ٤٦٤ عاماً وإن كانت ضد العامل لصالح رب العمل . وزاد عدد السكان ، وحينئذ اتضح ان هذه القوانين اصبحت حقيقة عبئاً ثقيلا وغير ضرورية ,, (شرحه ص ٢٠٦) .

(٢) يلاحظ J. Wade بصدد هذا القانون ,, من العبارة الأنفة الذكر يبدو انه فى سنة ١٤٩٦ كان الغداء يعد معادلا لثلث دخل الصانع artificer ونصف دخل العامل ، الامر الذى يدل على تمتع الطبقات العاملة بقدر من الاستقلال اعظم مما هى عليه الآن ، واليوم نجد ان نسبة نفقات المأكل والمسكن إلى اجور الصناع والعمال اعلى مما كانت عليه ,,

History of the Middle and Working Classes, p. p. 24, 25 & 577.

ويقال أن هذا الاختلاف يتوقف على تغير فى الاثمان النسبية للغذاء والكساء ، ولكن هذا راى لا يمكن ان يؤيده كل من القى حتى النظرة السريعة العابرة على Chronicon pretiosum etc. (الطبعة الاولى ، لندن ١٧٠٧ ، الطبعة الثانية لندن ١٧٤٥) — (الأسقف فليوود)

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

واثنين فى يوم الأحد . ومن هذا يتضح أنه إذا استطاعوا الصوم فى ليالى الجمعة وتناول العشاء فى ساعة ونصف فان العمل بزيادة قدرها ½ والانفاق بمقدار يقل ½ يجعلان فى الإمكان جباية (الضريبة) المذكورة آنفاً[1] ، ألم يكن الدكتور أندرو على حق حين قال إن قانون الساعات الإثنى عشرة الصادر سنة ١٨٣٣ فيه رجوع عما كان عليه فى العصور المظلمة ؟ وهذا حق لأن التنظيمات التى يشملها القانون الذى أشار اليه بيتى تنطبق على الصبيان ، أما حالة الأطفال حتى فى نهاية القرن السابع عشر فيمكن أن ندركها من الشكوى الآتية « ليست العادة عندهم (أى فى ألمانيا) أن يقيدوا الصبى مدة سبع سنوات كما هو الشأن فى هذه المملكة ، فالمتوسط عندهم ثلاث أو أربع سنوات ، والسبب فى ذلك أنهم هناك يعلمون الأطفال منذ المهد حرفة أو أعمالا مما يجعلهم أكثر استعداداً وبالتالى أقدر على النضوج والمهارة فى العمل . أما هنا فلا يدرب الأطفال على شىء قبل أن يصبحوا من زمرة الصبيان apprentices وبهذا يصبح تقدمهم بطيئاً ويتطلبون وقتاً أطول ليتسنى لهم الوصول إلى درجة الكمال التى يبلغها أرباب المهن المدربون الناضجون [2] ومع هذا نجد أنه خلال معظم القرن الثامن عشر حتى عهد الصناعة

---

(١) Political Anatomy of Ireland, 1672, 1691 edition, p. 10, Verbum Sapienti (ملحق على الضرائب) .

(٢) A Discourse concerning Mechanic Industry Collection of State Tracts Published during the Reign of King William III, London 1706, vol. II pp. 130 et seq., 1689

وإن ماكولاى الذى شوه التاريخ الانجليزى لمصلحة الطبقة البورجوازية ليعد مسئولا عن الأغنية الصاخبة الآتية : ,, وعادة تشغيل الاطفال قبل الاوان ... انتشرت فى القرن السابع عشر إلى حد لا يحتمل التصديق بالقياس إلى مدى نظام الصناعة اليدوية ، ففى نورتش — مقر صناعة عمل القماش — كانوا يعدون طفلا فى السادسة من عمره صالحاً للعمل . وتجد كتاب ذلك العصر ومنهم نفر من ذوى النفوس الخيرة يذكرون فى فرح ان صغار الاولاد والبنات بتلك المدينة كانوا ينتجون ثروة تزيد بمقدار ١٢٠٠٠ جنيه سنوياً عما يلزم لمعيشتهم . وكلما دققنا دراسة التاريخ الماضى ازددنا اختلافاً عن رأى اولئك الذين يخيل إليهم ان عصرنا هذا قد ولد شروراً اجتماعية جديدة .. إن الجديد هو الذكاء والانسانية اللذان يعالجان هذه الشرور ،، (تاريخ انجلترا جـ ١ ص ٤١٩ — ٢٠) . وكان لماكولاى ان يقول إلى جانب هذا ان ,, ذوى النوايا الطيبة للغاية ،، من اصدقاء التجارة فى القرن السابع عشر يرون ,, فى غبطة ،، كيف كان طفل فى الرابعة من العمر يجبر على العمل فى إحدى بيوت الفقراء . وان هذا المثال عن ,, إظهار الفضيلة ،، نجده فى كافة الكتب ذات الروح الانسانية من نوع ماكولاى وذلك إلى عهد آدم سميث . حقيقة عند حلول الصناعة اليدوية مكان الحرف اليدوية تبدأ الآثار التى تنم عن استغلال عمل الاطفال وإن كان هذا الامر موجوداً من قبل بين اهل الريف إلى درجة تتناسب مع الظلم الواقع على الزراع . إننا لا نخطىء =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والآلات الحديثة لم يتمكن رأس المال فى انجلترا من الاستيلاء على أسبوع العامل كله مقابل دفع القيمة الأسبوعية لقوة العمل ، اللهم إلا إذا استثنينا العمال الزراعيين . والواقع أن تمكن العمال من أن يعيشوا الأسبوع كله على أجر أربعة أيام لم يبد سبباً كافياً يحملهم على العمل فى اليومين الآخرين للرأسمالى . وقد انقسم الكتاب الاقتصاديون ؛ فالمدافعون عن مصالح رأس المال يحملون على هذا العناد بطريقة غاية فى العنف والوحشية ، بينما وقف فريق آخر موقف الدفاع عن العمال . ولنستمع مثلا إلى الخلاف الذى نشب بين بوستلوايت الذى كان لكتابه « قاموس التجارة » شهرة فى أيامه لاتقل عن شهرة ماك كولوخ وماك جريجور اليوم ، وبين مؤلف « مقال عن التجارة » الذى سبق أن اقتبسنا منه (١) .

يقول Postlewayt من بين أمور أخرى « لانستطيع أن نضع حداً لتلك الملاحظات القليلة دون أن نلاحظ هذه الملاحظة البالية التى فى أفواه الكثيرين وهى أن الفقراء المجدين إذا استطاعوا الحصول على مايكفيهم للابقاء على ذواتهم فى خمسة أيام فلن يشتغلوا الستة أيام كلها . ومن هنا يستنتجون ضرورة رفع أسعار ضروريات الحياة عن طريق الضرائب أو بأية وسيلة أخرى حتى نرغم أرباب الحرف والصناع على أن يبذلوا مجهوداً خلال ستة أيام من الأسبوع بلا انقطاع . وليسمح لى أولئك الساسة العظام أن أخالفهم فى عاطفتهم وهم الذين

رؤية المال من جانب رأس المال فى هذه الناحية ، ولكن الأمثلة عليه نادرة ندرة الأطفال ذوى الرأسين ، ولهذا السبب يحملها « أصدقاء التجارة » فى فرح ويرونها جديرة بالذكر والاعجاب ويوصون بها معاصريهم وخلفاءهم . وماكولاى هذا نفسه ذلك المداح الاسكتلندى يقول « لا نسمع اليوم إلا عن الرجوع إلى الوراء ، ولكننا لا نرى إلا التقدم » . يالها من أعين ، ويالها من آذان بوجه خاص !

(٢) مؤلف هذا المقال (وهو غير معروف الاسم) شديد العنف فى حملاته على العمال ، وقد حذا نفس الحذو فى كتاب سابق له باسم Considerations on Taxes, London, 1765 وبولونيوس آرز ينتج ذلك الثرثار الاحصائى ينتمى إلى هذا القبيل . ومن أشهر من دافع عن العمال نذكر يعقوب فاندرلنت

Money answers all Things, London 1734

ونانانيال فورستر An Inquiry into the Causes of the Present Prices of Commodities, London, 1766 والدكتور برايس ، وبخاصة بوستلوايت فى ملحق بكتابه

Universal Dictionary of Trade and Commerce

وكذلك فى Great Britain's Commercial Interest Explained and Improved. الطبعة الثانية ، لندن ١٧٥٩ — وتجد حقائق المسألة فى مؤلفات كثير من الكتاب المعاصرين أذكر منهم Josiah Tucker

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يدلون بحجج ترمى إلى استعباد الطوائف العاملة فى هذا البلد استعباداً أبدياً ، ناسين المثل العام عن « العمل دون الترفيه ... » ألم يفتخر الإنجليز بمهارة أرباب الحرف والصناع وحذقهم مما أكسب السلع الإنجليزية حتى اليوم سمعة طيبة بوجه عام ؟ فإلى أى شىء يرجع ذلك ؟ إنه لا يرجع إلا إلى مادرج عليه هؤلاء العمال من التخفيف عن أنفسهم بوسائلهم الخاصة ! فلو أنهم أرغموا على العمل ستة أيام فى الأسبوع أما كان هذا كفيلا أن يخمد حذقهم ويجعلهم أغبياء ويقضى على سمعتهم بدلا من الإبقاء عليها وكل هذه النتائج السيئة كانت تترتب على هذا الاستعباد الأبدى ؟ وأى نوع من الصنعة تنتظره من أمثال هذه الحيوانات التى تساق قسراً وبعنف إلى العمل ؟ . إن كثيرين منهم يعملون فى أربعة أيام مايعمله زملاؤهم الفرنسيون فى خمسة أو ستة أيام . ولكن إذا كنا نسعى إلى استرقاق العمال الإنجليز فهناك الخوف من هبوطهم إلى مادون مستوى الفرنسيين . ألسنا نعزو شهرة رجالنا فى الحرب إلى لحم البقر الإنجليزى المشوى والبودنج الذى يتناولونه إلى جانب روح الحرية الدستورية التى ينعمون بها ؟ ولماذا لايكون تفوق عمالنا وصناعنا فى مهارتهم وحذقهم راجعاً إلى مايتمتعون به من حرية فى توجيه أنفسهم على طريقتهم الخاصة بهم ؟ وإنى لآمل أننا لن نرغم أبداً على حرمانهم من هذه الامتيازات ومن هذه المعيشة الطيبة التى تتولد عنها مهارتهم وشجاعتهم[1] » . وهنا يجيب مؤلف (مقال عن التجارة) بقوله « إذا تراءى لنا أن جعل اليوم السابع من كل أسبوع إجازة نظام سماوى كما يتضمن هذا تخصيص الأيام الستة الأخرى للعمل فإذن ليس من القسوة أن نطبق ذلك . إن القول بأن الجنس البشرى ميال بطبعه إلى الراحة والكسل دلت على صدقه التجارب المؤلمة وسلوك طوائف الصناع لدينا الذين لايعملون فى المتوسط سوى أربعة أيام إلا إذا اضطروا إلى غير ذلك بسبب ارتفاع أثمان المؤن — فلو رددنا ضروريات الحياة إلى معيار واحد ومثال ذلك أن ندعوها جميعاً قمحاً . فلو فرضنا ... أن البوشل من القمح يساوى ٥ شلنات وأن الصانع يكسب شلناً عن عمله فإنه سيضطر إلى العمل خمسة أيام فقط فى الأسبوع . وإذا كان سعر البوشل ٤ شلنات فلن يشتغل سوى ٤ أيام . ولما كانت الأجور فى هذا البلد أعلى بالنسبة إلى أثمان الضروريات . . . فإن الصانع الذى يشتغل ٤ أيام يجد لديه فائضاً يمكنه من التعطل والكسل بقية الأسبوع . وإنى لآمل أن أكون قد أوضحت أن تقرير العمل ٦ أيام فى الأسبوع ليس استعباداً . . إن عمالنا يفعلون ذلك وتدل الظواهر على أنهم

---

(١) First Preliminary Discourse in the Dictionary of Trade, p. 14

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أسعد الفقراء العاملين لدينا [١] ولكن أهل هولنده يفعلون ذلك فى الصناعات ويبدو عليهم أنهم شعب سعيد ويفعل الفرنسيون ذلك حين لا تتدخل الأجازات [٢] .

ولكن هذا الشعب تساوره فكرة أنه بسبب كونه إنجليزياً له حق طبيعى فى أن يكون أكثر حرية واستقلالا من أى شعب آخر فى أوربا . وهذه الفكرة بقدر ما قد تؤثر فى شجاعة قواتنا قد تكون ذات نفع ، ولكن كلما قل هذا الشعور لدى الفقراء الصناع كان ذلك خيراً لهم وللدولة . . على العمال ألا يظنوا أنهم مستقلون عمن هم أعلى منهم . إن من الخطر الشديد أن تشجع الجماهير فى دولة تجارية كهذه حيث $\frac{7}{8}$ السكان ممن لا يملكون شيئاً . ولن يكن العلاج كاملا إلا إذا قنع عمالنا بالعمل ستة أيام بنفس الأجر الذى يتناولونه الآن فى أربعة أيام [٣]. ولتحقيق هذه الغاية ، وللقضاء على الخمول والفساد والإفراط ، ولتنمية روح الجد والعمل ، وخفض سعر العمل فى مصانعنا وتخفيف عبء ضريبة الفقراء المفروضة على الأرض ؛ نجد صاحبنا يقترح : وضع العمال الذين يعتمدون على الإعانة العامة وبعبارة أخرى العمال المعانين فى (بيت شغل مثالى) على أن يصير « بيت رعب» لا ملجأ للفقراء «يتمتعون فيه بأحسن الغذاء والكساء دون أن يؤدوا عملا » ، وإنما يجب حمل الفقراء فى بيت الرعب هذا على أن يشتغلوا ١٤ ساعة فى اليوم مع منحهم فترات مناسبة للطعام بحيث يكون طول يوم العمل فعلا ١٢ ساعة ، [٤] « ويضحك الفرنسيون من أفكارنا الحماسية عن الحرية [٥]» .

إثنى عشرة ساعة من العمل يومياً فى دار العمل المثالية أو فى بيت الرعب سنة ١٧٧٠ ! وبعد ذلك بثلاث وستين عاماً يخفض البرلمان الإنجليزى يوم العمل بالنسبة للأطفال من سن الثالثة عشرة حتى الثامنة عشرة إلى ١٢ ساعة كاملة فى أربعة فروع من الصناعة . لقد بزغ يوم الحساب للصناعة الإنجليزية !

ولما حاول لويس بونابرت سنة ١٨٥٢ أن يتلاعب بيوم العمل الذى حدده القانون وذلك

---

(١) يلقى المؤلف (ص ٩٦) الضوء على عناصر هذه السعادة التى يتمتع بها العمال الزراعيون الانجليز فى ١٧٧٠ ذلك أنه يقول « إن تواهم تستنفد ، فهم لا يستطيعون أن يعيشوا أرخص مما يعيشون أو يشتغلوا أشد مما يفعلون».

(٢) لعبت البروتستانتية دوراً هاماً فى تكوين رأس المال وذلك بالغائها كافة الأعياد التقليدية وتحويلها إلى أيام عمل عادية .

(٣) مصدر سابق ١٥ ، ٤١ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٩ — أعلن يعقوب فاندرلنت سنة ١٧٣٤ أن سر احتجاج الرأسماليين على العمل ينحصر فى رغبة أصحاب العمل أن يدفعوا أجر أربعة أيام مقابل عمل ستة أيام .

(٤) مصدر سابق ص ٢٤٢ (٥) مصدر سابق ص ٧٨ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

كى ينال تأييد البورجوازية صرخ الشعب الفرنسى بصوت واحد « إن القانون الذى يحدد يوم العمل باثنى عشرة ساعة هو القانون الطيب الذى تبقى لنا من تشريع أيام الجمهورية[1] » . وفى زيورخ حدد العمل للأطفال فوق العاشرة باثنى عشرة ساعة ، وفى أرجاو خفض يوم العمل لمن تتراوح أعمارهم بين ١٣ و ١٦ سنة الى ١٢ ساعة بدلا من ١٢½ . وحدث نفس الخفض فى النمسا بالنسبة للأطفال ما بين ١٤ و ١٦ سنة [2] » ياله من تقدم منذ سنة ١٧٧٠ ؛ لاشك . أن ما كولاى كان يصرخ جذلا بذلك !

ولكن « بيت الرعب » الذى كانت الروح الرأسمالية تحلم به فى سنة ١٧٧٠ تحقق بعد ذلك بسنوات قلائل على هيئة « بيت العمل » الضخم للعامل الصناعى ذاته . وهذا المكان يعرف باسم المصنع . وفى هذه المرة يتضاءل المثل الأعلى أمام الحقيقة .

٦ — النضال فى سبيل يوم العمل العادى — التحريم القانونى الاجبارى لوقت العمل — قوانين العمل الصادرة فى انجلترا فيما بين ١٨٣٣ — ١٨٦٤

قضى رأس المال قرونا فى مد يوم العمل إلى حده الأقصى ثم تخطى ذلك إلى حد اليوم الطبيعى ذى الإثنى عشرة ساعة[1] . أعقب ذلك ظهور الآلات وقيام الصناعة الحديثة فى

---

(١) « واعترضوا بصفة خاصة على العمل زيادة عن ١٢ ساعة فى اليوم لأن القانون الذى سدد تلك الساعات هو الخير الوحيد الذى تبقى لهم من التشريع الذى سنته الجمهورية » (تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٥٦ ص ٨٠) — وقانون الاثنى عشرة ساعة الفرنسى الصادر فى ٥ سبتمبر ١٨٥٠ وهو نسخة بورجوازية من المرسوم الذى أصدرته الحكومة المؤقتة فى ٢ مارس ١٨٤٨ ، ينطبق على جميع الورش بلا استثناء . وقبل صدور هذا القانون لم يعرف يوم العمل بفرنسا حدوداً فكان فى المصانع عبارة عن ١٤ ، ١٥ ساعة بل وأكثر من هذا .

Des classes ouvrières en France pendant l'anné 1848, by A. Blanqui والمسيو بلانكى (الاقتصادى أدولف بلانكى تمييزاً له عن أخيه الأصغر الثورى لويس أوغست بلانكى) كانت الحكومة قد كلفته باجراء تحقيق فى أحوال الطبقة العاملة .

(٢) « تعد بلجيكا من ناحية تنظيم يوم العمل الدولة البورجوازية النموذجية ، وقد كتب اللورد هوارد وزير بريطانيا المفوض فى بروكسل إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٦٢ يقول « أخبرنى الوزير المسيو روجيه أن عمل الأطفال لا يحدده قانون عام أو أية تنظيمات محلية ، وأن الحكومة خلال السنوات الثلاث الأخيرة اعتزمت أن تقترح فى كل دورة برلمانية مشروع قانون فى هذا الموضوع ولكنها كانت فى كل مرة تلقى عقبة شديدة بسبب المعارضة فى إصدار أى تشريع لأنه يخالف مبدأ حرية العمل التامة » .

(٣) « إنه لما يدعو إلى الأسف حقيقة ان تشتغل طبقة من الناس ١٢ ساعة فى اليوم تشمل الوقت اللازم =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الثلث الأخير من القرن الثامن عشر وهنا تحطمت كافة القيود الأدبية والطبيعية ، واعتبارات السن والجنس والليل والنهار ، بل إن فكرة الليل والنهار اضطربت بحيث احتاج قاض انجليزى سنة ١٨٦٠ إلى التلمود كى يفسرهما تفسيراً قانونياً(١)، وهكذا احتفل رأس المال بانتصاره .

ترنحت الطبقة العاملة تحت تأثير نظام الإنتاج الجديد ، ولكن ما لبثت أن أفاقت من الصدمة وبدأت المقاومة فى انجلترا مهد النظام الآلى . وقد ظلت الحقوق التى اكتسبها العمال ذات طابع إسمى ثلاثين عاماً . لقد أصدر البرلمان (١٨٠٢ - ٣٣) خمسة قوانين ولكنه لم يقرر بنساً واحداً لضمان تنفيذها بتعيين موظفين مختصين(٢) ، فظلت حبراً على ورق إذ كان الأحداث والأطفال يشتغلون حقيقة بالليل والنهار أو فى كليهما(٣) . ويرجع تاريخ يوم العمل العادى فى الصناعة الحديثة إلى قانون المصانع الصادر سنة ١٨٣٣ وكان يشمل مصانع القطن والصوف والكتان والحرير . ولا يدل على روح رأس المال أكثر من تاريخ قوانين المصانع الصادرة بانجلترا بين ١٨٣٣ ، ١٨٦٤ . يمتد يوم العمل حسب قانون ١٨٣٣ من ٥٫٣٠ صباحاً

=لتناول الطعام ، الحضور إلى مقر العمل ومغادرته بحيث يصل الرقم إلى ١٤ ساعة من ٢٤ .... وبدون أن تتعرض لمسألة الصحة مادى أظن أنه ما من امرىء يتردد فى الاعتراف أن مثل هذا الاستهلاك لوقت الطبقات العاملة بدون انقطاع من سن الثالثة عشرة المبكر وفى مهن غير خاضعة للقيود — نقول إنه لا يسعه إلا الاعتراف بأن هذا ينطوى من الوجهة الأدبية على أذى كبير وشر يدعو إلى الرثاء .... ومن أجل الآداب العامة وتنشئة شعب منظم ومنح الجانب الأعظم من الأهلين متعة معقولة بالحياة ، نرى أن من الأمور المرغوب فيها أن يخصص فى جميع المهن جانب من يوم العمل للراحة والفراغ ،،

Leonard Horner, Reports of Inspectors of Factories, December 1841

(١) The Judgment of Mr. J. H. Otwey, Belfast Hilary Sessions County Antrim, 1860

(٢) من الأمور التى تميز عصر لويس فيليب ذلك الملك البورجوازى أن قانون المصانع الوحيد الذى صدر فى ٢٢ مارس سنة ١٨٤١ وهو القانون الوحيد الذى سن فى عهده لم ينفذ مطلقاً . وعلاوة على هذا فالقانون لم يتعرض إلا لعمل الأطفال إذ نص على يوم عمل ذى ثمان ساعات للاطفال فيما بين الثامنة والثانية عشرة ، ويوم عمل طوله ١٢ ساعة لمن هم بين ١٢ ، ١٦ وذلك مع وجود استثناءات عدة بحيث أن إحداها أباحت العمل الليلى حتى بالنسبة للاطفال الذين فى الثامنة من العمر . أما مراقبة تنفيذ هذا القانون (فى بلد يراقب البوليس فيه أتفه الأشياء) فقد ترك امرها لحسن نية ،، اصدقاء التجارة ،، . ولم تعين الحكومة مفتشاً للمصانع يرتب من الدولة إلا فى سنة ١٨٥٣ وحدث هذا فى مقاطعة الشمال . ومن الأشياء المميزة كذلك ان يظل هذا القانون من بين مجموعة التشريعات الفرنسية عينة لقانون المصانع حتى نشوب ثورة سنة ١٨٤٨

(٣) تقارير مفتشى المصانع ، ٣٠ ابريل ١٨٦٥ ص ٥٠

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حتى ٨ر٣٠ مساء ، وخلال هذه الفترة يجوز استخدام من تتراوح أعمارهم بين ١٣ ، ١٨ سنة في أى وقت من النهار مدة لا تزيد عن ١٢ ساعة إلا فى حالات خاصة نص عليها القانون . ولهؤلاء الأفراد (المادة ٦) الحق فى ١½ ساعة للأكل بالنهار ، وحرم القانون تشغيل من لم يبلغوا التاسعة (إلا فى حالات استثنائية) ، وحدد العمل لمن سنهم ٩ — ١٣ سنة بثمان ساعات مع تحريم العمل الليلى (فيما بين ٨ر٣٠ مساء ، ٥ر٣٠ صباحاً) بالنسبة إليهم . وكان واضعو القانون أبعد نظراً من أن يعتدوا على « حرية العمل » أى حرية رأس المال فى استغلال العمال البالغين . جاء فى التقرير الأول للجنة المركزية (٢٨ يونية ١٨٣٣) ما يأتى: «وأعظم شر ناجم من نظام المصانع كما هو الآن ، أنه يستدعى ضرورة اشتغال الأطفال إلى الحد الأقصى كما يفعل البالغون . وعلاج الشر ، بغير تحديد العمل للبالغين الأمر الذى تترتب عليه أخطار أجل شأناً مما نريد معالجته ، إنما يكون بابتداع طريقة المجموعات المزدوجة بالنسبة للأطفال » . وقد نفذ نظام التناوب هذا فتشتغل مثلا مجموعة من الأطفال (٩-١٣ سنة) من ٥ر٣٠ صباحاً حتى ١ر٣٠ مساء وتتلوها الأخرى من ١ر٣٠ حتى ٨ر٣٠ مساء .

وكأنما أريد مكافأة أصحاب المصانع على تجاهلهم القوانين الصادرة خلال السنوات الـ ٢٢ السابقة فقرر البرلمان عدم السماح للأطفال دون سن ١١ (بعد أول مارس ١٨٣٤) ودون سن ١٢ (بعد أول مارس ١٨٣٥) ، ودون سن ١٣ (بعد أول مارس ١٨٣٦) بالاشتغال أكثر من ٨ ساعات فى أى مصنع . ومما يجعل هذه الحرية المليئة بالاعتبار والمراعاة لرأس المال جديرة بالملاحظة أنها جاءت بعد أن أوضح الدكتور فار ، سير ب . برودى ، سير س . بل ، مستر جوترى وسواهم من أبرز الأطباء وأشهر الجراحين بلندن ، خطر الإبطاء . وقد قال الدكتور فار بصراحة « إن التشريع ضرورى إذا أريد منع الموت فى سن مبكرة ومن المؤكد أن هذا (أى طريقة المصانع) يجب أن ينظر اليه على أنه طريقة غاية فى القسوة لاحداث الموت المبكر » . وهذا البرلمان المعروف باسم «برلمان الاصلاح» والذى حكم على الأحداث الذين دون الثامنة عشرة أن يشتغلوا فى السنوات التالية ٧٢ ساعة من الأسبوع هو نفسه الذى أصدر قانون تحريز العبيد وبمقتضاه حرم على أصحاب المزارع أن يشغّلوا العبد أكثر من ٤٥ ساعة فى الأسبوع .

لم يهدأ رأس المال وأخذ يحدث جلبة واضطراباً سنوات عدة . فبدأ الحملة على سن الذين حدد عملهم بثمان ساعات وكانوا مضطرين الى الحصول على قدر من التعليم . وحسب علم الأجناس الرأسمالى ينتهى عهد الطفولة في العاشرة أو الحادية عشرة وكلما اقترب موعد تنفيذ القانون

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وهو عام سنة ١٨٣٦ زاد هياج أرباب الصناعة وحاولوا إدخال الرعب فى قلب الحكومة إلى حد أنها اقترحت سنة ١٨٣٥ خفض سن الطفولة من ١٣ الى ١٢ سنة . ولكن الضغط الخارجى كان قوياً فخانت مجلس العموم الشجاعة وأبى أن يلقى بالأطفال دون الثالثة عشرة تحت عجلة رأس المال فيشتغلون أكثر من ٨ ساعات . وبذا أصبح قانون سنة ١٨٣٣ نافذاً وظل دون تغيير حتى سنة ١٨٤٤ .

وخلال السنوات العشر التى نظم فيها القانون العمل فى المصانع نجد تقارير المفتشين مليئة بالشكاوى من حيث استحالة تنفيذ القانون . إذ لما كان قانون سنة ١٨٣٣ يترك لسادة رأس المال الحرية خلال الخمسة عشر ساعة (٥/٣٠ صباحاً — ٨/٣٠ مساءاً) أن يجعلوا الحدث أو الطفل يبدأ ، يتوقف عن ، يستأنف ، ينهى الساعات الاثنى عشرة أو الثمانية فى أى لحظة يشاؤون ، كما سمح لهم أن يخصصوا للأفراد أوقات مختلفة لتناول الغداء . فإن هؤلاء السادة اكتشفوا طريقة التناوب وبها لا تغير خيول العمل هذه فى محطات ثابتة ، بل يعاد تجهيزها على الدوام من محاط متغيرة . ولن نقف هنا لتأمل جمال هذا النظام إذ سنعود اليه فيما بعد . ولكن الواضح لأول وهلة أن هذا النظام ألغى قانون المصانع كله لا روحاً فحسب بل نصاً كذلك . اذ كيف يستطيع مفتشو المصنع أن ينفذوا وقت العمل المحدود والوقت المعين للغداء فى ظل نظام معقد يقتضى امساك دفاتر كل طفل أو حدث ؟ ولهذا عادت المساوىء الهمجية من جديد فى كثير من المصانع وقد شكا المفتشون حين قابلوا وزير الداخلية (١٨٤٤) من استحالة القيام بأى اشراف فى ظل نظام التناوب الحديث[1] . وفى الوقت نفسه كانت الظروف قد أخذت فى التغير إذ أصبح مشروع الساعات العشر الشعار الاقتصادى للعمال كما كان « العهد » شعارهم السياسى وأرسل نفر من أرباب الصناعات ممن كانوا يديرون مصانعهم حسب قانون سنة ١٨٣٣ يشكون الى مجلس العموم من المنافسة غير الشريفة التى يلقونها من اخوانهم الذى مكنتهم وقاحتهم أو ظروفهم المحلية الملاءمة من خرق القانون . وفضلا عن هذا فقد أخذ ممثلو أصحاب الصناعات والزعماء السياسيون يغيرون موقفهم ولهجتهم إزاء الطبقة العاملة لأنهم كانوا فى حاجة الى تأييدها فى الحملة لإلغاء قوانين الغلال ووعدوا أفرادها لامضاعفة حجم رغيف الخبز فحسب بل وتقرير قانون الساعات العشر فى العصر الذهبى الذى سيتلو حرية التجارة[2] . أما التورى الذين هُددت أقدس مصالحهم وهى

---

(١) تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٤٩ ص ٦ .

(٢) شرحه ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ٩٨ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إيجار أرضهم فقد أرقوا وأرعدوا فى غضب عليه طابع العطف الإنسانى ضد الأساليب الدنيئة[١] التى يتبعها خصومهم .

هذا هو منشأ قانون المصانع الاضافى الصادر فى ٧ يونية سنة ١٨٤٤ والذى نفذ فى العاشر من سبتمبر ، وهو يحمى طائفة جديدة من العمال وهى النساء ممن تزيد أعمارهن عن ١٨ إذ جعلن كالأحداث وحدد يومهن باثنى عشرة ساعة وحرم العمل الليلى بالنسبة إليهن . الخ . وهكذا ألفى التشريع نفسه مضطراً لأول مرة أن يبسط رقابته بطريقة مباشرة ورسمية على عمل الأفراد البالغين . وقد جاء فى تقرير المصانع لسنة ١٨٤٤ — ٤٥ « لم تصل الينا أمثلة عن أسف النساء للتدخل فى حقوقهن [٢] . وقد خفض عمل الأطفال دون سن ١٣ إلى ٦ ساعات ، وإلى ٧ ساعات يومياً فى حالات معينة[٣] ولكى يمكن التخلص من مساوىء نظام التناوب قرر القانون القاعدة الآتية : تحسب ساعات العمل للاطفال والأحداث من الوقت الذى يبدأ فيه الطفل أو الحدث العمل فى الصباح ، ومثال ذلك : إذا كان (ا) يبدأ ٨ صباحاً ، (ب) فى العاشرة فبرغم هذا يجب انتهاء عمل الاثنين فى نفس الساعة . وتقرر تنظيم الوقت بواسطة ساعة عمومية ولتكن ساعة أقرب محطة للسكة الحديدية وعلى أساسها تضبط ساعة المصنع . ويجب طبع قائمة لبيان ساعات ابتداء العمل وانتهائه ومواعيد تناول الطعام . والأطفال الذين يبدأون العمل قبل الساعة ١٢ ظهراً لايجوز تشغيلهم ثانية بعد الواحدة وبذا تكون نوبة بعد الظهر من أطفال غيرهم . ومن حيث إن ١٢ ساعة المقررة للطعام يجب أن تكون ساعة منها قبل الساعة الثالثة مساء وفى نفس الفترة من اليوم ، ولا يجوز تشغيل طفل أو حدث أكثر من ٥ ساعات قبل الساعة الواحدة دون منحه ٣٠ دقيقة على الأقل للأكل ، كما لايجوز استخدام طفل أو حدث (خلال فترات تناول الطعام) فى حجرات العمل .

لم تكن هذه التفاصيل الدقيقة ذات الطابع العسكرى فى تنظيمها لأوقات العمل والراحة وليدة فكرة طرأت على ذهن البرلمان ، ولكنها فى الواقع تطورت تدريجا من الظروف

---

(١) يستخدم ليونارد هورنر هذا التعبير فى تقاريره الرسمية (تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٥٩ ص ١٧)

(٢) تقارير الخ ، ٣٠ سبتمبر ١٨٤٤ ص ١٥

(٣) سمح القانون باستخدام الأطفال عشر ساعات مرة واحدة إذا لم يشتغلوا كل يوم ولا يجب أن يحدث هذا إلا فى أيام غير متلاحقة . وعلى العموم ظلت هذه المادة غير نافذة المفعول .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المحيطة بصفتها قوانين طبيعية للأسلوب الحديث فى الإنتاج ، وتكونها والاعتراف الرسمى بها نتيجة صراع طويل . وأول النتائج التى ترتبت عليها أن خضع عمل البالغين لنفس القيود نظراً إلى أنه فى معظم عمليات الإنتاج لاغنى عن تعاون الأطفال والأحداث والنساء . وعلى العموم ساد قانون الإثنى عشرة ساعة (خلال الفترة ١٨٤٤ — ٤٧) فى كافة فروع الصناعة الخاضعة لقانون المصنع .

ولم يسمح أرباب الصناعة لهذا « التقدم » أن يأخذ مجراه دون القيام « بعمل رجعى » من جانبهم فحملوا مجلس العموم على خفض الحد الأدنى لسن الأطفال الذين هم موضع الاستغلال من ٩ إلى ٨ سنوات ، وذلك ليضمنوا مورداً إضافياً من أطفال المصانع للرأسماليين الذين يرون ذلك حقاً لهم طبقاً للقوانين السماوية والإنسانية (١).

إن السنوات ١٨٤٦ — ٤٧ فاصلة فى التاريخ الاقتصادى بانجلترا ففيها الغيت قوانين الغلال والرسوم على القطن والمواد الأولية الأخرى ، ونودى بأن حرية التجارة هى النجم الذى يهدى رجال التشريع ، وبعبارة أخرى خيل للناس أن هذه الفترة ايذان بحلول العصر الذهبى . ومن جهة أخرى ففى هذه السنوات وصلت الحركة التعاهدية والاضطراب بشأن العشر ساعات حدهما الأقصى ، ووجدا نصيراً لهما فى التورى المتلهفين على الثأر . واستطاع قانون العشر ساعات أن يمر خلال البرلمان برغم معارضة أنصار حرية التجارة وعلى رأسهم بريت وكوبدن .

وقد قرر القانون الجديد الصادر فى ٧ يونية سنة ١٨٤٧ أنه اعتباراً من أول يولية يخفض يوم العمل بصفة مبدئية إلى إحدى عشرة ساعة بالنسبة إلى الأحداث (من ١٣ إلى ١٨ سنة) وجميع الإناث ، ولكن ابتداء من أول مايو سنة ١٨٤٨ يحدد يوم العمل بصفة نهائية بعشر ساعات . أما من النواحى الأخرى فقد عدل القانون أو أكمل القوانين الصادرة فى عامى ١٨٣٣ ، ١٨٤٤ .

بدأ رأس المال حملة افتتاحية لعرقلة تنفيذ المشروع فى أول مايو سنة ١٨٤٨ واعتمد على العمال انفسهم لهدم عملهم تحت الستار الكاذب بأن التجارب صقلتهم وعلمتهم . وقد أحسن رأس المال اختيار الوقت بسبب الضيق الذى دام أكثر من عامين على أثر الأزمة العنيفة التى شاهدتها البلاد (١٨٤٦ — ٤٧) وتأثر بها عمال المصانع كثيراً بسبب تعطل بعضها والتجاء البعض الآخر إلى تقليل إنتاجها . ولما كان كثير من العمال فى حالة سيئة وكثيرون منهم فى حالة دين فلا ريب أنهم يفضلون الاشتغال أكثر من الحد المقرر قانوناً حتى يتسنى لهم

(١) « نظراً لبعض ساعات عملهم بسبب استخدام عدد أكبر (من الأطفال) رؤى إن فى الامكان مواجهة الطلب المتزايد عن طريق العدد الاضافى من الأطفال الذين أعمارهم بين الثامنة والتاسعة — شرحه ص ١٣ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التعويض عن خسائرهم ، وسداد ديونهم ، وتخليص أثاثهم من الرهن ، أو شراء ملابس جديدة لأنفسهم ولأسراتهم (١) . وحاول أرباب الصناعات زيادة أثر هذه الظروف السيئة فخفضوا الأجور بمقدار ١٠ ٪ بحجة أنهم يستهلون عهد حرية التجارة ، وتلا ذلك خفض آخر بمعدل ٨ ٪ لما خفض اليوم إلى ١١ ساعة ، وخفض ثالث ضعف هذا المقدار لما نفذ قانون العشر ساعات . وعلى ذلك حينما سمحت الظروف حدث خفض فى الأجور قدره ٢٥ ٪ (٢) وفى ظل هذه الأحوال الملاءمة بدأت حركة العمال نحو الغاء قانون سنة ١٨٤٧ ولم يدخر القائمون بالحركة وسيلة إلا استخدموها فلجأوا إلى الكذب والرشوة والوعيد . ولكن كان ذلك كله عبثاً . ففيما يختص بالالتماسات الست التى حمل فيها العمال على الشكوى من « الظلم الذى يوقعه بهم القانون » فحينما استجوب رافعو الإلتماس شفوياً صرحوا أنهم أرغموا على التوقيع وقالوا « إنهم يشعرون بظلم واقع عليهم ولكن ليس سببه القانون » (٣) . وإذا كان رجال الصناعة قد أخفقوا فى حمل العمال على أن يتكلموا بلسانهم . فانهم رفعوا الصوت عالياً فى الصحافة والبرلمان باسم الدفاع عن العمال ، وحملوا على مفتشى المصانع وشبهوهم برسل الثورة الذين كان المؤتمر الوطنى يبعث بهم أثناء الثورة الفرنسية ، وقالوا إنهم يضحون دون شفقة بعمال المصانع البؤساء على مذبح الأوهام الإنسانية . وقد أخفقت هذه المناورة كذلك إذ قام المفتش ليونارد هورنر ومرؤوسوه باستجواب كثير من الشهود بمصانع لانكشير وصرح ٧٠ ٪ برضائهم عن العشر ساعات وحينئذ عدد قليل نظام الإحدى عشرة ساعة أما الراغبون فى العمل ١٢ ساعة فأقلية لاتستحق الذكر (٤) .

ومن المناورات أيضا حمل البالغين من الذكور على العمل ١٢ — ١٥ ساعة ثم يتخذ من ذلك دليل على ماترغب فيه الطبقة العاملة فى قرارة نفسها . وهنا تقدم هورنر نفسه يسجل

---

(١) تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ١٦

(٢) « ورأيت أن الرجال الذين كانوا يحصلون على ١٠ شلنات فى الأسبوع يخصم منهم شلن بنسبة ١٠ ٪ ، شلن ونصف الشلن من الشلنات متسع فباقية بسبب الخفض فى الوقت . بذا يبلغ الخصم شلنين ونصف شلن ، وبرغم هذا قال كثيرون منهم إنهم يفضلون العمل ١٠ ساعات » — شرحه

(٣) برغم أنى وقعت عليه (أى الالتماس) فقد ملت إذ ذاك إنى اشترك فى أمر خاطىء ؟ إذن ولماذا اشتركت فيه ؟ لأنى لو رفضت لتعرضت للطرد . ومن هنا يظهر أن هذا الشخص الذى وقع الالتماس أحسن بأنه « موضع الاضطهاد » ولكن لم يكن الاضطهاد من جانب قانون المصانع تماماً (التقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ١٠٢

(٤) شرحه ص ١٧ — فى منطقة مستر هورنر استجوب ١٠٢٧٠ من العمال الذكور البالغين يعملون فى ١٨١ مصنعاً . وتوجد شهادتهم فى الملحق المضاف إلى تقارير المصانع عن نصف العام المنتهى فى أكتوبر ١٨٤٨ ، والشهادة لها قيمتها فى نواح أخرى كثيرة خلاف الناحية التى تعنينا الآن .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ماسمعه من العمال حيث قال معظم من يشتغلون أكثر من الوقت المقرر بأجر إنهم يفضلون العمل ١٠ ساعات بأجر أقل ولكن لم يكن فى وسعهم الاختيار . ولأن الكثير منهم متعطل بحيث أنهم إذا رفضوا العمل هذه المدة الطويلة أسرع غيرهم بالعمل مكانهم (١) .

بهذا أخفقت حملة رأس المال إخفاقاً يدعو إلى الأسى ونفذ قانون العشر ساعات اعتباراً من أول مايو ١٨٤٨ ، ولكن فى الوقت ذاته تحطمت مهزلة الحركة التعاهدية Chartist movement بين سجن زعمائها وحل هيئاتها الأمر الذى زعزع ثقة الطبقة العاملة بانجلترا فى قوتها . أعقب ذلك ثورة يونية فى باريس ثم إخمادها بالدم وهنا نجد فى انجلترا ـ وغيرها من دول القارة ـ تحالفاً جمع شمل مختلف شيع الطبقات الحاكمة من اللوردات والرأسماليين ، وذئاب البورصة وأصحاب المتاجر الصغيرة وأنصار الحماية وأتباع حرية التجارة ، والحكومة والمعارضة ، والقساوسة وذوى التفكير الحر ، والمومسات والراهبات ـ كل هؤلاء اجتمعوا تحت شعار واحد هو العمل على إنقاذ الملكية والدين والأسرة والمجتمع ، وأصبح العمال موضع الريب والضغط ، ورفع رجال الصناعة علم الثورة لا على قانون العشر ساعات وحده بل وعلى التشريعات كلها الصادرة منذ سنة ١٨٣٣ والتى حاولت تقييد « حريتهم » فى استغلال قوة العمل . لقد كان ذلك صورة مصغرة لثورة أريد بها إرجاع عهد العبودية ولم يدخر أصحاب رؤوس الأموال جهدا إلا إذا كان فى ذلك مساس بجلودهم .

ولكى نفهم الحوادث التاليه يجب أن نذكر أن قوانين المصانع الصادرة فى سنوات ١٨٣٣ ، ١٨٤٤ ، ١٨٤٧ كانت كلها نافذة من حيث أن الواحد منها لم يعدل الآخر ، وإن أياً منها لم يحدد يوم العمل للعامل البالغ الذى تزيد سنه عن الثامنة عشرة ، وأنه منذ سنة ١٨٣٣ ظلت الخمس عشرة ساعة من ٥,٣٠ صباحاً حتى ٨,٣٠ مساء اليوم القانونى ، والذى فى نطاقه طبق نظام الاثنى عشرة ساعة ثم العشر ساعات بالنسبة إلى الأحداث والنساء . وقد بدأ أرباب الصناعات بطرد عدد بلغ النصف أحياناً من الأيدى العاملة من الأحداث والنساء ثم أعادوا العمل الليلى للذكور البالغين ، قائلين إن قانون العشر ساعات لا يدع لهم سبيلا آخر (٢) . أما خطوتهم الثانية فكانت بصدد الأوقات القانونية المحددة لتناول الغداء . ولنستمع إلى ما يقوله

---

(١) تقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ، والأدلة التى جمعها ليونارد هورنر شخصياً تحت هذا العنوان تجدها فى الأرقام التالية ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، والأدلة التى جمعها المفتش المساعد ا موجودة فى الارقام ٥١ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٠ من الملحق . ويكشف أحد أصحاب المصانع عن الحقيقة غير المزوقة : أنظر أرقام ١٤ ، ٢١٥ .

(٢) تقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ١٢٣ ١٢٤

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مفتشو المصانع . «منذ تقييد ساعات العمل العشر يقول أصحاب المصانع إنه بفرض أن ساعات العمل تمتد من ٩ صباحاً إلى ٧ مساء فانهم يطبقون نصوص القوانين بالسماح بساعة قبل التاسعة صباحاً وبنصف ساعة بعد السابعة مساء (للأكلات) . وفى بعض الحالات يسمحون الآن بساعة أو نصف ساعة للغداء مع إصرارهم فى الوقت نفسه على أنهم غير مقيدين بالسماح بهذا الوقت خلال يوم العمل بالمصنع»(٢) وقد قال أرباب الصناعات إن كل ما فعله القانون الصادر سنة ١٨٤٤ إنما هو السماح للعمال بالأكل والشرب قبل حضورهم إلى المصنع وبعد مغادرته أى فى بيوتهم . ولماذا لا يتناولون غداءهم قبل التاسعة صباحاً ! ولكن محامى التاج حكموا بأن المواعيد المقررة للأكلات يجب أن تكون خلال ساعات العمل ، وأنه ليس مما يتفق مع القانون أن يشتغل الإنسان ١٠ ساعات متواصلة من ٩ صباحاً إلى ٧ مساء بدون أية فترة راحة (٣) . وإزاء هذا خطا رأس المال خطوة جديدة تتفق مع حرفية قانون سنة ١٨٤٤ . من المعلوم أن هذا القانون حرم على الأطفال الذين يشتغلون فى الصباح أن يعملوا بعد الواحدة بعد الظهر ، ولكنه لم ينظم عمل الست ساعات ونصف بالنسبة للأطفال الذين يبدأ وقت عملهم ظهراً أو بعد ذلك . وعلى هذا فما لا يتعارض مع القانون أن تجعل الأطفال الذين فى سن الثامنة إذا بدأوا ظهراً أن يشتغلوا من ١٢ إلى ١ ومن ٢ إلى ٤ ومن ٥ إلى ٨/٣٠ ومجموع ذلك كله الست ساعات ونصف القانونية . وهناك سبيل خير من هذا لأنه يجعل عملهم يتفق مع عمل الذكور البالغين ، وذلك بأن تجعل هؤلاء الأطفال يبدأون العمل فى الثانية بعد الظهر ويواصلونه حتى الثامنة والنصف . وهذه الطريقة سائدة الآن فى انجلترا بسبب رغبة أصحاب المصانع فى بقاء آلاتهم قائمة بعملها أكثر من ١٠ ساعات يومياً ، وفى تشغيل الأطفال مع الذكور البالغين بعد انتهاء عمل الأحداث والنساء حتى الثامنة والنصف (٤) . وقد اعترض العمال ومفتشو المصانع مستندين إلى أسباب صحية وأدبية ولكن تمسك رأس المال بحرفية القانون . ودلت الإحصائيات المقدمة إلى مجلس العموم فى ٢٦ يولية ١٨٥٠ على خضوع ٣٧٤٢ طفلا فى ٢٥٧ مصنعاً لهذه الطريقة . لم يكتف رأس المال بهذا (١) ، بل كشف أن قانون ١٨٤٤ لم يسمح بخمس ساعات من العمل فى الصباح إلا مع منح فترة للطعام قدرها ٣٠ دقيقة على الأقل ولكنه لم يتعرض لعمل فترة بعد الظهر ولهذا جعل الرأسماليون أطفال الثامنة يشتغلون من الساعة ٢ حتى ٨/٣٠ مساء دون أن يأكلوا شيئاً . هذا التمسك (على طريقة شيلوك حين

---

(١) شرحه ٣٠ أبريل ١٨٤٨ ص ٤٧ (٢) شرحه ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ١٣٠

(٣) شرحه ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ١٤٢ (٤) شرحه ٣١ أكتوبر ١٨٥٠ ص ٥ — ٦

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

قال : نعم ، القلب هكذا ينبض العقد)[١] بحرفية القانون أدى بعد ذلك إلى الثورة على ما قرره هذا القانون بتحديد عمل « الأحداث والنساء » . ولعلنا نذكر أن الغرض الأساسى من القانون كان القضاء على « طريقة التناوب الباطلة » وهنا صرح رجال الصناعة للمفتشين بعزمهم على إعادة الطريقة القديمة وعلى مسئوليتهم[٢] لأنهم إنما يفعلون ذلك لصالح العمال المخدوعين وحتى يتسنى لهؤلاء الحصول على أجور أكبر ، ولأن هذه هى الوسيلة التى تمكن بريطانيا العظمى من الإحتفاظ بتفوقها الصناعى فى ظل قانون العشر ساعات[٣] وقالوا كذلك « قد تكون هناك صعاب فى كشف المخالفات التى ترتكب فى ظل نظام التناوب ولكن ما أهميـــة ذلك ؟ لم نعامل المصلحة الصناعية لهذه البلاد على أنها مسألة ثانوية وذلك كى نوفر بعض المشقة على المفتشين ومرؤوسيهم »[٤] . غير أن المحاولات لم تجد نفعاً بطبيعة الحال إذ لجأ المفتشون إلى المحاكم . وأخيراً انهالت التماسات رجال الصناعة على وزير الداخلية سير جورج غراى حتى أنه أرسل نشرة دورية يوصى المفتشين بعدم مقاضاة أصحاب المصانع لنقض نصوص القانون أو تشغيل الأحداث بالتناوب ، وذلك فى الحالات التى لم يشتغل هؤلاء فيها أكثر من الوقت القانونى . وهنا أباح المفتش ج . ستيوارت نظام التناوب باسكتلندة خلال الخمس عشرة ساعة وهى يوم العمل بالمصانع . أما المفتشون الإنجليز فأعلنوا أن ليس لوزير الداخلية ان يصدر مثل هذه الأوامر لوقف مفعول القوانين وواصلوا إجراءاتهم القانونية ضد هذه الثورة الرامية إلى تنبيت نظام الاستعباد .

ولكن ما فائدة ذلك إذا كانت المحاكم نفسها المكونة من أعيان البلاد تبرىء الرأسماليين ! ولنضرب مثلا لذلك . عرض اسكريج وهو أحد غزالى القطن فى شركة كرشاو ، لين وشركاهم على مفتش الجهة خطة لإدخال نظام المناوبات فى مصنعه ولكن المفتش أبى الموافقة . و بعد

(١) مهما كان الشكل الذى يبدو به رأس المال ناميا أو غير نام فان طبيعته واحدة فقبل أن تنشب الحرب الأهلية الأمريكية بوقت وجيز استطاع ملاك العبيد أن يفرضوا فى منطقة نيومكسيكو قانوناً يمتضاه يعد العامل الذى اشترى الرأسمالى قوته على العمل « مالا » لهذا الأخير . وقد سادت وجهة نظر مماثلة بين اشراف روما قديماً لأن المال الذين كانوا يقدمونه للمدينين من طبقة العامة كان يتحول عن طريق وسائل العيش إلى لحم ودم المدينين . وعلى ذلك كان هذا « اللحم والدم » « مالا لحم » . إن دقة وصحة نظرية Linguet وهى ان الأشراف كانوا يقيمون الولائم من وقت لآخر عبر فيها الثيران على لحم مديونيهم يمكن ان يترك موضعا للمناقشة كما هو الشأن بالنسبة إلى نظرية دومر Dummer عن عشاء الرباط عند المسيحيين

(٢) انظر مثلا خطاب اشراف المقاطعات على الانسانية إلى ليونارد هورنر ... تقارير الخ ابريل ١٨٤٨ ص ٤

(٣) شرحه ص ١٣٤

(٤) شرحه ص ١٤٠

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أشهر قلائل قدم غزال آخر يدعى روبنسون للمحاكمة لإدخال النظام الذى وضعه اسكريج . وجلس أربعة من قضاة السلام من بينهم ثلاثة من عزالى القطن وعلى رأسهم اسكريج ، وصدر الحكم ببراءة روبنسون . وهنا اعتمد اسكريج على الحكم الذى أصدره وأدخل نظامه الذى سبق أن اقترحه (١). ولا ريب أن تكوين المحكمة بهذا الشكل فيه افتئات على القانون(٢) ولهذا يرى المفتش هول ضرورة علاج هذه المهازل القضائية إما بتغيير القانون أو بإسناد تطبيقه الى محكمة أخرى تتفق قراراتها معه(٣).

صرح محامو التاج أن تفسير أرباب الأعمال للقانون تفسير سخيف ، ولكن هذا لم يثن الأخيرين عن عملهم . ولهذا ذكر ليونارد هورنر فى تقريره أنه لا يرى فائدة فى مقاضاة المخالفين بعد أن قدم سبعاً منهم لم ينصره القضاء إلا فى حالة واحدة ، ويقول إن القسم الذى أريد به توحيد ساعات العمل غير نافذ فى منطقة (لانكشير) . وهو ومرءوسوه لا يملكون من الوسائل ما يمكنهم من التيقن انه فى ظل نظام المناوبات لا يشتغل الأحداث والنساء أكثر من عشر ساعات يومياً . ويرى أنه بوجه عام يمكن القول بأن المصنع يشتغل ١٣½ ساعة من السادسة صباحاً حتى السابعة والنصف مساء ، بل قد يصل ذلك فى بعض الحالات إلى ١٥ ساعة (أى ٥½ صباحا الى ٨½ مساء)(٤) . وفى ديسمبر سنة ١٨٤٨ كانت لدى هورنر قائمة من ٦٥ من أصحاب المصانع ، ٢٩ من المشرفين على العمال وكلهم صرحوا بالإجماع باستحالة أى نظام من الرقابة أن يحول دون الإرهاق الشديد مع وجود طريقة المناوبات(٥). فنفس الاحداث ينقلون من غرفة الغزل إلى غرفة النسيج تارة ، وتارة أخرى خلال ١٥ ساعة من مصنع إلى آخر(٦) . ومن هنا تبدو استحالة مراقبة نظام يعد تحت ستار المناوبات وسيلة لنقل الأيدى العاملة وساعات العمل والراحة للأفراد خلال اليوم بحيث لا تكون هناك جماعة من العمال تشتغل سوياً فى نفس المكان وفى نفس الوقت (٧) .

وتصف الصحافة المحترمة هذه الأساليب بأنها نماذج « لما يستطيع مستوى معقول من

---

(١) تقارير الخ ٣٠ ابريل ١٨٤٩ ص ٢١ – ٢٢ والاطلاع على امثلة مشابهة انظر شرحه ص ٤ – ٥

(٢) حسب القانون المعروف باسم قانون مصانع سير جون هوبهاوس تقرر ان كل صاحب مصنع لغزل القطن او للنسج او والد مثل هذا الشخص او ابنه او اخوه ، يمنعون من القيام بوظيفة قاضى السلم فى التحقيقات المتصلة بقانون المصانع .

(٣) التقارير الخ ٣٠ ابريل ١٨٤٩ ص٢٢ (٤) شرحه ص ٥ .

(٥) شرحه ٣١ اكتوبر ص ٦ (٦) شرحه ٣٠ ابريل ص ٢١

(٧) شرحه ٣١ اكتوبر ١٨٤٨ ص ٩٥

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العناية والنظام أن يؤديه من نتائج » ؛ ولننظر الى أحد هذه الأساليب . فأحيانا يتسم عمال المصنع الى ١٢ — ١٤ درجة بغير أفراد كل درجة مركزهم ودورهم . فخلال الساعات الخمس عشرة تجد رأس المال يجر العامل الى الداخل لمدة ٣٠ دقيقة ثم لساعة ثم يدفعه خارجاً ليعيده الى داخل المصنع ويكرر هذه العمليات دون أن تضعف قبضته على العامل . فالعمال هنا كالممثلين الذين يظهر الواحد منهم فى عدة أدوار ، وكما أن الممثل ملك للمسرح أثناء الرواية فكذلك العامل ملك المصنع خلال الخمس عشرة ساعة وذلك دون حساب وقت الذهاب والإياب . وبهذه الحيل يعمل الرأسمالى على بقاء آلاته عاملة من ١٢ الى ١٥ ساعة دون زيادة عدد العمال . وعلى العامل أن يبتلع طعامه فى أى فترة . ولقد قال رجال الصناعة أثناء حركة المطالبة بيوم العشر ساعات إن العمال يطالبون أجر ١٢ ساعة مقابل عمل ١٠ ساعات . أما الآن فقد عكسوا الآية فهم (رجال الصناعة) يدفعون أجر ١٠ ساعات مقابل عمل ١٢ أو ١٥ ساعة [١]. وهذه هى الطريقة التى يفسر بها الرأسماليون قانون العشر ساعات !

هؤلاء هم أنصار حرية التجارة الذين أفهموا العمال أثناء الحركة المعادية لقوانين القمح أنه فى حالة تقرير سياسة حرية التجارة ورخص الاستيراد وبسبب مزايا الصناعة الإنجليزية فإن عمل ١٠ ساعات كاف ليدر الثراء على الرأسماليين [٢] . ولكن ثورة رأس المال توجت بالنصر حين صدر قرار فى القضية المرفوعة فى ٨ فبراير سنة ١٨٥٠ بأنه ولو أن رجال الصناعة تصرفوا فعلا بما يخالف قانون ١٨٤٤ إلا أن ذلك القانون نفسه يضم كلمات تجعله عديم المعنى . « وبهذا القرار الغى قانون العشر ساعات »[٣] وتشجع الكثيرون على اتباع نظام المناوبة للأحداث والنساء بعد أن منعهم الخوف من قبل [٤].

---

(١) انظر التقارير الخ ٣٠ ابريل ١٨٤٩ ص ٦ ، وكذلك شرح مفصل « لنظام النوبات » كتبه مفتشة المصانع هوول وسوندرز (التقارير الخ ٣١ اكتوبر ١٨٤٨) . وانظر كذلك الالتماس المرفوع إلى الملكة من رجال الدين فى آشتون والجهات المجاورة لها فى ربيع سنة ١٨٤٩ ضد « نظام النوبات » .

(٢) أنظر مثلا :
The Factory Question and The Ten Hours Bill by R. H. Greg. 1837

(٣) فردريك انجلز Die englisch Zehnstunden-bill فى مجلة Neue Rheinische Zeitung التى يديرها كارل ماركس ، ابريل ١٨٥٠ ص ١٣ وقد كشفت نفس هذه المحكمة القضائية « العليا » أثناء الحرب الأهلية الأمريكية الغموض اللفظى الذى عكس معنى القانون ضد تسليح أصحاب السفن الذين يعملون خصاهم .
(ويحسن ان تقرأ هذه العبارة سفن القرصان) .

(٤) التقارير الخ ٣٠ ابريل ١٨٥٠

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولكن هذا الفوز الظاهرى أعقبته هزيمة فى الحال . فقد كانت مقاومة العمال حتى ذلك التاريخ سلبية وإن لم تكن صلبة ، ولكنهم الآن احتجوا فى لا نكشير ويوركشير فى اجتماعات عقدوها قائلين إن قانون العشر ساعات ـ تلك الخدعة البرلمانية ـ لا وجود له . وقد حذر بعض المفتشين الحكومة من أن العداء قد وصل إلى درجة من العنف يصعب تصديقها . وتذمر بعض أرباب الأعمال أنفسهم « إذ نظراً للتناقض بين أحكام القضاة تسود حالة شاذة مليئة بالفوضى . ففى يوركشير قانون وفى لا نكشير قانون آخر ، بل تختلف القوانين في جهات المنطقة الواحدة ولو كانت متجاورة . وبينما يستطيع أرباب الصناعة بالمدن أن يتجنبوا القانون لا يجد زملاؤهم فى الريف العمال اللازمين لنظام الدورات والمناوبة الخ .

إن الحق الأول لرأس المال هو التساوى بين أربابه فى استغلال قوة العمل . وإزاء هذا أصدر البرلمان قانون المصانع الإضافى (٥ أغسطس سنة ١٨٥٠) بقصد التوفيق بين العمال وأصحاب الأعمال . فرفع يوم العمل بالنسبة إلى الأحداث والنساء من ١٠ ساعات الى ١٠½ ساعة خلال الأيام الخمس الأولى من الأسبوع ، وخفض الى ٧½ يوم السبت ويستمر يوم العمل من ٦ صباحاً إلى ٦ مساء مع اعطاء ١½ ساعة على الأقل لتناول الطعام على فترات واحدة للجميع وحسب شروط قانون سنة ١٨٤٤ . وبهذا قضى نهائياً على نظام التناوب(٢) أما عن عمل الأطفال فقد ظل قانون سنة ١٨٤٤ نافذاً .

هناك طائفة من أصحاب الأعمال نالت لنفسها ، كما فعلت من قبل ، حقوقاً على أطفال الطبقة العاملة ، وهذه هى فئة المشتغلين بصناعة الحرير . ففى سنة ١٨٣٣ صرخوا مهددين « بأن حرمانهم من حرية استخدام الأطفال من أى سن لمدة ١٠ ساعات فى اليوم ، معناه إغلاق مصانعهم(٣) إذ سيكون من المستحيل عليهم شراء العدد الكافى من العمال ممن تزيد أعمارهم عن ١٣ سنة ، وقد نجحوا فى انتزاع هذا الامتياز . وقد أبانت التجارب أن حجتهم كانت أكذوبة متعمدة(٤) . ولكنها لم تحل بينهم وبين غزل الحرير عشر ساعات فى اليوم من دماء أطفال صغار كانوا يضطرون إلى وضعهم على كراسى ليمكنهم أداء أعمالهم (٥) . حقيقة سلبهم قانون

---

(١) فى الشتاء يمكن ان يحل محله من ٧ صباحاً حتى ٧ مساء .

(٢) كان قانون ١٨٥٠ « محاولة توفيق بمقتضاها يتنازل المستخدمون عن المنفعة التى يجنونها من قانون العشر ساعات مقابل الميزة المترتبة على فترة متجانسة لابتداء وانتهاء عمل اولئك الذين عملهم مقيد» التقارير إلى آخر ٣٠ ابريل ١٨٥٢ ص ٢٤ .

(٣) التقارير إلخ ٣٠ سبتمبر ١٨٤٤ ص ١٣ (٤) شرحه (٥) شرحه

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

سنة ١٨٤٤ حرية تشغيل الأطفال دون الحادية عشرة أكثر من ٩ ساعات . ولكنه منحهم من جهة أخرى امتياز تشغيل الأطفال بين ١١ ، ١٣ سنة عشر ساعات يومياً ، والغاء التعليم الذى صار إجبارياً بالنسبة الى جميع أطفال المصانع . وقد كان العذر فى هذه المرة دقة الصنعة مما يتطلب خفة فى اللمس وهذا لا يمكن إدراكه الا بالحاق الأطفال بالمصانع فى سن مبكر (١) . وهكذا كان الأطفال يقتلون من أجل دقة أصابعهم كما تذبح الماشية فى جنوب روسيا من أجل جلودها وشحومها ، وأخيراً فى سنة ١٨٥٠ قصر هذا الامتياز على جدل وفتل الحرير ، ولكن رأس المال نال مقابل ذلك رفع وقت العمل بالنسبة لمن هم بين ١١ ، ١٣ إلى ½ ١٠ ساعة بحجة أن العمل فى مصانع الحرير أخف منه فى مصانع الأنواع الأخرى من النسيج وأقل ضرراً بالصحة (٢) . وقد أثبتت التحقيقات الرسمية فيما بعد نقيض ذلك ، إذ أن متوسط الوفيات مرتفع جداً فى مناطق صناعة الحرير ، وهو بين النساء أعلى منه حتى فى مناطق صناعة القطن بلانكشير (٣) ، ولا يزال الشر قائماً حتى اليوم برغم تكرر الاحتجاجات من جانب

(١) شرحه ص ٢٠ (٢) التقارير ألخ ٣١ اكتوبر ١٨٦١ ص ٢٦

(٣) المصدر المشار اليه ص ٢٧ . وعلى العموم حدث تحسين ملحوظ فى الحالة الجثمانية لذلك الفريق من الطبقة العاملة الذى أصبح خاضعاً لمفعول قانون المصانع ، ويشهد بذلك الشهود الطبيون جميعاً ، كما أن ملاحظتى فى فترات مختلفة أقنعتنى أن الأمر كذلك . برغم هذا ، وبغض النظر عن فداحة وفيات الأطفال فى المناطق التى يسود فيها عمل المصانع ، فان تقارير الدكتور جرينهاو الرسمية تظهر سوء حال هذه المناطق من الناحية الصحية اذا ما عقدنا الموازنة بينها ,, والمناطق الزراعية حيث الحالة الصحية فيها عادية ،، . لاحظ الجدول التالى المقتبس من تقريره فى عام ١٨٦١

النسبة المئوية للذكور البالغين المشتغلين فى الصناعات	معدل الوفاة من الالتهاب الرئوى فى كل ١٠٠٠٠٠ من الذكور	اسم الجهة	معدل الوفيات من التهاب الرئة فى كل ١٠٠٠٠٠٠	نسبة الاناث البالغات المشتغلات فى الصناعات	نوع المهنة النسائية
١٤٠٩	٥٩٨	ويجان	٦٤٤	١٨	القطن
٤٢٠٦	٧٠٨	بلاكبيرن	٧٣٤	٣٤٠٩	القطن
٣٧٠٣	٥٤٧	هاليفكس	٥٦٤	٢٠٠٤	الصوف
٤١٠٩	٦١١	براد فورد	٦٠٣	٣٠	الصوف
٣١	٦٩١	ماكليسفيلد	٨٠٤	٢٦	الحرير
١٤٠٩	٥٨٨	ليك	٨٦٥	١٧٠٢	الحرير
٣٦٠٦	٧٢١	ستوك اون ترنت	٦٦٥	١٩٠٣	الفخار
٣٠٠٤	٧٢٦	ولستانتين	٧٢٧	١٣٠٩	الفخار
—	٣٠٥	ثمانى جهات زراعية صحية	٣٤٠	—	—

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مفتشي المصانع كل ٦ أشهر[١]. لقد غير قانون سنة ١٨٥٠ وقت الساعات الـ ١٥ من ٦ صباحا حتى ٨/٣٠ مساء إلى ١٢ ساعة من ٦ صباحا حتى ٦ مساء بالنسبة للأحداث والنساء فقط، ولكنه لم يؤثر في الأطفال الذين يمكن تشغيلهم دائما قبل تلك المواعيد بنصف ساعة وبعدها بساعتين ونصف بشرط ألا يزيد مجموع ساعات العمل لهم عن ٦ ½ . وأثناء مناقشة المشروع قدم المفتشون إلى البرلمان إحصائيات لتوضيح المساوىء المترتبة على هذا الشذوذ، ولكن بدون جدوى إذا كانت الفكرة المستقرة أنه في سنوات الرخاء يمد يوم العمل للبالغين إلى ١٥ ساعة بمساعدة الأطفال. ولكن أثبتت تجارب السنوات الثلاث التالية أن مثل هذه المحاولة لابد أن تخفق إزاء معارضة العمال البالغين[٢]، ولهذا صدر قانون سنة ١٨٥٣ محرما تشغيل الأطفال قبل الأحداث والنساء صباحا وبعدهم مساء. ومنذ ذلك التاريخ نظم قانون ١٨٥٠ يوم العمل لجميع العمال في فروع الصناعة الداخلة في دائرة سلطانه[٣]، وقد انقضى نصف قرن منذ صدور أول قانون للمصانع[٤].

وقد تخطى تشريع المصانع نطاقه الأصلي في قانون المطابع (١٨٤٥) ويبدو في سطوره استياء رأس المال من هذا الإسراف، فهو يحدد يوم العمل للأطفال فيما بين ٨، ١٣ وللنساء إلى ١٦ ساعة فيما بين ٦ صباحا، ١٠ مساء بدون أي فترات قانونية لتناول الغداء،

---

(١) يعلم كل واحد منا كيف كان «أنصار حرية التجارة الانجليز غير راغبين في إلغاء الضريبة الجركية الحامية على الحرير المصنوع. ولكن عدم وجود الحماية للاطفال الانجليز الذين يعملون في المصانع يحقق غايتهم بدلا من الحماية ضد الواردات من فرنسا.

(٢) التقارير الخ ٣٠ أبريل ١٨٥٣ ص ٣١.

(٣) في عامي ١٨٥٩، ١٨٦٠ حيث بلغت الصناعة القطنية بانجلترا أوجها حاول بعض أرباب المصانع أن يغروا عمالهم على الرضاء بإطالة يوم العمل وذلك بأن لوحوا لهم بأجور عالية عن الوقت الذي يعملونه علاوة على المقرر. قرد المزالون وملاحظو الآلات قائلين «لنحدثكم بوضوح. ان حياتنا عبء واقع علينا وبينما نعمل في المعامل يومين تقريبا أكثر مما يعمل العمال الآخرون في البلد، فاننا نشعر أننا أشبه بالعبيد في الأرض وأننا نساعد على بقاء نظام ضار بأنفسنا والأجيال المقبلة ... وإنا لنرسل هذه المذكرة بكل احترام معلنين أننا سنشتغل ٦٠ ساعة فقط في الأسبوع ولا أكثر من هذا أو من السادسة إلى السادسة مع اعطائنا ساعة ونصف للراحة، وذلك من بعد عطلة عيد الميلاد ورأس السنة» .. التقارير الخ ٣٠ أبريل ١٨٦٠ ص ٣٠.

(٤) أما فيما يختص بأسلوب هذا القانون فما هيأ الفرصة لخرقه فعليك أن ترجع الى Factory Regulations Act. (٦ أغسطس ١٨٥٩) Leonard Horner's Suggestions for Amending the Factory Acts to enable the Inspectors to prevent Illegal Working now become very Prevalent.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وهو يسمح بتشغيل المذكور فوق سن ١٣ ليلا ونهاراً (١) ، وهذا القانون سفسطة برلمانية (٢) ومع ذلك فقد انتصر المبدأ فى تلك الصناعات الكبرى التى هى أبرز ما أنتجه الأسلوب الحديث فى الإنتاج ، وقد كان تقدمها السريع إلى جانب ارتفاع مستوى العمال الجثمانى والأدبى واضحاً لكل ذى عينين ، وحتى أرباب الأعمال الذين انتزعت منهم هذه القيود والتنظيمات تدريجاً خلال نصف قرن من الصراع الداخلى كانوا يشيرون إلى التناقض مع حالة الصناعات التى لازال الاستغلال فيها حراً(٣) والآن نجد دعاة الاقتصاد السياسى يعلنون أنهم أول من أدرك ضرورة تعيين يوم عمل قانونى وأن هذا كشف جديد تميز به علمهم (٤). ومن السهل أن نفهم أنه منذ أن خضع سادة المصانع لما لا بد منه ضعفت قوة رأس المال على المقاومة تدريجاً ، بينما زادت فى الوقت نفسه قوة هجوم الطبقة العاملة التى وجدت لها أنصاراً فى تلك الطبقات من المجتمع التى لا مصلحة لها مباشرة فى الموضوع . وهذا يفسر التقدم منذ سنة ١٨٦٠ إذا قيس بالحالة قبل ذلك .

وفى سنة ١٨٦٠ صارت مصانع الصباغة والتبييض فى دائرة قانون سنة ١٨٥٠ (٥) ، ثم

---

(١) « حدث حقيقة فى منطقة لنرانى أن استخدم أطفال من سن الثامنة وما فوقها من الساعة ٦ صباحا حتى ٩ مساء خلال النصف الأول من السنة » — التقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٥٧ ص ٣٩ .

(٢) « يعترف الجميع بفشل قانون مصانع الطباعة وذلك من حيث نصوصه الخاصة بالتعليم والحماية للعمال » التقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ٥٢ .

(٣) راجع مثلا خطاب E. Potter إلى صحيفة التيمس بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٦٣ . وقد ذكرته تلك الصحيفة بثورة أصحاب المصانع ضد مشروع قانون العشر ساعات .

(٤) راجع المستر و. نيومارش وهو المشرف على إصدار Tooke's Historg of Prices ومن ساهموا فيه — هل من القدم العلمى أن يتساهل الانسان إزاء الرأى العام تساهلا ينم عن الجبن ؟

(٥) نص قانون ١٨٦٠ الخاص بمصانع الصبغ والتبييض على أنه ابتداء من أول أغسطس ١٨٦١ يكون يوم العمل بصفة مؤقتة ١٢ ساعة ، ثم يخفض إلى ١٠ ساعات بصفة نهائية ابتداء من أول أغسطس سنة ١٨٦٢ على أن تكون المدة ٧ ١/٢ ١٠ ساعات فى أيام الأسبوع ، ٧ فى أيام السبت . ولكن لما حل عام ١٨٦٢ تكررت المهزلة القديمة فالتمس أصحاب المصانع من البرلمان أن يسمح لهم باستخدام الأحداث والنساء ١٢ ساعة لمدة سنة أخرى ، من مصلحة العمال إلى حد كبير فى الأحوال الحالية للتجارة (سنة ١٨٦٢ تميزت بالمجاعة القطنية) أن يشتغلوا ١٢ ساعة فى اليوم ويحصلوا على الأجور ما استطاعوا ذلك» . وقدم مشروع قانون بهذا المعنى ، ولكن صرف النظر عنه بسبب موقف عمال التبييض فى اسكتلندة ، (تقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ١٤ — ١٥) . إزاء هذا الرفض للقانون من جانب العمال الذين =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

صناعات الدنتلا والجوارب سنة ١٨٦١. وعلى أثر التقرير الأول للجنة بصدد تشغيل الأطفال (١٨٦٣) امتد سلطان القانون إلى صناعة الفخاريات بكافة أنواعها، وصناعات الكبريت، والخرطوش، والسجاجيد، وأنواع أخرى تدخل تحت عنوان الاعداد النهائي. وفي سنة ١٨٦٣ صدرت قوانين خاصة للتبييض في الهواء الطلق[1] وصناعة الخبز وحرم في حالة الأولى عمل

= أدعى أنه يدافع عن مصالحهم، إرتدى الرأسماليون ملابس رجال القانون واستطاعوا أن يكشفوا أن هذا القانون، شأنه كأي تشريع آخر ,, نهاية العمل ،، قد صيغ في عبارات غامضة قابلة للتأويل بحيث جعل في إمكانهم استبعاد بعض صنوف العمال (calenderers, Finishers) من نصوصه. وقد تأيد هذا التفسير في المحكمة Court of Common Pleas (إذ القضاء الانجليزي الخادم الأمين دائماً لرأس المال) ,, لقد شعر العمال بخيبة أمل إلى حد كبير ... وشكوا من الارهاق في العمل، وإنه لما يدنو إلى شديد الأسف ألا تتحقق هذه النية الطيبة من جانب السلطة التشريعية بسبب هذا التعريف الخاطيء ،، (تقرير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص١٨) .

(١) استطاع « open — air bleachers » التهرب من قانون ١٨٦٠ بتصريح كاذب بشأن عدم استخدام النساء في العمل الليلي في هذه الصناعة. وقد كشف المفتشون عن هذه الأكذوبة كما قدم العمال الالتماسات إلى البرلمان الذي تبين أن التبييض يجري في غرف تتراوح درجة حرارتها بين ٩٠° ، ١٠٠ فهرنهيت وأن معظم العمال تقوم به البنات. وانتقالهم من وقت لآخر من غرف التجفيف إلى الهواء الطلق يطلق عليه العبارة الدنية وهي ,, البريد ،، ... ,, ١٥ بنت في المواقد، الحرارة من ٨٠ إلى ٩٠ في حالة البياضات، ١٠٠° وما فوقها في حالة الأقمشة المعروفة باسم cambrics — ١٢ بنتاً يقمن بالكي في غرفة مساحتها ١٠ أقدام مربعة وفي وسطها موقد مغلق تقف حوله البنات وهو يشع حرارة شديدة يجفف الأقمشة بسرعة — ساعات العمل غير مقيدة فاذا كثر الشغل دام العمل حتى ٩ أو ١٢ ليلا لمدة ليال متتالية، (تقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٦٣ ص ٥٦) — ويقول موظف طبي ,, لا يسمح بوقت للتبريد، ولكن إذا ارتفعت درجة الحرارة كثيراً أو تلوثت أيدي العمال من العرق سمح لهم ببضع دقائق في الهواء الطلق ... إن خبرتي الكبيرة في معالجة أمراض عمال المواقد تضطرني إلى القول بأن الأحوال الصحية هنا دونها في مصنع للغزل ،، (وهذا يخالف ما قاله رأس المال حين صورها في ألوان زاهية) وأهم الأمراض بينهم النزلة الشعبية وعدم انتظام المسالك البولية والهستريا بأعنف أشكالها واعتقد أن معظمها راجع بصفة مباشرة أو غير مباشرة إلى الهواء الفاسد الشديد الحرارة في أماكن العمل وإلى نقص الكساء الذي يحمي العمال من الجو البارد الرطب في الشتاء حين يذهبون إلى بيوتهم ،، (شرحه ص ٥٦ — ٥٧) . ولاحظ المفتشون ما يأتي بصدد القانون الاضافي الصادر سنة ١٨٦٠ ,,لم يقف فشل القانون عند حد عدم كفالته حماية العمال بل إنه ليشمل مادة .... صيغت في ظاهرها بحيث أنه إذا لم يكشف الأفراد وهم يعملون بعد الساعة ٨ مساء فانه يبدو أن القانون لا يحميهم مطلقاً. وإذا كشف الأمر كان الدليل موضع الريب بحيث يندر انزال العقاب بالمذنب ،، (شرحه ص ٥٢) وأيضاً ,,لقد فشل هذا كقانون يرمي إلى أغراض خيرية أو تعليمية مادام يلغ به الأمر أن يجبر النساء والأطفال على العمل ١٤ ساعة في اليوم بدون تناول الطعام، وربما لمدة ساعات أطول من هذا العدد وذلك دون فرض أي قيود من حيث السن والجنس والعادات الاجتماعية للامرات المقيمة في المناطق المجاورة التي توجد بها بهذه المصانع (التبييض والصباغة) ،، تقارير الخ ٣٠ أبريل سنة ١٨٦٣ ص ٤٠.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأحدث والنساء ليلا (٨ مساء — ٦ صباحا) وفى الأخيرة استخدام الخبازين الذين يعملون باليومية دون ١٨ فيما بين ٩ مساء ، ٥ صباحا . وسنعود فيما بعد إلى الاقتراحات الأخرى التى تقدمت بها اللجنة للقضاء على الحرية التى تتمتع بها كل الفروع الهامة من الصناعة الانجليزية مع أستثناء الزراعة والمناجم ووسائل النقل(١).

(٧) (تابع) النضال فى سبيل يوم العمل العادى

رد الفعل الناتج عن قوانين المصانع الانجليزية فى البلاد الاخرى

يذكر القارىء أن إنتاج فائض القيمة أو استخلاص العمل الفائض هو هدف الإنتاج الرأسمالى وغايته وسداه ، مستقلا عن أية تغييرات فى أسلوب الانتاج قد تنشأ نتيجة لخضوع العمل لرأس المال : وطبقا لدراستنا للموضوع حتى الآن لن ينس القارىء كذلك أن العامل المستقل وحده أى العامل الذى يخوله القانون حق إدارة شؤونه هو الذى فى إمكانه بوصفه بائعاً لسلعة أن يتعاقد مع الرأسمالى . وعلى ذلك نرى فى عرضنا التاريخى أنه إذا كانت الصناعة الحديثة تلعب دوراً رئيسياً من جهة وكان عمل الأشخاص الصغار من الناحية الجثمانية ومن الوجهة القانونية يلعب دوراً رئيسياً من جهة أخرى ، فهذا لأن الأول كان بالنسبة إلينا مجالا خاصاً لاستخلاص فائض العمل بينما جىء بالأخير كمثال يوضح نفس العملية . وبدون أن نستبق المجرى التالى لبحثنا فى إمكاننا أن نستخلص نقطاً معينة من مجرد العلاقات المتداخلة للحقائق التاريخية التى درسناها .

فأولا نجد أن رغبة رأس المال الجامحة فى إطالة يوم العمل إلى غير حد معين أشبعت فى الصناعات التى تعرضت للانقلاب بواسطة القوة المائية والبخار والآلات الميكانيكية ، أى فى صناعات غزل ونسج القطن والصوف والكتان التى كانت أول ما خلقته طريقة الانتاج الحديثة . إن التغييرات فى طريقة الانتاج المادية وما يصحب ذلك من تغييرات فى العلاقات الاجتماعية القائمة بين المنتجين(٢). نقول إن هذه التغييرات تؤدى فى أول الأمر إلى تخطى كافة الحدود المعقولة ليوم العمل ، ثم تثير من ناحية مضادة حركة ترمى إلى فرض رقابة اجتماعية

---

(١) حاشية أضيفت الى الطبعة الثانية :— حديث رد فعل منذ سنة ١٨٦٦ حين كتبت الفقرات السالفة الذكر .

(٢) ,, ان سلوك كل من هاتين الطبقتين (الرأسماليون والعمال) كان نتيجة للموقف النسبى الذى وضعت فيه كل منهما . تقارير الخ ، ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ١١٣ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

غايتها تقييد ساعات العمل بالطرق القانونية ، وتنظيم يوم العمل وما يتخلله من فترات الراحة والاستجمام . وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر اتخذت هذه الرقابة شكل تشريع استثنائي بحت(١). وبمجرد أن تحكمت هذه الرقابة فى الميادين الأولية التى غلبت فيها الطريقة الجديدة فى الانتاج اتضح أن الأمر لم يقف عند حد اقتباس فروع كثيرة أخرى من الانتاج لنظام المصانع ، بل إن الصناعات اليدوية التى سادتها أساليب عتيقة إلى حد كثير أو قليل كمحال صنع الفخار والزجاج الخ ، والحرف اليدوية القديمة كعمل الخبز ، والصناعات المنزلية المتناثرة كعمل المسامير(٢) هذه كلها خضعت لسلطان الاستغلال الرأسمالى كما هو الشأن بالنسبة إلى المصانع . وبناء على هذا أخذ هذا التشريع الذى نحن بصدد البحث فيه يطرح عن نفسه تدريجاً صفة القوانين الاستثنائية ، واضطر إلى أن يعلن إبراء لذمته أن أى بيت يمارس فيه العمل الصناعى يعد مصنعاً(٣).

ومن جهة ثانية نرى أن تاريخ تنظيم يوم العمل فى فروع معينة من الانتاج ، والنضال فى تنفيذ التنظيم وهو النضال الناشب الآن فى فروع أخرى ، يثبتان بما لا يحتمل الجدل أن العامل المنعزل وهو الفرد الذى « له الحرية » فى بيع ما يملك من قوة عمل ، عاجز لدرجة اليأس عن مقاومة اعتداءات رأس المال حين يصل الانتاج الرأسمالى مرحلة معينة من النضوج والاستواء . فتقرير يوم عمل عادى عبارة عن حرب أهلية طويلة الأمد مستترة بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة . وبما أن هذا الصراع يبدأ فى ميدان الصناعة الحديثة لهذا تراه يبدو ظاهراً فى مهد تلك الصناعة أى فى انجلترا (٤). فعمال المصانع الانجليز كانوا أول من

---

(١) كانت المهن الخاضعة للتحديد من التى لها اتصال بصناعة المنسوجات بمساعدة قوة البخار أو الماء . وكان لابد من توفر شرطين لكى تخضع المهنة لهذا التقييد وهما استخدام قوة البخار او الماء ، وصناعة الياف مخصوصة معينة ،، تقارير الخ ٣١ اكتوبر ١٨٦٤ ص ٨ .

(٢) تحتوى احدث تقارير لجنة تشغيل الأطفال على معلومات قيمة للغاية بصدد الحالة التى عليها هذه الصناعات التى يطلق عليها اسم المنزلية .

(٣) تشمل قوانين الدورة الأخيرة (١٨٦٤) مجموعة متنوعة من المهن تختلف العادات فيها ، كما لم يعد فيها استخدام القوة الآلية شرطاً ضرورياً — كما كان الحال قبلا — لقيام المصنع بالمعنى القانونى ،، تقارير ٣١ اكتوبر ١٨٦٤ ص ٨ .

(٤) لا تجد أثراً لمثل هذه الحركة فى بلجيكا التى تعد جنة حركة الحرية فى القارة ، حتى فى مناجم الفحم والمعادن تجد العمال من كلا الجنسين ومن كافة الأعمال بلمتهم رأس المال ،،بحرية،، تامة لأية فترة من الزمن وفى أى وقت فى النهار أو الليل . ومن كل ١٠٠٠ شخص يستخدمون هناك تجد ٧٣٣ من الرجال ، ٨٨ من النساء ، ١٣٥ ولداً ، ٢٤ بنتاً دون سن السادسة عشرة . وفى أفران الصهر الخ تجد مقابل كل ١٠٠٠ رجل ١٤٩ امرأة ، ٩٨ ولداً ، ٨٥ بنتاً دون سن

نصب نفسه للدفاع لا عن العمال الإنجليز وحدهم فحسب ، بل عن الطبقة العاملة بوجه عام كما كان أرباب النظريات منهم أول من تحدى نظرية رأس المال(١) فيور — فيلسوف نظام المصانع — يحدثنا أن من العار الأبدى للطبقة العاملة الإنجليزية أنها نقشت على ألويتها هذه العبارة « عبودية قانون المصانع » بخلاف الرأسماليين الذين جاهدوا فى رجولة دفاعاً عن « حرية العمل التامة » (٢).

وتعثرت فرنسا ببط خلف انجلترا ، وكان لابد من ثورة سنة ١٨٤٨ لخلق قانون الساعات الإثنى عشرة الذى هو نسخة ضعيفة من الأصل الإنجليزى (٣) ومع هذا فهناك مزايا معينة للطريقة الفرنسية الثورية ، فهى تفرض نفس الحدود على يوم العمل فى جميع الورش والمصانع بلا تمييز ، بينما تخضع الهيئة التشريعية فى انجلترا على غير رضاء منها لضغط الظروف وتضل طريقها وسط هذه القرارات والقوانين المتناقضة(٤). ومن جهة أخرى يجعل القانون الفرنسى

= السادسة عشرة . أضف إلى هذا أن الأجور التى تدفع لقاء هذا الاستغلال المفرط لقوة عمل الأحداث والبالغين منخفضة إلى حد فظيع شائن. والمتوسط اليومى للرجل شلنان وثمانية بنسات، وللمرأة شلن وثمانية بنسات ، وللصغار شلن وبنسان ونصف البنس . وبمقابل هذا نجد أن بلجيكا فى سنة ١٨٦٣ قد ضاعفت مقدار وقيمة صادراتها من الفحم والحديد الخ بنسبة ما كان عليه الحال سنة ١٨٥٠ .

(١) بعد سنة ١٨١٠ بوقت وجيز لم يقف روبرت أون عند حد المطالبة بضرورة تقييد يوم العمل ، بل إنه أدخل فى مصنعه فى نيو لانارك يوم الساعات العشر . وقد تعرض عمله هذا للسخرية والضحك على أنه فكرة مثالية شيوعية لا يمكن تحقيقها ، وكذلك وجه نفس الانتقاد لما قام به من أربط تعليم الأطفال بالعمل الانتاجى ، ، وبجمعيات العمال التعاونية التى كان هو أول من بعثها إلى الوجود . واليوم صار أول هذه الآراء المثالية قانون المصانع ، والثانى أصبح عبارة رسمية فى جميع قوانين المصانع ، بينما تستخدم الثالثة كستر يخفى الأساليب الرجعية .

(٢) Ure, Philosophie des manufactures (ترجمة فرنسية) باريس ١٨٦٥ المجلد الثانى ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٧ ، ٧٧ الخ .

(٣) نقرأ الآتى فى تقرير مؤتمر الاحصاء الدولى المنعقد فى باريس سنة ١٨٥٥ ,, إن القانون الفرنسى الذى يقصر يوم العمل فى الصانع والورش على ١٢ ساعة لا يقصر هذا العمل لى ساعات محدودة وثابتة . انه يقتضى بأن يعلن عدم جواز استخدام الأطفال فيما بين الخامسة صباحاً والتاسعة مساء . ونتيجة لهذا يستغل بعض أصحاب المصانع هذا الاغفال اليوم من جانب القانون فيحملون عمالهم على العمل دون توقف إلا فى أيام الأحد . لهذا الغرض تجد لديهم مجموعتين من العمال يشتغلون بالتناوب بحيث لا يبقى فى المصنع فى الوقت الواحد من العمال أكثر من ١٢ ساعة ولكن العمل يستمر ليلا ونهاراً . إنهم ينفذون إرادة القانون ولكن ماذا عن الناحية الانسانية فى الأمر ! ،، وبغض النظر عن الأثر المدمر على الجهاز الانسانى نتيجة للعمل الليلى ،، فان التقرير يؤكد الاشارة إلى النتائج المدمرة المترتبة على اختلاط الجنسين ليلا فى ورش رديئة الاضاءة ،، .

(٤) ,, فنحن لا نجد بالجهة التى تدخل فى دائرة اختصاصى تاجراً صغيراً occupier فى نفس المكان

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مبدأ عاما مما كسبته انجلترا باسم الأطفال والأحداث والنساء ولم يعتبر حقاً عاماً إلا فى الأيام الأخيرة (١) .

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد كان وجود الرق كعنصر يشوه الجمهورية عاملا شل إمكان قيام أى نوع مستقل من الحركة العمالية . فالعامل الأبيض لا يستطيع التحرر مالم يحصل العامل الأسود على هذا الشىء ذاته . ولكن عندما دق ناقوس نعى الرق نشأت حياة جديدة قوية نشيطة . وقد كان من أولى ثمار الحرب الأهلية أن بدأ الهياج فى سبيل يوم ذى ثمانية ساعات — وهى الحركة التى انتقلت من المحيط الأطلسى إلى الهادى ، من نيوانجلند إلى كاليفورنيا ، وأعلن اتحاد العمال القومى المنعقد فى بلتيمور (١٦ أغسطس ١٨٦٦) ما يأتى : « إن الحاجة العظيمة الأولى لتحرير العمل فى هذه البلاد من الاسترقاق الرأسمالى هى إصدار قانون ينص على أن يكون يوم العمل العادى فى كافة ولايات الاتحاد الأمريكى ثمانية ساعات وإننا لمعتزمون أن نلقى بكل قوتنا حتى تتحقق هذه النتيجة المجيدة»(١) . وفى نفس الوقت قرر مؤتمر جنيف لاتحاد العمال الدولى وبناء على اقتراح المجلس العام « أن تقييد يوم العمل شرط أولى بدونه تصبح كافة المحاولات التالية للتحسين والتحرير عبثاً لا طائل تحته . . . ويقترح المؤتمر أن يكون الحد القانونى ليوم العمل ثمانية ساعات» .

= هو فى الوقت ذاته مبيض وصباغ يدخل تحت طائلة قانون مصانع التبييض والصباغة ، وطباعا تحت طائلة قانون محال الطباعة فيدخل فى دائرة قانون المصانع» ، المستر بيكر فى التقرير المؤرخ ٣١ أكتوبر سنة ١٨٦٠ ص ٣٠ . ويجد أن يسرد نصوص هذه القوانين والأشياء كل الحاجة عنها تراه يقول ومن هنا يظهر أنه لابد أن يكون من الصعب جدا تنفيذ تنفيذ هذه القوانين الثلاث التى أصدرها البرلمان حيث يختار هذا الشخص occupier التهرب من القانون » . وعلى كل فهناك شىء مضمون بالنسبة إلى المحامين ألا وهو كثرة القضايا .

(٢) وهكذا يجرؤ مفتشو المصانع على القول أخيراً « وهذه الاعتراضات (من جانب رأس المال على القيود التى يفرضها القانون على يوم) يجب أن تنهار إزاء المبدأ العام عن حقوق العمل ... هناك وقت لا يكون فيه ثمت وجود لحق رب العمل فى عمل العامل ، ويصبح عمله ملكا خاصاً به حتى ولو لم يكن فى الأمر إرهاق » المفتش المارير » الخ ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ٥٤ .

(٢) نصرح نحن عمال دنكرك أن طول وقت العمل وهو الأمر الذى يتطلبه النظام الحالى عظيم جداً ، فضلا عن أنه لا يدع للعامل وقتاً للراحة والتعليم ، فانه يرديه فى حالة من الاستعباد لا تزيد عن الرق إلا قليلا . وهذا هو السبب الذى من أجله نقرر أن ثمانية ساعات كافية لتكوين يوم عمل ، ويجب أن يعترف بها القانون ، وهذا هو السبب الذى من أجله ندعو قوة الصحافة لمساعدتنا .... والذى من أجله سنعد كل من يرفض تقديم هذه المساعدة إلينا أعداء لاصلاح العمل وحقوق العامل» . Resolution of the Workingmen of Dunkirk. ولاية نيويرك ١٨٦٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وهكذا نلقى على جانبى المحيط الأطلسى أن حركة الطبقة العاملة وهى الحركة التى نمت بصفة تلقائية من أحوال الإنتاج تؤيد ماذهب إليه مفتش المصانع ج . ج . سوندرز حيث قال : « لافائدة مطلقا من اتخاذ أى خطوات نحو إصلاح المجتمع بحيث يكون لها أى حظ من النجاح إن لم تقيد ساعات العمل وينفذ الحد الذى يتقرر تنفيذاً دقيقاً حازماً »(١).

وعلينا أن نعترف أن العامل يخرج من عملية الانتاج فى رداء يخالف ماكان عليه حين دخل هذه العملية . فعاملنا هذا دخل السوق بصفته مالك السلعة التى يقال لها « قوة العمل » وهناك يواجه أصحاب سلع أخرى ، فهو إذن مالك سلعة يقف إزاء مالك سلعة أخرى . والعقد الذى بمقتضاه باع قوته على العمل للرأسمالى يقرر أنه حر التصرف فى ذاته . ولكن إذ يتم العقد يكتشف أنه « ليس عاملا حراً » وأن الوقت الذى له الحرية أن يبيع خلاله قوة العمل إنما هو الوقت الذى يجبر فيه على بيعها (٢) ، وأن المخلوق الذى يمتص دمه لن « تنفك قبضته » مادام هناك عضل أو عصب أو قطرة من الدم يمكن استغلالها(٣) . ولكى يستطيع العمال حماية أنفسهم ضد هذا السوس الذى ينخر فى عظامهم يتعين عليهم التعاون ، ويجب عليهم كطبقة قائمة بذاتها أن يعملوا على صدور قانون أو إقامة حاجز اجتماعى قوى يمنع حتى العمال أنفسهم من الدخول فى تعاقد حر مع رأس المال حينما يحكم هذا العقد وشروطه عليهم وعلى جنسهم بالموت والاسترقاق(٤) وبدلا من العبارات الطنانة عن «حقوق الإنسان الثابتة»

---

(١) التقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٤٨ ص ١١٢ .

(٢) « قد أثبتت الاجراءات (أى مناورات رأس المال فيما بين ١٨٤٨ ، ١٨٥٠) بالأدلة التى لا تقبل النقض والنقاش خطأ القول بأن العمال ليسوا فى حاجة إلى الحماية وإنما قد ينظر إليهم على أنهم أحرار فى التصرف فى السلعة الوحيدة التى يملكونها ألا وهى عمل أيديهم وعرق جبينهم » التقارير الخ ٣٠ أبريل ١٨٥٠ ص ٤٥ . — إن العمل الحر (إن صحة هذه التسمية) حتى فى بلد حر يتطلب يد القانون القوية لحمايته » شرحه ٣١ أكتوبر ١٨٦٤ ص ٣٤ « للسباح وهو ما يقرب من الأوغام .. على العمل ١٤ ساعة فى اليوم مع تناول وجبات الطعام أو بدون ذلك » شرحه ٣٠ أبريل ١٨٦٣ ص ٤٠ .

(٣) Friedrich Engels, op. cit , p. 5.

(٤) فى كافة فروع الصناعة التى تدخل فى نطاق قانون العشر ساعات « قضت على الضعف المبكر الذى يصيب العمال الذين كانوا من قبل يشتغلون ساعات طوالا » . التقارير الخ ٣١ أكتوبر ١٨٥٩ ص ٤٧ « إن رأس المال (فى المصانع) لا يمكن استخدامه مطلقاً فى إدارة الآلات زيادة عن وقت محدود من غير أن يؤذى صحة وأخلاق العمال المستخدمين ، وهم ليسوا فى موقف يمكنهم من حماية أنفسهم » شرحه ص ٨ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عليهم أن يطالبوا بعهد أعظم متواضع وهو يوم عمل يحدد مداه القانون ، وهو العهد الذى يوضح فى النهاية «متى ينتهى الوقت الذى يبيعه العامل ومتى يبدأ وقته هو (١)» . يالله من تغيير فى الصورة ! .

---

(١) وثمت نعمة أعظم وهى التميز الذى وضح أخيراً بين وقت العامل الذى هو ملك له وذلك الذى هو ملك لرب العمل . فالعامل يعلم الآن متى ينتهى الوقت الذى يبيعه ومتى يبدأ الوقت الذى يخصه ، وهذه تمكنه من تنظيم دقائقه لأغراضه الخاصة » شرحه ص ٥٢ « وإذا أصبح العمال سادة لوقتهم ترى أن قوانين المصانع أكسبتهم نشاطاً أدبياً يوجههم نحو الاستحواذ على السلطة السياسية فيما بعد » شرحه ص ٤٧ . وبسخرية مستترة وعبارات تنم عن الحذر يشير مفتشو المصانع إلى أن قانون العشر ساعات القائم الآن يعمل على تحرير الرأسماليين من بعض وحشيتهم الطبيعية بصفتهم صوراً مجسمة لرأس المال ويهيىء لهم وقتاً لقدر قليل من « التثقف » . ففى الأيام السابقة « لم يكن لرب العمل وقت لأى شىء سوى الجرى وراء النقود ، ولم يكن لدى الخادم وقت لشىء سوى العمل » شرحه ص ٤٨ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل التاسع

معدل ومقدار فائض القيمة

سنتظار فى هذا الفصل إلى قيمة قوة العمل على أنها ثابتة ، ونقصد بها ذلك الجزء الضرورى من يوم العمل لتوالد قوة العمل والإبقاء عليها .

والمفروض أنه إذا عرفنا معدل فائض القيمة عرفنا مقدار فائض القيمة الذى ينتجه عامل فردى للرأسمالى فى فترة معلومة . فلو كان العمل الضرورى ٦ ساعات فى اليوم ويعادل مقداراً من الذهب قدره ٣ شلنات فمعنى هذا أن ٣ شلنات هى قيمة قوة العمل فى يوم أو أنها ذلك القدر من رأس المال الذى أنفق فى شراء قوة العمل فى يوم واحد . وإذا كان معدل فائض القيمة ١٠٠ ٪ ترتب على هذا أن رأس المال المتغير البالغ ٣ شلنات ينتج فائض قيمة مقداره ٣ شلنات أو أن العامل يقدم ست ساعات يومياً من العمل الفائض .

ورأس المال المتغير هو الصورة النقدية التى تعبر عن القيمة الكلية لكافة قوى العمل التى يستخدمها الرأسمالى فى وقت واحد . فقيمته إذن تساوى متوسط قيمة قوة عمل واحدة مضروبة فى عدد قوى العمل التى يستخدمها . ولهذا إذا كانت قيمة قوة العمل ثابتة فإن حجم رأس المال المتغير يتناسب تناسباً طردياً مع عدد العمال الذين يستخدمون فى نفس الوقت . فإذا كانت القيمة اليومية لقوة عمل واحدة ٣ شلنات فلا بد من إنفاق رأس مال قدره ١٥ ج (أو ٣٠٠ شلن) لكى يتسنى استغلال ١٠٠ قوة عمل كل يوم ، ويجب إنفاق ن × ٣ س لاستغلال (ن) من قوى العمل فى اليوم .

وبنفس الطريقة إذا كان رأس المال المتغير وقدره ٣ شلنات ينتج ٣ شلنات من فائض القيمة كل يوم ، تبع هذا أن ٣٠٠ شلن من رأس المال المتغير تنتج ٣٠٠ شلن من القيمة الفائضة كل يوم . وأن رأس المال المتغير البالغ ن × ٣ شلن ينتج قيمة فائضة مقدارها ن × ٣ شلن كل يوم . وعلى هذا يكون مقدار القيمة الفائضة المنتجة مساوياً لفائض القيمة الذى يغله العامل فى يوم العمل مضروباً فى عدد العمال . وعلاوة على هذا بما أنه فى حالة ثبات قيمة قوة العمل يعين معدل فائض القيمة مقدار القيمة الفائضة الذى ينتجه عامل فردى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فإنا نستخلص القانون الأول الآتى : إن مقدار القيمة الفائضة يساوى رأس المال المتغير المبذول مضروباً فى معدل فائض القيمة . وبعبارة أخرى إن هذا المقدار تعينه النسبة المركبة بين عدد قوات العمل التى يستغلها نفس الرأسمالى فى ذات الوقت وبين درجة استغلال كل قوة عمل فردية .

لنفرض أن مقدار فائض القيمة سـ ، وفائض القيمة الذى ينتجه العامل الفردى فى يوم متوسط س ، ورأس المال المتغير الذى أنفق فى شراء قوة عمل وا حدة ف والمجموع الكلى لرأس المال المتغير ى ، وقيمة متوسط قوة العمل ب . ودرجة الاستغلال

$$\frac{أ}{أ}\ (\text{أى}\ \frac{\text{العمل الفائض}}{\text{العمل الضرورى}})$$

وعدد العمال المستخدمين فى ذات الوقت ن . فهنا نحصل على الآتى : —

$$سـ = \left\{ \begin{array}{l} \frac{س}{ف} \times ف \\ \frac{أ}{أ} \times ب \times ن \end{array} \right.$$

ونحن نفترض فى هذا كله لاثبات قيمة قوة عمل متوسطة فحسب ، بل أن العمال الذين يستخدمهم الرأسمالى هم كذلك من العمال المتوسطين . وهناك حالات استثنائية لايزداد فيها مقدار فائض القيمة المنتج بنسبة الزيادة فى عدد العمال الذين هم موضع الاستغلال ، ولكن هذا يحدث فى حالة عدم بقاء قوة العمل ثابتة .

نستخلص من هذا أنه فى إنتاج مقدار محدود من القيمة الفائضة يمكن تعويض النقص فى أحد العوامل بالزيادة فى الآخر . فإذا نقص رأس المال المتغير وحدثت فى نفس الوقت زيادة متناسبة فى معدل فائض القيمة ، ترتب على ذلك عدم حدوث أى تغيير فى المقدار الكلى لفائض القيمة المنتج . فإذا كان الرأسمالى طبقاً للفروض السالفة الذكر ينفق ٣٠٠ شلن لكى يستغل ١٠٠ عامل يومياً ، وإذا كان معدل فائض القيمة ٥٠٪ ، إذن كان رأس المال المتغير هذا وقدره ٣٠٠ شلن يغل فائض قيمة قدره ١٥٠ شلنات أو قدره ١٠٠ × ٣ ساعات عمل . فإذا حدث الآن أن ضاعفنا معدل فائض القيمة بحيث أن يوم العمل لم يعد مكوناً من ٩ ساعات (٦ ساعات من العمل الضرورى + ٣ من الفائض) بل صار ١٢ (٦ ساعات من العمل الضرورى + ٦ من الفائض) بينما نقص فى نفس الوقت رأس المال المتغير بمقدار النصف (أى صار عدد العمال المستخدمين ٥٠ بدلا من ١٠٠) فإن رأس المال المتغير

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الذى اعتراه النقص وقدره ٥٠ × ٣ شلن = ١٥٠ شلناً يظل يغل رأس مال متغيراً قدره ١٥٠ شلناً أو فى هـذه الحالة رأس مال متغيراً قدره ٥٠ × ٦ ساعات عمل . فالخفض فى رأس المال المتغير يمكن بذلك تعويضه بزيادة متناسبة مع مقداره فى درجة استغلال قوة العمل ، أو بعبارة أخرى إن النقص فى عدد العمال المستخدمين يمكن تعويضه عن طريق إطالة يوم العمل بنفس النسبة . وعلى ذلك ففى حدود معينة يكون عرض العمل الذى يستغله رأس المال مستقلا عن عرض العمال[1] . ومن جهة أخرى فان هبوطاً فى معدل فائض القيمة لا يؤثر فى مبلغ القيمة الفائضة المنتجة الاجمالى إذا حدثت فى نفس الوقت زيادة مماثلة فى حجم رأس المال المتغير أو (بعبارة أخرى) فى عدد العمال الذين يستخدمون فى وقت واحد .

ومع هذا فهناك حدود لا يمكن تخطيها للتعويض بواسطة الزيادة فى معدل القيمة الفائضة عن الخفض فى عدد العمال المستخدمين فى نفس الوقت أو الخفض فى مبلغ رأس المال المتغير . فمهما كانت قيمة قوة العمل ، وسواء كان الوقت الذى يجب خلاله بذل قوة العمل للابقاء على العامل عبارة عن ساعتين أو ١٠ ساعات ، فان القيمة الكلية التى يستطيع عامل أن ينتجها يوماً بعد يوم دائماً أقل من مقدار القيمة الذى يتضمن ٢٤ ساعة عمل ، أى أقل من ١٢ شلن (إذا كان هـذا هو التعبير النقدى عن ٢٤ ساعة من وقت العمل المجسم) . إذا رجعنا إلى فرضنا السابق وهو أن ٦ ساعات عمل أمر لابد منه كل يوم لإعادة إنتاج قوة العمل أو لاحلال ما يوازى رأس المال المتغير الذى أنفق فى شراء قوة العمل ـ نقول إنه بناء على هذا الفرض إذا كان لدينا رأس مال متغير قدره ١٥٠٠ شلن يستخدم ٥٠٠ عامل بمعدل قيمة فائضة قدره ١٠٠ ٪ (ومعنى هذا وجود يوم عمل طوله ١٢ ساعة) فان رأس المال المتغير هذا ينتج يوماً بعد يوم قيمة فائضة تبلغ ١٥٠٠ شلن أو ٦ × ٥٠٠ ساعة عمل . ورأس مال قدره ٣٠٠ شلن ويستخدم ١٠٠ عامل يومياً بمعدل قيمة فائض مقداره ٢٠٠ ٪ أو يوم عمل طوله ١٨ ساعة ، ينتج فقط قيمة فائضة مبلغها ٦٠٠ شلن أو ١٢ × ١٠٠ ساعة عمل . فمنتجه القيمى الكلى أى المعادل لرأس المال المنفق مضافاً إليه فائض القيمة لا يمكن أن يصل أبداً مبلغ ١٢٠٠ شلن أو ٢٤ × ١٠٠ ساعة عمل . فهناك حد مطلق مفروض على يوم العمل المتوسط ذلك أن الطبيعة تفرض كون هذا اليوم أقل من ٢٤ ساعة . والنتيجة المترتبة على هذا أن هناك

---

(١) يبدو أن الاقتصاديين الدهماء لا يدرون شيئاً عن هـذا القانون . لحين يحدثوننا أن سعر سوق العمل يعينه العرض والطلب يعتقدون أنهم كشفوا أداة يستطيعون بفضلها إيقاف حركة العالم لا تحريكه كما فعل أرشميدس .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حداً مطلقاً للمدى الذى يمكن فيه التعويض عن خفض مبلغ رأس المال المتغير بزيادة معدل فائض القيمة أو (بعبارة أخرى) فى المدى الذى يمكن فيه التعويض عن إنقاص عدد العمال المستغلين بزيادة درجة إستغلال قوة العمل . وهذا القانون الثانى واضح وضوحاً ذاتياً . ومع هذا فله فائدته فى تفسير ظواهر معينة ناشئة عن ميل لرأس المال دائماً إلى إحداث أقصى خفض ممكن فى عدد العمال المستخدمين أو فى ذلك القدر المتغير من رأس المال الذى ينفق على شراء قوة العمل ؛ وهذا ميل يتعارض مع ذلك الاتجاه الدائم الآخر لرأس المال نحو إنتاج أكبر قدر ممكن من القيمة الفائضة . وبالعكس، برغم ازدياد عدد قوى العمل وبرغم الزيادة فى حجم رأس المال المتغير ، فاذا لم تكن هذه الزيادة متناسبة مع الهبوط الذى يفترض حدوثه فى معدل فائض القيمة ، هبط مقدار القيمة الفائضة التى يتم إنتاجها .

وفى امكاننا أن نستخلص قانوناً ثالثاً مما أوردناه بصدد تعيين مقدار فائض القيمة الذى يخلقه معدل فائض القيمة وحجم ما ينفق من رأس المال المتغير . فاذا علمنا معدل فائض القيمة أى درجة استغلال قوة العمل ، وعرفنا قيمة قوة العمل أى حجم وقت العمل الضرورى ، فمن الواضح أنه كلما كبر رأس المال المتغير كبر مقدار الناتج من القيمة ومن فائض القيمة . واذا عرفنا حد يوم العمل وحد الجزء الضرورى منه فان مقدار القيمة وفائض القيمة الذى ينتجه رأسمالى فردى يتوقف على كمية العمل التى يدفعها إلى الحركة . ولكن على أساس الفروض المعلومة يتوقف هذا على ما يستغله من كمية قوة العمل أو من عدد العمال ، وعدد العمال يتوقف بدوره على مبلغ ما ينفق من رأس المال المتغير . فاذا كان لدينا معدل معلوم من القيمة الفائضة وقيمة معلومة لقوة العمل ، فان مقدار فائض القيمة يتناسب تناسباً مباشراً مع مقدار رأس المال المتغير . حسناً ! اننا نعلم أن الرأسمالى يقسم رأس ماله قسمين ينفق أحدهما فى شراء أدوات الانتاج وهذا هو الجزء الثابت من رأس ماله ، وينفق جزءاً على شراء قوة العمل الحية وهذا هو القسم المتغير . وعلى نفس طريقة الانتاج نجد أنه فى الفروع المختلفة من الصناعة يختلف تقسيم رأس المال الى نسبتيه (الثابت والمتغير) وعلاوة على ذلك ففى نطاق نفس الفرع من الانتاج تتغير النسبة بين رأس المال الثابت ورأس المال المتغير تبعاً للتغييرات فى الأساس الفنى ، والرابطة الاجتماعية فى عملية الانتاج . ومع هذا فمهما كانت النسبة بين القسمين الثابت والمتغير وسواء كانت نسبة الأخير إلى الأول عبارة عن ١ : ٢ أو ١ : ١٠ أو ١ : س فان مفعول القانون الذى صغناه لا يتأثر لأنه ، كما يتضح من تحليلنا السابق ، ولو أن قيمة رأس المال الثابت تعود الى الظهور فى قيمة المنتج عموماً فإن قيمة رأس المال الثابت لا تدخل فى المنتج القيمى الذى أنتج حديثاً . بطبيعة الحال يتطلب

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

١٠٠٠ غزال مقداراً من القطن الخام والمغازل الخ أكبر مما يحتاجه ١٠٠ غزال . ولكن قيمة أدوات الانتاج الاضافية هذه قد تتغير حسبما نشاء ، وقد تزيد أو تنقص أو تظل بلا تغيير ، وقد تكون كبيرة أو صغيرة ـ ومع هذا فليس لهذا كله أثر على عملية خلق القيمة بواسطة قوى العمل التى تحرك أدوات الانتاج . وبناء على هذا يتخذ القانون الذى ندرسه الشكل التالى : إذا ظلت قيمة العمل ودرجة استغلال قوة العمل ثابتتين فان مقدارى القيمة وفائض القيمة اللذين تنتجهما مجموعات مختلفة من رأس المال يتناسبان تناسباً مباشراً مع أحجام العناصر المتغيرة فى هذه المجموعات المختلفة ، وبعبارة أخرى مع مقدار كل عنصر يتحول إلى قوة عمل حية .

وهذا القانون يتعارض مع كافة التجارب القائمة على ظواهر الأشياء . فكل منا يعلم أن غزال القطن الذى يملك مقداراً كبيراً نسبياً من رأس المال الثابت ومقداراً صغيراً نسبياً من رأس المال المتغير لا يحصل من الربح أو فائض القيمة على مبلغ أقل مما يحصل عليه الخباز الذى يوظف مقداراً صغيراً نسبياً من رأس المال الثابت ومقداراً كبيراً نسبياً من رأس المال المتغير . ولكى يتسنى لنا حل هذا التناقض الظاهرى نحتاج إلى عدد كبير من العبارات الوسطى كما هو الشأن بالنسبة إلى الطالب الذى يدرس علم الجبر قبل أن يفهم أن $\frac{\text{صفر}}{\text{صفر}}$ يمكن أن يمثل حجما حقيقياً . وبرغم أن الاقتصاديين الكلاسيك لم يصوغوا هذا القانون إلا أن غريزتهم كانت تقنعهم بصدقه لأنه نتيجة لازمة مترتبة على قانون القيمة العام . وقد حاولوا بواسطة عملية عنيفة من التجريد abstraction أن يهربوا من التناقض بين القانون والحقائق الظاهرة ، وسنرى فيما بعد كيف تحطم كتاب مدرسة ريكاردو على هذه العقبة الكؤود . أما الاقتصاديون الدهماء العاجزون عن التعليم فانهم يقنعون بالظواهر ويتجاهلون القانون الذى ينظمها ويفسرها . وهم يعتقدون (بخلاف سبينوزا) أن « الجهل سبب كاف » .

إن العمل الذى يحركه مجموع رأس مال فى أى مجتمع من يوم إلى يوم يمكن النظر اليه على أنه يوم عمل كلى . ولنفرض مثلا وجود مليون عامل وأن متوسط يوم العمل ١٠ ساعات فاذن يكون يوم العمل الاجتماعى الكلى ١٠ ملايين ساعة . فاذا كان طول يوم العمل هذا ثابتاً (بغض النظر عن كون الحدود المفروضة مرجعها الاعتبارات المادية أو الاجتماعية) فان مقدار فائض القيمة لا يمكن زيادته إلا بواسطة زيادة عدد العمال أى بزيادة الفريق العامل من السكان . وعلى هذا يكون نمو السكان هو الحد الرياضى لإنتاج فائض القيمة بواسطة المجموع الاجتماعى لرأس المال . وبالعكس إذا اعتبرنا حجم السكان ثابتاً فان الذى يكوّن هذا

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الحد هو إمكان إطالة يوم العمل(١) . وسنرى فى الفصل التالى أن هـذا القانون صحيح فقط بالنسبة إلى ذلك الشكل من القيمة الفائضة الذى درسناه حتى الآن .

علمنا من دراستنا السابقة لإنتاج فائض القيمة أن ليس كل مبلغ من النقود أو القيمة قابلاً للتحول إلى رأس مال ، وأنه قبل إمكان إحداث هذا التحول لا بد من وجود حـد أدنى محدود من النقود أو القيمة التبادلية فى أيدى المالك الفردى للنقود أو السلع . والحد الأدنى من رأس المال المتغير هو ثمن التكلفة لقوة عمل فردية تستخدم خلال سنة بأكملها يوما بعد يوم حتى يتسنى الحصول من ذلك على فائض قيمة . فاذا كان هذا العامل نفسه صاحب أدوات الإنتاج التى يشتغل بها ، وإذا كان قانعاً بالعيش كعامل ، لرأى (وهـذا فرض) أن بذل قوة عمل ضرورية خلال ٨ ساعات يومياً يكفى لإعادة إنتاج وسائل عيشه ، وعلى ذلك يحتـاج فقط إلى أدوات الإنتاج اللازمة لعمل يومى مدى ثمانية ساعات . ولـكن الرأسمـالى الذى يطلب من العمال ٤ ساعات (فرضاً) من العمل الفائض بالإضافة إلى الثمانية ساعات من العمل الضرورى ، يحتاج مبلغاً إضافياً من النقود لشراء أدوات الانتاج الإضافيـة . وعلى أساس فروضنا إذا شاء أن يعيش حسب مستوى حياة العامل ، وإذا استطاع إشباع مطالبه الأولية فسيكون عليه أن يبدأ باستخدام عاملين لغرض واحد هو الحصول على قدر كاف من القيمة الفائضة يومياً لمواجهة هذا الطلب . فلو كان هذا كل ما فى الأمر ، لـكان الهدف الذى يرمى اليه من وراء الانتاج ضمان معيشته فى حد الـكفاف ، ولمـا كانت غايته أية زيادة فى الثروة كما يُفترض حين نعالج الانتاج الرأسمالى . فاذا كان عليه أن يعيش فى صف مستوى العامل العادى وأن يحول من جديد نصف فائض القيمة الذى يحصل عليه إلى رأس مال ، لكان لزاما عليه أن يستخدم ثمانية أمثال الحد الأدنى من وحدات رأس المال المتغير أى يستخدم ثمانية عمال . ويستطيع بالطبع كأى عامل فى المهنة أن يشتغل بيده ، ولـكنه إذا فعل ذلك لما كان رأسمالياً بالمعنى الحقيق ، ولن يزد عن كونه « رب عمل صغير » وهو مرحـــلة وسطى بين العامل والرأسمالى . وعند بلوغ مرحلة معينة من الانتاج الرأسمالى سيصبح من الضرورى أن يكرس الرأسمالى جميع الوقت الذى يؤدى فيه وظيفته بصفته رأسمالياً (أى الصورة التى يتمثل فيها رأس المال بعبارة أخرى) لامتـــلاك عمل الغير والسيطرة عليه وبيع منتجات هذا

---

(١) إن العمل أى الوقت الاقتصادى للمجتمع عبارة عن جزء معلوم . . وليكن ذلك عشر ساعات فى اليوم لمليون من الناس أو عشرة ملايين ساعة . . وهناك حد لازدياد رأس المال . ويمكن فى فترة معلومة بلوغ هذا الحد فى المدى الفعلى للوقت الاقتصادى المستخدم ،، An Essay on the Political Economy of Nations, London, 1821, p.p. 74 and 49.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العمل(١). ولذلك حاولت نقابات المهن فى العصور الوسطى بوسائل قهرية أن تمنع تحول رجال النقابة الى رأسماليين ، ففرضوا حدوداً ضيقة جداً على عدد العمال الذين يستطيع المعلم الواحد استخدامهم . فمالك النقود أو السلع لا يتحول الى رأسمالى حقيقى إلا إذا كان الحد الأدنى من المبلغ الذى يقدمه للانتاج يزيد كثيراً على الحد الأعلى المعروف فى العصور الوسطى . وهنا كما فى العلوم الطبيعية ، نرى تأييد القانون الذى كشفه هيجل فى كتابه ,,المنطق،، وهو أنه عند بلوغ درجة معينة تصبح ما كانت تغييرات كمية بحتة تغييرات من حيث الكيف(٢) .

إن أدنى مقدار من القيمة يجب على المالك الفردى للنقود أو السلع أن يملكه قبل أن يصير رأسمالياً ، يتغير فى المراحل المختلفة من تطور الانتاج الرأسمالى ، ويتغير عند بلوغ مرحلة معلومة ـ فى فروع مختلفة من الانتاج طبقاً لا ختلاف المطالب الفنية الخاصة . فبعض فروع أو مجالى الانتاج الرأسمالى تتطلب حتى فى أوائل أيام الانتاج الرأسمالى ، حداً أدنى من رأس المال يزيد عما يوجد فى أيدى فرد واحد . وعلى ذلك يحدث أحيانا فى مثل هذه الحالات أن تقدم الاعانات من الدولة للأفراد كما حدث بفرنسا أيام كولبير وكما يحدث اليوم فى كثير من الولايات الألمانية . وأحياناً يؤدى موقف من هذا النوع إلى تكوين شركات يمنحها القانون احتكارا فى ممارسة بعض فروع الصناعة والتجارة(٣) وهذه هى الشركات

---

(١) لايستطيع الفلاح الاعتماد على عمله ، ولو فعل ذلك لكان هو الخاسر . فيجب أن يكون عمله عبارة عن توجيه الاهتمام إلى الكل ، فعليه أن يراقب الدارس وإلى فقد أجره من القمح غير المدروس ، ويجب ملاحظة الحاصدين الخ ، ويجب أن يدور باستمرار حول الأسيجة ، وأن يستوثق من عدم وجود إهمال وهو الأمر الذى يحدث إذا اكتفى بيقعة واحده ،، .

An Inquiry into the Connexion between the Prices of Provision and the Size of Farms & etc, by a Farmer.

لندن ١٧٧٣ ص١٢ . وهذا المؤلف هام وطريف جداً إذ فيه تدرس طبيعة وتكوين ,,المزارع الرأسمالى،، أو المزارع التاجر كما يطلق عليه ، ولا التمجيد الذاتى بخلاف ,,الفلاح الصغير،، وهو الرجل الذى يقوم فى الغالب بانتاج حد الكفاف من العيش ,,إن طبقة الرأسماليين يصبح جانب منها فى أول الأمر ثم كلها فى النهاية معفاة من ضرورة أداء العمل الدورى،، . Textbook of Lectures on the Political Economy of Nations. by the Rev. Richard Jones, Hertford, 1852, Lecture III, p. 39,

(٢) إن نظرية الذرة فى علم الكيمياء الحديث والذى صاغه لأول مرة لوران وجرهاردت بصورة علمية لايرتكز على قانون خلاف هذا .

(٣) يتحدث مارتن لوتر على أمثال هذه المنشآت باسم ,, شركات الاحتكار ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ذات الامتيازات والتى تعد مقدمة للشركات المساهمة الحديثة .

لن أعرض بالتفصيل لما وقع خلال عملية الانتاج من التغييرات فى العلاقات بين الرأسمالى والعامل الأجير ، ولن أسهب هنا فى بيان تطور رأس المال إذ يكفى أن نذكر قليلا من النقط الهامة الرئيسية .

فى نطاق عملية الإنتاج حصل رأس المال على السيطرة على العمل ، أى على قوة العمل وهى فى حالة العمل ، ومعنى هـذا السيطرة على العامل . ويعنى الرأسمالى ، أى الصورة التى يتمثل فيها رأس المال ، بأن يجعل العامل يؤدى عمله على الوجه الأكمل وبنفس القدر المطلوب من حدة العمل .

وأكثر من هذا لقد تحول رأس المال إلى علاقة قاهرة للقمع ترغم العامل على أن يشتغل أكثر مما تتطلب حاجياته الحيوية . فالرأسمالية بصفتها باعثة على النشاط فى الغير وممتصة للقيمة الفائضة ومستغلة لقوة العمل ، تفوق من حيث نشاطها وقسوتها وكفايتها كافة النظم السابقة فى الإنتاج ، تلك النظم التى كانت ترتكز على العمل الإرغامى الشاق .

ونبـدأ فنقول إن رأس المال يخضع العمل للأحوال الفنية الموجودة فى العصر التاريخى الذى يحدث فيه الغزو ، وهو لايسبب تغييراً سريعا مباشراً فى طريقة الإنتاج . وعلى ذلك فإن إنتاج القيمة الفائضة بالشكل الذى درسناه حتى الآن أى بمجرد إطالة يوم العمل ، يبدو مستقلا عن أى تغيير فى طريقة الإنتاج . إن أثره فى المخابز العتيقة ليس أقل منه فى معامل الغزل الحديثة .

حين نتأمل عملية الإنتاج على أنها مجرد عملية عمل ، فإن علاقة العامل بأدوات الإنتاج ليست علاقة بها بصفتها رأس مال ، بل هى علاقة بها بوصفها أدوات ومادة أولية تخدم نشاطه الإنتاجى ذى الهدف المحدود . فى المدبغة مثلا لاتعدو الجلود التى يدبغها أن تكون المادة التى يقـوم بأداء عمله عليها . إنه لايدبغ جلد الرأسمالى ! ولـكن يختلف الموقف بمجرد أن نتأمل عملية الإنتاج على أنها أداة لتنمية التوسع الذاتى لرأس المال أى كأداة لخلق فائض القيمة ، إذ الآن تتحول أدوات الإنتاج فى لمح البصر إلى أدوات لامتصاص عمل الآخرين ، وبدلا من أن يكون العامل هو الذى يستخدم أدوات الإنتاج فإن الأخيرة هى التى تستخدم العامل ، وبدلا من أن يستهلكها بوصفها العناصر المادية لنشاطه الإنتاجى فإنها تستهلكه بوصفه خميرة عمليتها الحيوية ؛ وعملية رأس المال فى حياته لاتزيد عن كونها حركته كقيمة تزداد بنفسها . فأفران الصهر ومبانى المصنع حين تستريح بالليل وبذلك لاتمتص العمل الحى تصير «مجرد خسارة»

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

على الرأسمالى . وهذا هو السبب الذى من أجله تدعى أفران الصهر ومبانى المصنع الحق فى العمل الليلى لقوة العمل . إن مجرد تغير النقود إلى عوامل مادية لعملية الانتاج وإلى أدوات إنتاج ، يحول الأخيرة إلى شىء ذى حق فى عمل وفائض عمل الآخرين . ولأضرب مثلا آخر لنرى منه كيف أن هذه السفسطة الخاصة بالانتاج الرأسمالى والمميزة له ، وكيف ان هذا القلب للعلاقة بين العمل الميت والعمل الحى وبين القيمة والقوة التى تخلق القيمة تنعكس فى مرآة العقل الرأسمالى . خلال ثورة أصحاب المصانع الانجليزية فيما بين ١٨٤٨ ، ١٨٥٠ نجد ان رئيس بيت من أقدم وأفضل البيوت قدراً فى غرب اسكتلنده وهم السادة كارليل وأولاده وشركاه أصحاب مصنع خيوط الكتان والقطن فى بيزلى وهى شركة مضى على وجودها حوالى قرن وكانت تعمل فى سنة ١٧٥٢ وأدارت شئونها أجيال أربعة من نفس الأسرة — نقول إن رئيس هذا البيت وهو سيد ذكى ، كتب خطاباً إلى صحيفة جلاسجو ديلى ميل فى (٢٥ ابريل سنة ١٨٤٩) بعنوان « نظام المناوبة » . نقتطف منه ما يدل على البساطة « ولنبحث الآن ... الشرور الملازمة لقصر العمل بالمصنع على عشر ساعات ... إنها تؤدى إلى أخطر الخسارة بالنسبة إلى آمال صاحب المصنع وأملاكه ، فإذا كان » (يحسن أن تقرأها « عماله ») يشتغل ١٢ ساعة قبلا وحدد له عشر فمعنى هذا أن كل ١٢ آلة أو مغزل فى منشأته تنقص إلى ١٠ وإذا أراد بيع المصنع لقدرت قيمته على أساس ١٠ بحيث يخصم السدس من قيمة كل معمل فى البلاد [١] .

إنك لتجد وجهات النظر الرأسمالية مغروسة فى عقل هذا الرجل الذى ظل أسلافه رأسماليين فى غرب اسكتلنده أجيالا كثيرة . ففى نظره قيمة أدوات الإنتاج كالمغازل وما إليها عبارة عن صفتها كرأس مال تمكنها من زيادة قيمتها ذاتها وابتلاع مقدار محدود كل يوم من عمل الآخرين الذى لا مقابل له ، ولهذا يخدع رئيس شركة كارليل وأولاده وشركاؤه فيظن أنه حين يبيع معمله فلن يدفع له قيمة المغازل أى العمل المجسم فيها واللازم لإنتاج مغازل من نفس النوع فحسب بل إنه مضافاً إلى هذا يدفع له ثمن العمل الفائض الذى يساعده يومياً على امتصاصه من عمال بيزلى الأسكتلنديين . وهذا هو السبب الذى من أجله يتخيل أن ثمن بيع ١٢ آلة غزل سيهبط إلى ثمن بيع ١٠ حينما ينقص يوم العمل بمقدار ساعتين !

---

(١) تقارير مفتشى المصانع ، ٣٠ أبريل ١٨٤٩ ص ٥٩ — ٦٠ . ومفتش المصانع ستيوارت الاسكتلندى (ويختلف فى هذا الصدد عن مفتشى المصانع الانجليز) والواقع تحت سلطان طرائق التفكير الرأسمالية يلاحظ على هذا الخطاب الذى يورده فى تقريره أنه أنفع رسالة قدمها أحد أصحاب المصانع التى تشتغل بنظام التناوب إلى زملائه فى نفس الصناعة وهو كفيل بأن يزيل الآراء السيئة التى يشعر بها البعض من جراء أى تغيير فى ترتيب ساعات العمل » .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الباب الرابع

إنتاج فائض القيمة النسبي

الفصل العاشر

نظرية فائض القيمة النسبي

إن جزء يوم العمل الذى يتم فيه إنتاج معادل لقيمة ما يبذل خلاله من قوة العمل وهى القيمة التى يدفعها الرأسمالى ـ نقول إننا عالجنا ذلك الجزء حتى الآن على أنه حجم ثابت ، وهو ثابت حقاً فى ظل ظروف إنتاج معلومة وفى مرحلة اقتصادية معينة من مراحل التطور الاجتماعى . قد يشتغل العامل كل يوم ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ أو أكثر من الساعات زيادة عن وقت العمل الضرورى هذا . وكان معدل فائض القيمة وطول يوم العمل يتوقفان على مدى هذه الإطالة فبينما ظل وقت العمل الضرورى ثابتاً كان طول يوم العمل على وجه العموم متغيراً . لنفرض يوم عمل نعلم طوله وتقسيمه إلى عمل ضرورى وآخر فائض ، وليكن الخط ا حـ أو ا ـــ ب ـــ حـ يمثل يوم عمل طوله ١٢ ساعة يمثل فيه الجزء ا ب العمل الضرورى وقدره ١٠ ساعات والجزء ب حـ عبارة عن فائض العمل ومداه ساعتان . هنا يتبادر إلى الذهن السؤال عن الكيفية التى يتسنى بواسطتها إنتاج فائض القيمة أى طريقة إطالة فترة فائض العمل بدون إطالة يوم العمل كله ا حـ .

برغم ثبات ا حـ فان ب حـ قابل للامتداد إذ بينما لا يمكن (فرضاً) مده بعد حـ وهى النهاية ليوم العمل ا حـ فان فى الإمكان مده فى الاتجاه العكسى أى بارجاع نقطة ابتدائه ب ناحية ا . لنفرض أن بَ ب فى الخط ا ـــ بَ ـ ب ـــ حـ نصف ب حـ ويمثل ساعة عمل واحدة ، فغاية ما حصل فى يوم العمل ا حـ ذى الاثنى عشرة ساعة أننا دفعنا النقطة ب إلى بَ ، وهنا برغم بقاء يوم العمل ثابتاً أى ١٢ ساعة كما كان قبلا فاننا مددنا ب حـ ليصبح بَ حـ وبذا زاد فائض العمل بمقدار النصف أى من ساعتين إلى ثلاث ساعات . ومن

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الواضح أن هذا الامتداد مستحيل إلا إذا صحبه خفض فى طول فترة العمل الضرورى من ا ب إلى ا ب أى من ١٠ إلى ٩ ساعات . ومعنى هذا أن الجزء الذى اشتغل فيه العامل لنفسه قد تحول إلى وقت عمل يشتغل فيه لصاحب رأس المال . فكأن الذى تغير ليس الطول الكلى ليوم العمل وإنما تقسيمه إلى عمل ضرورى وعمل فائض .

ويتضح من جهة أخرى أنه إذا علمنا طول يوم العمل وقيمة قوة العمل علمنا كذلك طول فترة العمل الفائض . وقيمة قوة العمل تعين مقدار وقت العمل اللازم لإنتاجها من جديد . فلو كانت ٦ بنسات تمثل صورة ساعة عمل واحدة ، وإذا كانت قيمة قوة العمل فى يوم واحد ٥ شلنات ، تعين على العامل أن يشتغل ١٠ ساعات يومياً حتى ينتج بديل القيمة التى يدفعها له الرأسمالى مقابل قوة العمل ، أو بمعنى آخر حتى ينتج المعادل لوسائل العيش الضرورية له كل يوم . فاذا علمنا قيمة مايحتاج من وسائل العيش أمكن أن نعرف قيمة قوته على العمل(١) . وإذا كانت لدينا قيمة قوته على العمل أمكننا معرفة وقت عمله الضرورى.

والآن يمكن التحقق من مدى فترة فائض العمل بطرح وقت العمل الضرورى من يوم العمل كله . خذ ١٠ ساعات من ١٢ ساعة يتبقى ساعتان . وليس من السهل أن نرى كيف يمكن فى ظل الظروف المعلومة أن نجعل فائض العمل يزيد عن ساعتين . ولا ريب أن الرأسمالى قد يدفع للعامل ٤ شلنات ونصف أو ربما أقل من ذلك بدلا من خمس . ولإعادة إنتاج قيمة الـ ٤ شلنات تكفى ٩ ساعات عمل ، وحينئذ تخصص من الساعات الإثنى عشرة ثلاث ساعات لفائض العمل بدلا من ساعتين ، ويزداد فائض القيمة من شلن إلى شلن ونصف . ولكن لا سبيل إلى إدراك هذه النتيجة إلا بخفض أجر العامل إلى ما دون قيمة قوته على العمل ، فبالشلنات الأربع ونصف التى ينتجها فى ٩ ساعات لا يستطيع التسلط إلا

---

(١) يتحدد متوسط الأجر اليومى بما يحتاج إليه العامل ,,كى يعيش ويعمل ويتوالد،، William Petty, Political Anatomy of Ireland, 1072, p. 64. ,, يتكون ثمن العمل من ثمن الضروريات ... حينما ... لاتكفى أجور الرجل العامل ، المناسبة لمركزه ومنزلته كعامل ، لاعالة مثل هذه الأسرة كما هو نصيب الكثيرين منهم،، فانه لايحصل على الأجر الملائم الصحيح . ,, إن العامل العادى J, Vanderlint op. cit., p. 15, الذى لايملك سوى ذراعيه وجهده لايكون لديه شىء حتى يبيع عمله للآخرين ... وفيما يختص بكل نوع من العمل فما يجب أن يحصل كما يحصل فعلا هو أن أجر العامل محدود بما هو ضرورى حتى يحصل على ما يكفى عيشه ،،

Turgot, Reflexions, etc., in Daire's edition vol. 1., p. 10.

,, إن ثمن ضروريات الحياة عبارة فى الحقيقة عن نفقة إنتاج العمل،، Malthus, Inquiry into the Nature. and Progress of Rent, London, 1815, p. 48, note,

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

على ما هو مقدار وسائل العيش التى كان يتسلط عليها من قبل . وبذا تتأثر إعادة إنتاج ما يملك من قوة العمل تأثيراً سيئاً . فى هذه الحالة تمت إطالة فائض العمل عن طريق تجاوزه حدوده العادية ، وحدث توسيع نطاقه بمجرد اغتصاب جانب من ميدان العمل الضرورى . وبرغم ما لهذا الدور من أهمية فى الحركة الفعلية للأجور فاننا نستبعدها هنا نظراً لأننا سبق أن فرضنا أن السلع التى نعنى بأمرها بما فيها قوة العمل وغيرها تشترى وتباع حسب قيمتها الحقيقية . فاذا كان هذا أحد فروضنا الأولية صار من غير الممكن إنقاص وقت العمل اللازم لإنتاج قوة العمل أو لإعادة إنتاج قيمتها عن طريق خفض الأجور إلى ما دون قيمة قوة العمل ، وإنما يتم ذلك النقص حين تهبط قيمة قوة العمل ذاتها . ففى حالة يوم ذى طول معلوم ينبغى أن تكون إطالة فائض العمل نتيجة تقليل وقت العمل الضرورى على أن لا يترتب الأمر الأخير على إطالة فائض العمل . ففى المثال الذى ضربناه ينبغى أن تهبط حقيقة قوة العمل بمقدار العشر إذا أريد خفض وقت العمل الضرورى بمقدار العشر أى من ١٠ ساعات إلى تسع حتى يمكن زيادة فائض العمل من ساعتين إلى ثلاث .

مثل هذا الخفض بمقدار العشر فى قيمة قوة العمل معناه بدوره أن كمية وسائل العيش التى كان يتم إنتاجها من قبل فى عشر ساعات يمكن الآن إنتاجها فى تسع ساعات . وهذا الأمر مستحيل إلا إذا حدثت زيادة فى إنتاجية العمل . ففى استطاعة صانع الأحذية بأدوات معلومة أن يصنع زوجاً فى يوم عمل طوله ١٢ ساعة ، فاذا تعين عليه أن يصنع زوجين فى نفس الوقت لزم أن تتضاعف انتاجية عمله ، وهذه الانتاجية لا يمكن مضاعفتها دون حدوث تغيير فى أدوات العمل أو أساليبه أو كلا الاثنين ، أى لا بد أن انقلاباً قد طرأ على أحوال الانتاج وطريقته وعملية العمل . فحين نتحدث هنا عن زيادة انتاجية العمل فانا نقصد تغييراً فى عملية العمل التى يمكن بواسطتها تقليل وقت العمل اللازم فى ظل أحوال اجتماعية معلومة لإنتاج سلعة بحيث أن نفس المقدار من القيمة الاستعمالية يتم انتاجه بقدر أقل من العمل ، أو أن مقداراً أكبر من القيمة الاستعمالية بواسطة نفس العمل [١] وخلال بحثنا انتاج فائض القيمة فرضنا حتى الآن عدم تغير طريقة الانتاج ، ولكن اذا كان انتاج فائض القيمة سيتم بتحويل العمل الضرورى إلى عمل فائض فان يكف رأس المال أن يتحكم فى عملية العمل بشكلها

---

(١) «حين تصل الأساليب إلى حد الاتقان ومعنى هذا كشف طرق جديدة يمكن بها القيام بالصناعة بواسطة عدد أقل من العمال أو فى وقت أقل من ذى قبل .....» Galiani, op. cit., p. 156. يمكن الاقتصاد فى نفقة الانتاج بتوفير مقدار العمل الذى استخدم للانتاج» Sismondi, Etudes, etc, vol. 1, p. 22,

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التقليدى أو البالى و بمجرد زيادة مدى فترة هذه العملية . فيجب على رأس المال أن يحدث ثورة فى الأحوال الفنية والاجتماعية لعملية العمل بل وفى عملية العمل ذاتها قبل إمكان زيادة إنتاجية العمل ، وبهذا فقط يمكن خفض قيمة العمل . وبهذا فقط يمكن تقصير جزء يوم العمل اللازم لإعادة إنتاج هذه القيمة . وإنى أطلق عبارة فائض القيمة المطلق على فائض القيمة الناتج عن إطالة يوم العمل . ومن جهة أخرى أطلق فائض القيمة النسبى على فائض القيمة الذى يترتب على خفض وقت العمل الضرورى وعلى تغيير مماثل فى النسبة بين جزئى يوم العمل .

إذا كانت الزيادة فى إنتاجية العمل تهبط بقيمة قوة العمل فيجب أن تقع الزيادة في تلك الفروع من الصناعة التى تعين منتجاتها قيمة قوة العمل - وهى المنتجات التى تكون جزءاً من وسائل العيش العادية أو قادرة على الحلول محل وسائل العيش ذات الاستعمال العادى . ولكن قيمة السلعة تعينها لا كمية العمل التى تكسبها شكلها النهائى فحسب ، ولكن تعينها كذلك كمية العمل التى تتضمنها أدوات الانتاج . ومثال ذلك أن قيمة الزوج من الأحذية لا يعينها عمل صانع الأحذية فقط بل تعينها كذلك قيمة الجلد والفراء والخيط الخ من الأشياء المستعملة فى صنع الحذاء . ولهذا السبب فان الزيادة فى الإنتاجية وما يترتب عليها من رخص المنتجات فى تلك الفروع من الصناعة وهى الفروع التى تهيء العناصر المادية من رأس المال الثابت اللازمة لإنتاج ضروريات الحياة - هذا كله يؤدى كذلك إلى خفض قيمة قوة العمل . ومن جهة أخرى لا تتأثر قيمة قوة العمل بالزيادة فى الإنتاجية فى الفروع التى لا علاقة لها بانتاج ضروريات الحياة أو إنتاج أدوات إنتاج هذه الضروريات .

وبالطبع لن يسبب ترخيص السلعة خفض قيمة قوة العمل إلا بنسبة مدى الدور الذى تلعبه فى إعادة إنتاج قوة العمل . فمثلا القمصان من ضروريات الحياة ولكن القميص ليس سوى شيء ضرورى إلى جانب أشياء كثيرة سواه . فاذا رخصت القمصان فهذا يخفض فقط مقدار ما يتعين على العامل أن ينفقه على القمصان ، ولكن مجموع ضروريات الحياة لا يتكون إلا من سلع مختلفة من منتجات صناعات مختلفة وقيمة كل من هذه السلع تكون دائماً جزءاً من قيمة قوة العمل . هذه القيمة تتناقص مع نقص وقت العمل الضرورى لإعادة إنتاجها ، والنقص الكلى عبارة عن مجموع كافة الاقتطاعات المختلفة فى وقت العمل والتى تحدث فى هذه الصناعات المختلفة . والنتيجة العامة تعالج هنا كما لو كانت نتيجة مباشرة وشيئاً عاجلا فى كل حالة خاصة . وبالطبع حين يرخص رأسمالى سلعة كالقمصان مثلا فلا يستتبع هذا بالضرورة أنه فعل ذلك عامداً أن يخفض قيمة قوة العمل وبالتالى وقت العمل الضرورى إلى حـــد

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

متناسب مع الترخيص . ولكن بقدر ما يؤدى هذا فى النهاية إلى هـذه النتيجة فهو يساهم فى رفع المعدل العام لفائض القيمة (١) . ويجب تمييز الاتجاهات العامة والضرورية لرأس المال عن أشكاله الظاهرية .

ومن المسائل التى تقع خارج نطاق بحثنا الطريقة التى تبدو بها قوانين الانتاج الرأسمالية الثابتة فى حركات مجموعات فردية من رأس المال ، والطريقة التى بها تثبت ذاتها كقوانين تعسفية للمنافسة وبذا تدخل في شعور الرأسمالى الفردى على هيئة دوافع . ولكن واضح منذ البداية أنه كما أن الحركات الظاهرية للأجسام السماوية لا تصبح مفهومة إلا لدى من يعرف حركاتها الحقيقية التى لا تقدرها حواسنا بطريقة مباشرة فكذلك التحليل العلمى للمنافسة غير ممكن إدراكه إلا لمن تفهم الطبيعة الداخلية لرأس المال . ومع هذا فلكى يحسن فهمنا لإنتاج فائض القيمة النسبى ، وعلى أساس مجرد المعرفة التى حصلنا عليها حتى الآن يجوز لنا إبداء هذه الملاحظات .

إذا كان عمل ساعة واحدة يتجسم فى ٦ بنسات فحينئذ تنتج قيمة قدرها ٦ شلنات فى يوم عمل طوله ١٢ ساعة . لنفرض أنه مع إنتاجية عمل معلومة تنتج ١٢ سلعة فى هذه الساعات الإثنى عشرة . وسنفرض أن قيمة أدوات الانتاج التى بليت والمادة الأولية التى استهلكت الخ هى ٦ بنسات لكل سلعة . فى هذه الظروف كل سلعة تساوى شلناً ، ٦ بنسات لقيمة أدوات الانتاج ، ٦ بنسات للقيمة الجديدة التى أضيفت خلال عملية الصنع . ولنفرض الآن أن رأسماليا قادر على مضاعفة إنتاجية العمل مما يترتب عليه إنتاج ٢٤ سلعة بدلا من ١٢ فى يوم عمل طوله ١٢ ساعة . وإذ تظل قيمة الانتاج لكل سلعة بدون تغيير فان قيمة كل سلعة ستهبط الآن إلى ٩ بنسات منها ٦ بنسات تمثل قيمة أدوات الانتاج وثلاث بنسات تمثل القيمة الجديدة المضافة فى ظل الأحوال الجديدة أثناء عملية الصنع . وبرغم أن إنتاجية العمل ضوعفت لا يزال كل يوم عمل يخلق قيمة جديدة مقدارها ٦ بنسات لا أكثر ، ولكن هـذه القيمة الجديدة توزع الآن بين ٢٤ سلعة بدلا من ١٢ سلعة (كما كان الحال قبلا) . وعلى ذلك ينال كل سلعة $\frac{1}{24}$ فقط من القيمة الجديدة الكلية بدلا من $\frac{1}{12}$ أى ٣ بنسات بدلا من ٦ بنسات أو بعبارة مماثلة حين تحول أدوات الانتاج إلى منتج يضاف فى كل سلعة نصف ساعة فقط من وقت

---

(١) لنفرض أن ... منتجات ... رجل الصناعة تضاعفت عن طريق تحسينات فى الآلات ... فانه يستطيع أن يكسو عماله بنصبة أصغر من الانتاج الكلى .... وبذا يرتفع ربحه . ولكنه لن يتأثر بأى طريقة أخرى ..

Ramsay, op. cit., pp. 168—169.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العمل بدلا من ساعة كما كان الحال قبلا . فالقيمة الفردية لهذه السلع هى الآن أقل من قيمتها الاجتماعية بمعنى أن كل سلعة تكلف وقت عمل أقل مما يتكلفه النوع المتوسط من بين مجموع السلع المتشابهة الكبير والتى يتم إنتاجها فى ظل أحوال اجتماعية متوسطة . فالتكلفة فى المتوسط لكل سلعة شلن أى الصورة التى يتجسم فيها ساعتان من العمل الاجتماعى ، والتكلفة لكل سلعة من السلع المنتجة فى ظل طريقة الانتاج المتغيرة هى ٩ بنسات فقط أى الصورة التى يتجسم فيها ساعة من العمل فقط . ومع هذا فالقيمة الحقيقية للسلعة ليست قيمتها الفردية وإنما قيمتها الاجتماعية ، وتقاس قيمتها لا بوقت العمل الذى كلفته فعلا للمنتج فى حالة منعزلة قائمة بذاتها ولكن تقاس بوقت العمل اللازم لإنتاجها فى ظل أحوال المجتمع العادية . وعلى ذلك إذا كان الرأسمالى الذى يستخدم الطريقة الجديدة يبيع سلعته بقيمتها الاجتماعية وهى شلن فهو يبيعها بما يزيد عن قيمتها الفردية بثلاث بنسات وبذا يحقق فائض قيمة أكثر بمقدار ٣ بنسات ولكن من جهة أخرى يتمثل الآن يوم العمل الذى طوله ١٢ ساعة فى ٢٤ سلعة بدلا من ١٢ كما كان الأمر من قبل . فاذا أراد التخلص من المنتج الذى لديه وجب أن يكون الطلب اليومى ضعف ما كان عليه وبعبارة أخرى لزم أن يكون اتساع السوق ضعف ما كان عليه قبلا : وإذ تتساوى الأشياء الأخرى لن تستطيع سلعه أن تتسلط على سوق أكبر إلا بخفض ثمنها وعلى ذلك سيبيعها بما دون قيمتها الاجتماعية وإن ظل ذلك أعلى من قيمتها الفردية ـ أى يبيع السلعة الواحدة بعشر بنسات مثلا . بهذا يستمر فى اجتناء فائض قيمة أزيد يبلغ فى هذه الحالة بنساً فى كل سلعة ، وسيحصل على فائض القيمة الزائد هذا سواء كانت سلعته من ضروريات الحياه أم لم تكن ، وسواء كانت قيمتها تلعب دوراً فى تعيين القيمة العامة لقوة العمل أم لا . ومن هنا ، وبغض النظر عن الاعتبار الأخير ، يصبح لكل صاحب رأس مال دافع يحمله على بذل أقصى جهد لديه لخفض ثمن سلعة وذلك عن طريق زيادة إنتاجه العمل . وبرغم هذا فحتى فى هذه الحالة ينشأ ازدياد إنتاج فائض القيمة عن تقليل وقت العمل الضرورى وإطالة مماثلة فى العمل الفائض (١) . ليكن وقت العمل الضرورى ١٠ ساعات وقيمة قوة العمل فى يوم ما ٥ شلنات ، فإذن يكون فائض العمل ساعتين وفائض القيمة الذى يتم إنتاجه فى يوم

---

(١) ,,ولا يتوقف ربح المرء على ما يسيطر عليه من منتج عمل الآخرين ، وإنما يتوقف على سيطرته على العمل ذاته . فاذا استطاع أن يبيع بضائعه بسعر أعلى بينما تظل أجور عماله دون تغير لاستفاد من ذلك ... وتكفى نسبة أصغر مما ينتج لتحريك ذلك العمل ، ونتيجة لهذا تتبقى نسبة أكبر لنفسه ،،

Outlines of Political Economy, London, 1832, pp. 49-50.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

شلناً . ولكن صاحبنا الرأسمالى ينتج الآن ٢٤ سلعة ويبيع كل منها بعشر بنسات محققاً بذلك ٢٠ شلنا فى المقدار كله . فيما أن قيمة أدوات الإنتاج ١٢ شلن فإن $\frac{2}{5}$ ١٤ من السلع تصلح فقط للحلول محل رأس المال الثابت الذى سبق إنفاقه ، ويوم العمل ذو الإثنى عشرة ساعة يتجسم فى السلع الباقية وهى $\frac{3}{5}$ ٩ . وبما أن ثمن قوة العمل ٥ شلنات فإن ٦ سلع تمثل وقت العمل الضرورى ، $\frac{3}{5}$ ٣ تمثل العمل الفائض . ونسبة العمل الضرورى إلى الفائض تصبح الآن ٥ : ٣ بعد أن كانت ٥ : ١ فى متوسط الأحوال الاجتماعية السائدة . ويمكن الوصول إلى هذه النتيجة بطريقة أخرى . إن قيمة منتج يوم ذى ١٢ ساعة ٢٠ شلنا ومن هذا المبلغ ١٢ لقيمة أدوات الانتاج وهى القيمة التى يعاد انتاجها فى المنتج . وعلى ذلك تبقى ٨ شلنات كالصورة النقدية التى تعبر عن القيمة التى تجسم فيها يوم العمل . وهذا التعبير النقدى أعلى من التعبير النقدى عن العمل الاجتماعى المتوسط الذى من نفس النوع إذ منه ١٢ ساعة تعبر عنها ست شلنات فقط . فالعمل ذو الإنتاجية الاستثنائية يكون أثره كعمل مكثف يخلق فى وقت معلوم أكثر مما ينتج متوسط العمل الاجتماعى الذى من نفس النوع . ومع ذلك لا يزال صاحبنا الرأسمالى يدفع ٥ شلنات قيمة لقوة عمل فى يوم واحد . ولكن بينما كان العامل قبلا يستغرق ١٠ ساعات لإنتاج هذه القيمة من جديد فهذا لا يكلفه الآن أكثر من $\frac{1}{2}$٧ ساعة وبذا ربحت فترة العمل الفائض اليومية بالنسبة له بمقـــدار $\frac{1}{2}$٢ ساعة وارتفع مقدار القيمة الفائضة التى ينتجها من شلن إلى ٣ شلنات . فالرأسمالى الذى يستخدم وسائل الإنتاج المتحسنة يحصل بذلك على قدر من فائض العمل نسبته أعلى مما هى فى حالة سواه من الرأسماليين فى نفس الفرع من الإنتاج ، فهو يعمل بصفة فردية ما يعمله رأس المال بصفة جماعية فى انتاج فائض القيمة النسبى ، ولكن فائض القيمة الإضافى فى هذا يزول حالما تعمم طريقة الإنتاج الجديدة إذ ينعدم الفارق فى القيمة بين القيمة الفردية والقيمة الاجتماعية للسلع التى أنتجت رخيصة . إن القانون القائل بأن القيمة تتحدد بوقت العمل وهو القانون الذى حقق سيطرته على الرأسمالى الذى استخدم الطريقة الجديدة فى الإنتاج بأن جعله يبيع سلعه بأقل من قيمتها الاجتماعية — هذا القانون يفرض سلطانه على منافسيه على شكل قانون تحكمى للمنافسة ويرغمهم على اقتباس الطريقة الجديدة فى الإنتاج(١). وعلى ذلك فى النهاية لا يتأثر المعدل العام لفائض القيمة إلا

(١) «وإذا كان جارى ينتج كثيراً بمجهود أو عمل قليل وبذا يبيع بسعر رخيص فعلى أن أحاول البيع رخيصاً مثله . وبذلك فان كل فن أو مهنة أو آلة تؤدى العمل بعمال أقل عدداً وبالتالى بسعر أرخص تثير فى غيرها نوعاً من الضرورة والرغبة فى التقدم إما باستعمال نفس الفن أو المهنة أو الآلة وإما باختراع شىء شبيه بها بحيث يتساوى الناس=

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بالعملية كلها حين تكون الزيادة فى إنتاجية العمل ذات مفعول فى فروع الإنتاج التى تعنى بإنتاج ضروريات الحياة بحيث أن الزيادة فى الانتاجية تؤدى إلى رخص السلع التى تكوّن عناصر قيمة قوة العمل .

وتتناسب قيمة السلع تناسباً عكسياً مع إنتاجية العمل ، وكذلك الحال بالنسبة إلى قيمة قوة العمل مادامت هذه تعينها قيمة السلع . ومن جهة أخرى يتناسب فائض القيمة النسبى تناسبا مباشراً مع إنتاجية العمل فيزيد بارتفاع الإنتاجية وينقص بانخفاضها . وبفرض ثبات قيمة النقود فإن يوم عمل اجتماعى متوسط ذا ١٢ ساعة ينتج دائماً نفس القيمة وهى ٦ شلنات مهما كانت النسب التى ينقسم إليها هذا المبلغ بين معادل قيمة قوة العمل من جهة وفائض القيمة من جهة أخرى . ولكن إذا ترتب على زيادة الانتاجية هبوط فى قيمة العرض اليومى من ضروريات الحياة وبالتالى هبوط قيمة قوة العمل اليومية من ٥ إلى ٣ شلنات ، كانت النتيجة ارتفاع فائض القيمة من شلن إلى ثلاث شلنات . وبينما كانت ١٠ ساعات فى ظل الأحوال القديمة لازمة لإعادة إنتاج قيمة العمل فإن ٦ ساعات عمل تكفى لهذا الغرض فى ظل الأحوال الجديدة . ونتيجة لهذا تحررت ٤ ساعات عمل يمكن أن تضاف إلى ميدان العمل الفائض. وعلى ذلك فالاتجاه الدائم لرأس المال ، وهو اتجاه نتيجة دافع كامن فيه ، هو زيادة إنتاجية العمل لكى يمكن العمل على رخص السلع وبالتالى رخص العامل (١).

والقيمة المطلقة للسلعة التى ينتجها العامل ليست فى حد ذاتها بذات أهمية للرأسمالى إذ الشىء الوحيد الذى يهمه فائض القيمة الذى تتضمنه السلعة والذى يحققه عن طريق بيعها . وتحقيق فائض القيمة يتضمن بالضرورة استرداد القيمة التى أنفقت . وإذ يتناسب فائض القيمة النسبى تناسباً

=ولا يستطيع أحدهم أن يبيع السلع بثمن دون مايفعل الغير»

The Advantages of the East Indian Trade to England. London 1720 p. 67.

(١) «مهما كانت النسبة التى تنقص بها نفقات العامل فان أجره ينقص بنفس النسبة إذا أزيلت فى الوقت ذاته القيود المفروضة على الصناعة» Considerations concerning Taking off the Bounty on Corn exported etc., London. 1752, p. 7. «ومن صالح التجارة أن تكون الغلال وكافة المؤن أرخص ما يمكن ثمنا لأن مايرفع ثمنها يعمل على رفع ثمن العمل كذلك .... ففى جميع البلاد التى لا تكون الصناعة فيها مقيدة لابد أن يؤثر ثمن المؤن فى ثمن العمل . وهذا ينقص دائما حينما يزداد رخص ضروريات الحياة شرحه ص ٣ «تخفض الأجور بنسبة ازدياد قوة الانتاج . حقيقة تعمل الآلات على رخص ضروريات الحياة ولكنها تؤدى كذلك إلى رخص العامل» A Prize Essay on the Comparative Merits of Competition and Cooperation, London 1834, p. 27.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مباشراً مع تطور إنتاجية العمل وينمو بازديادها ، ويبين قيمة السلع متناسبة تناسباً عكسياً مع تطور إنتاجية العمل أى تهبط حين تزيد الإنتاجية ، وبقـــدر ما تكون نفس العملية الواحدة مؤدية إلى رخص السلع وتضخيم ما تنطوى عليه السلع من فائض قيمة — نقول إن هذا جميعه يجعلنا ندرك السبب الذى من أجله يجاهد صاحب رأس المال (الذى لايعنيه سوى إنتاج القيم التبادلية) فى سبيل خفض القيم التبادلية للسلع ، ونستطيع أن نفسر التناقض وأن نحل اللغز الذى اعتاد كوينای أحد مؤسسى الاقتصاد السياسى أن يضايق خصومه بتفسيره لهم . لقد كان اللغز بالنسبة إليهم مما لا يمكن حله ، وقد كتب يقول ، وهم متفقون على أنه كلما زاد القصد فى نفقات صنع المنتجات الصناعية والأعمال الكثيرة الكلفة المتصلة به ، كان مثل هذا الاقتصاد مصدر ربح لأنه يسبب خفض ثمن المنتجات . (على شرط ألا يكون هـذا التوفير ضاراً بالإنتاج) . ولكنهم يعتقدون أن إنتاج الثروة التى هى نتيجة لعمل الأيدى العاملة ، ينحصر فى زيادة القيمة التبادلية لمنتجاتهم (١) ».

لهذا فالمحاولات التى ترمى إلى توفير العمل عن طريق زيادة إنتاجيته (٢) لا تهدف فى ظل الإنتاج الرأسمالى إلى خفض طول يوم العمل وإنما الغرض الوحيد منها خفض مقدار وقت العمل الضرورى الذى يستخدم فى إنتاج قدر محدود من السلع . ومع أن العامل الآن — بفضل زيادة إنتاجية عمله — ينتج فى ساعة واحدة مقداراً من السلع يعادل عشرة أمثال ما كان ينتجه من قبل ، أو بعبارة أخرى ينتج نوعاً واحداً من السلع فى نفس الوقت الذى كان يحتاج إليه من قبل ، إلا أنه لايزال عليه أن يشتغل ١٢ ساعة فى اليوم وينتج ١٢٠٠ سلعة مقابل ١٢٠ من قبل . وربما يكون يوم العمل بالنسبة إليه قد تعرض للزيادة بحيث أصبح يعمل

---

(١) Dialogues sur le commerce et les travaux des artisans, Daire's edition, Paris, 1846, pp, 185—189.

(٢) ,,هؤلاء المضاربون المقتصدون فى عمل العمال وذلك حين يتعين عليهم أن يدفعوا مقابله J. N. Bidaut Du monopole qui s'établit dans les arts industriels et le commerce, Paris 1828 p. 13 ويكون رب العمل على استعداد وانتظار كى يقتصد فى الوقت والعمل ،، Dugald Stewart, Lectures on Political Economy, in works, edited by Sir William Hamilton Edinburgh, 1855, vol. III, p. 318 ,, وتنحصر مصلحتهم (أى الرأسماليين) فى أن تكون القوى الانتاجية لمن يستخدمونهم من العمال أعظم ما يمكن . واهتمامهم موجه ومركز بصفة خاصة نحو تنمية تلك القوة ،،

R. Jones, op. cit., Lecture III.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الآن ١٤ ساعة وينتج ١٤٠٠ سلعة وهكذا . هذا هو السبب الذى من أجله تطالع كتابات الاقتصاديين من أمثال ماك كولوخ ويروسينيور فتقرأ فى صحيفة أن على العامل أن يقر بالفضل لرأس المال الذى زاد من إنتاجيته ، وتجد فى الصحيفة الأخرى أن على العامل الإفصاح عن هذا الشكر بالعمل من الآن فصاعداً ١٥ ساعة فى اليوم بدلا من ١٠ ساعات ! إن تنمية إنتاجية العمل ترمى فى ظل الإنتاج الرأسمالى إلى إنقاص ذلك الجزء من يوم العمل والذى يتعين فيه على العامل أن يشتغل لنفسه وذلك لكى يطيل جزء اليوم الذى يستطيع أن يعمل خلاله للرأسمالى بلا مقابل أوجزاء . أما كيف يمكن أن تتحقق هذه النتيجة بوسائل أخرى حلاف ترخيص السلع فهو الأمر الذى ستكشف عنه الغطاء بفحص الوسائل الخاصة بإنتاج فائض القيمة النسبى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الحادى عشر

التعـــاون

يبدأ الإنتاج الرأسمالى حينما تستخدم مجموعة مفردة من رأس المال عدداً كبيراً من العمال فى وقت واحد لمتابعة العمل على نطاق أعم وأكثر شمولا وحتى تغل قدراً كبيراً نسبياً من المنتجات . ومن وجهتى النظر التاريخية والنظرية تقع نقطة الابتداء فى الانتاج الرأسمالى حيث يتجمع عدد كبير من العمال فى وقت واحد ومكان واحد (أو فى نفس ميدان العمل إن شئت القول) وتحت إمرة رأسمالى واحد لانتاج نفس النوع من السلعة . أما من الناحية الواقعية الفعلية فى الانتاج فيكاد يمكن القول إن الصناعة اليدوية Manufacture لاتختلف عن الصناعة الحرفية اليدوية التى مارستها نقابات المهن Guilds إلا من حيث أنه فى الأولى تستخدم وحدة من رأس المال عدداً أكبر من العمال فى وقت واحد . فكأن ورشة المعلم فى العصور الوسطى قد كبرت ، وبهذا يكون الفرق بينهما فرقاً من ناحية الكم فقط . وقد رأينا أن مجموعة فائض القيمة التى ينتجها مقدار معلوم من رأس المال تساوى فائض القيمة الذى ينتجه عامل مفرد مضروباً فى عدد العمال الذين تستخدمهم تلك الوحدة من رأس المال فى وقت واحد . ولا يؤثر عدد العمال فى معدل فائض القيمة أو فى درجة استغلال قوة العمل ، كما أنه يقال بوجه عام إن أى تغيير فى الكم لا يؤثر على مايبدو فى إنتاج قيم السلع . وهذا الأمر ناشىء عن طبيعة القيمة . فإذا كان يوم عمل طوله ١٢ ساعة متجسما فى ٦ شلنات فإن ١٢٠٠ يوم من هـــذا النوع تتجسم فى ٦ شلنات × ١٢٠٠ ، وفى الحالة الأخيرة تكون ١٢ × ١٢٠٠ ساعة عمل داخلة فى تكوين المنتج كما كانت الحال بالنسبة إلى الساعات الاثنى عشرة فى الحالة الأولى ، فكأنه فى إنتاج القيمة لاتعدو أهمية تعدد الأشخاص كونه مجرد تضعيف لأجزاء فردية . وإذن ففى إنتاج القيمة لاتجد فرقاً إذا اشتغل ١٢٠٠ عامل بالانتاج وكل منهم منفصل عن الآخر أو وهم مرتبطون متصلون تحت إمرة وإرشاد مجموعة واحدة من رأس المال .

وبرغم هذا فهناك تغيير فى نطاق حدود معينة . فالعمل الذى يتجسم فى القيمة إن هو إلا عمل ذو صفة اجتماعية متوسطة بمعنى أنه المظهر الدال على متوسط قوة العمل . ولكن المتوسط بين أحجام لا يمكن تحقيقه إلا بين عينات متعددة من نفس النوع مهما كان مبلغ اختلاف

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أحجامها . ففى كل فرع من الصناعة يختلف العامل الفردى مثل بطرس أو بولص عن العامل المتوسط بالزيادة أو النقص . وهذه الاختلافات الفردية (أو « الأخطاء » كما يعبر عنها فى الاصطلاحات الفنية الرياضية) يوازن وينفى كل منها الآخر فى حالة عدد كبير من العمال فى نفس الوقت . وقد ذهب السفسطائى الشهير إدمند بيرك إلى حد القول بأن خبرته العملية كفلاح جعلته يرى أنه حتى فى حالة « حيز صغير » من خمسة عمال مثلا تمتزج الفوارق الفردية بحيث أننا لو انتقينا عفواً خمسة عمال زراعيين من الإنجليز لألفينا إنتاجهم مساوياً لانتاج أى خمسة عمال آخرين (١). ليكن هذا ، ولكن لاريب أننا لو أخذنا مجموع يوم عمل لعدد كبير من العمال نستخدمهم فى وقت واحد وقسمناه على عدد العمال لكان الناتج عبارة عن يوم واحد من متوسط العمل الاجتماعى . لنفرض أن يوم العمل بالنسبة إلى فرد واحد يتكون من ١٢ ساعة ، فإذا استخدمنا ١٢ عاملا فى وقت واحد كان مجموع يوم العمل بالنسبة لهم جميعاً ١٤٤ ساعة وبرغم أن عمل كل منهم يزيد أو يقل اختلافاً أو انحرافاً عن متوسط العمل الاجتماعى ، وبرغم أن الواحد منهم قد يحتاج إلى قدر أكبر أو أصغر من الوقت لأداء عملية معينة ، فإن يوم العمل بالنسبة لكل منهم له صفة متوسط يوم العمل الاجتماعى مادام يوم العمل لكل منهم يمثل $\frac{1}{12}$ من يوم عمل الجميع والبالغ ١٤٤ ساعة . ويوم العمل بالنسبة للرأسمالى الذى يستخدم ١٢ عامل عبارة عن مجموع يوم العمل للاثنى عشرة كلهم ، فيوم العمل لكل فرد جزء من يوم العمل الكلى بغض النظر عما إذا كان هؤلاء الاثنى عشرة يشتغلون سويا فى نفس العملية حيث يتداخل مجهود كل منهم فى الآخر ، أو أن العلاقة الوحيدة التى تربطهم كونهم يعملون جميعاً لنفس الرأسمالى . ومن جهة أخرى إذا اشتغل هؤلاء العمال الاثنى عشرة بحيث أن كل اثنين منهم يعملون لدى واحد من صغار أرباب العمل لكانت الصدفة المجردة وحدها هى التى تجعل أرباب العمل الست هؤلاء ينتجون نفس القدر من القيمة ، وبالتالى يحققون فى كل حالة المعدل العام للقيمة الفائضة . إن الانحرافات تحدث فى الحالات الفردية .

(١) « لانزاع فى وجود قدر كبير من الاختلاف بين قيمة عمل رجل ما وقيمة عمل آخر وهو ما ينجم عن اختلاف القوة والمهارة والأمانة فى العمل . ولكنى واثق تماماً من خبر ألوان ملاحظاتى أن أى خمسة من العمال فى مجموعهم يقدمون قسمة من العمل مساوية لأى خمسة آخرين فى نفس فترات الحياة التى ذكرتها ، أى أنه فيما بين هؤلاء الخمسة تجد واحداً له كافة ميزات العامل الجيد وآخر له صفات لرديء وثلاثة لهم صفة المتوسطين ويقربون من الأول والأخير ، بحيث أنه فى مثل هذا الحيز الصغير المكون من خمسة أفراد تجد المقدار الكامل لكل ما يستطيع أولئك الخمسة أن يكسبوه » Edmund Burke, op. cit., p. 16 - Cf, also Luételet on the average man in various works

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فإذا احتاج عامل كى ينتج سلعة ما إلى قدر أكبر من وقت العمل اللازم فى ظل أحوال اجتماعية معينة ، وإذا اختلف وقت العمل الضرورى الذى تطلبه اختلافا كبيراً عن متوسط العمل الاجتماعى ، ففى هذه الحالة لن يحسب عمله على أنه عمل متوسط ولن تكون قوته على العمل متوسط قوة العمل المعهودة ، كما أن قوته على العمل لا تباع أو قد تباع دون متوسط قيمة قوة العمل . وعلى ذلك فالمفروض وجود حد أدنى معين من الكفاية فى العمل ، وسنرى فيما بعد أن الانتاج الرأسمالى يجد طريقة لقياسه . ومع هذا قد ينحرف الحد الأدنى عن المتوسط برغم أنه لابد من دفع ثمن هذا الحد الأدنى وفقا لمتوسط قيمة قوة العمل . وعلى ذلك فقد يمتص أحد أرباب العمل الست أولئك قدراً يزيد من متوسط العمل فائض القيمة ، وقد يحصل آخر على مادون ذلك . وبالنسبة إلى المجتمع عموما تنفى هذه الفروق كل منها الآخر ، ولكن ليس الحال كذلك بالنسبة إلى أرباب العمل الفرديين . بهذا لا يتحقق تماماً القانون العام بصدد خلق القيمة (أو بعبارة أخرى التمدد الذاتى لرأس المال) بالنسبة إلى المنتج الفردى إلا إذا مارس الإنتاج كرأسمالى أى كشخص يستخدم عدداً كبيراً من العمال فى نفس الوقت بحيث تكون للعمل الذى يسيطر عليه منذ البداية خواص متوسط العمل الاجتماعى (١) .

وحتى فى حالة عدم وجود تغيير فى طريقة العمل فإن استخدام طاقات energies عدد بالغ من العمال فى وقت واحد يحدث ثورة فى الأحوال الموضوعية التى تجرى فيها عملية العمل ، ذلك أن الأبنية التى يؤدى فيها العمل ومخازن المادة الأولية والأدوات والعدد التى يستخدمها فى وقت واحد العمال الذين يشتركون فى العمل ـ نقول إن هذه جميعاً يتم استهلاكها بالاشتراك . إن القيمة التبادلية لأدوات الإنتاج هذه لا تزيد لأن القيمة التبادلية للسلع (بما فيها أدوات الإنتاج) لا تزيد بمجرد أن قيمتها الاستعمالية تستغل أو تستخدم بطريقة أنجع وأفضل . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تكون أدوات الإنتاج فى حالة العمل المشترك أو المتحد على نطاق أوسع منها فى حالة العمل الفردى الذى يقوم به كل عامل على حدة . إن الحجرة التى يؤدى فيها عشرون غزالا العمل على عشرين نولا يجب أن تكون أكبر من التى يشتغل فيها عامل مستقل ومعه اثنان من عمال المياومة ، ولكن إقامة ورشة تتسع لعشرين عاملا تتكلف عملا أقل مما يتكلفه بناء عشرة ورش يعمل فى كل منها رجلان . ونستطيع القول بوجه عام إن القيمة المتجسمة فى أدوات

---

(١) يدعى الأستاذ روشر أنه اكتشف أن خياطة استخدمتها زوجه بومين انتجت عملا أكثر مما تؤديه خياطتان تعملان سوياً خلال يوم واحد ولكن لا ينبغى للاستاذ العالم أن يأخذ فى دراسة عملية الانتاج الرأسمالى فى مكان الحضانة . ولا فى الأحوال التى لا وجود فيها للشخص الرئيسى أى الرأسمالى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الإنتاج التى نركزها لعمل مشترك على نطاق كبير لا تزيد بنسبة الزيادة فى مدى هذه الأدوات والنتيجة النافعة المترتبة على استخدامها على هذا النحو . حينما تستخـــدم أدوات الإنتاج بالاشتراك فإنها تنقل إلى كل منتج فردى مقداراً من قيمتها أصغر حجماً ، ويرجع السبب فى هـذا أولا إلى أن القيمة الكلية التى تنقلها هـكذا تشمل كمية أكبر من المنتجات وبذا يكون المقدار المنقول إلى كل نوع أقل ، وثانياً لأنه برغم كون قيمتها المطلقة أكبر منهـا فى حالة أدوات الإنتاج التى يستخدمها العمال المتفصل كل منهم عن الآخر إلا أن هذه القيمة أقل نسبياً نظراً لأن مجال عملها ونشاطها أوسع مـدى ، فبقدر نسبة الهبوط فى القيمة التى ينقلها رأس المال الثابت إلى المنتج الفردى يكون الهبوط فى القيمة الكلية للسلعة المفردة . وهذه النتيجة لا تختلف عنها فى حالة ما إذا كانت الأدوات التى تم بها إنتاج السلعة قد حدث إنتاجها بنفقة أقل . فالوفر فى استخدام أدوات الإنتاج راجع إلى أن عدداً من العمال يستهلكون هذه الأدوات بالاشتراك فى عملية العمل . هذا الاقتصاد فى ذلك النوع من استخدام أدوات الإنتاج يلازمها كأنه من شروط العمل الاجتماعى أو الأحوال الاجتماعية للعمل ، الأمر الذى يختلف عن أدوات الإنتاج التى يستخدمها عمال مستقلون كل منهم منفصل عن الآخر بطريقة أكثر كلفة وأعظم انفصالا بعضها عن بعض نسبياً ، بل إن هذا الوفر يلازم أدوات الإنتاج التى تستخدم هـكذا حتى ولو اقتصر الأمر على جمع عمال كثيرين فى مكان واحد دون أن يصحب ذلك إشتراك فعلى تام فى العمل الذى يؤدونه . وإن جانباً من وسائل العمل يكتسب هذه الصفة الاجتماعية قبل أن تكتسب عملية العمل بوجه عام الطابع الاجتماعى .

ونقول بوجه عام إنه يتعين علينا أن ندرس موضوع الوفر في استعمال أدوات الإنتاج فى ظل مظهرين ، الأول من حيث أنه يعمل على رخص السلع وبذا يؤدى إلى خفض قيمة قوة العمل ، والثانى من حيث أنه يغير النسبة القائمة بين فائض القيمة ورأس المال الكلى المدفوع مقدماً المكون من عنصريه الثابت والمتغير . وسنعالج النقطة الأخيرة فى الجزء الأول من الكتاب الثالث ولهـذا أؤجل كذلك النظر فى بعض مسائل تتعلق بالموضوع الحالى . وهذا التقسيم لموضوع البحث يمليه سير التحليل الذى نقوم به ويتفق مع روح الإنتاج الرأسمالى ذلك أنه لما كانت أحوال العمل في هذه الطريقة فى الانتاج تواجه العامل بوصفها وحدات كلية مستقلة فإن الاقتصاد فى استخدام أدوات الانتاج يبدو له عملية خاصة لا يعنيه أمرها وبذا لا تكون لها علاقة بالوسائل التى تزيد من إنتاجيته الفردية .

إنى أطلق عبارة التعاون فى حالة ما إذا اشتغل عـدة عمال لغرض معلوم جنباً إلى جنب

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وبالاشتراك سواء كان ذلك فى عمليات عمل مختلفة أو متصلة متداخلة فيما بينها (١).

وكما أن قوة هجوم فرقة من الفرسان أو قوة دفاع فرقة من المشاة تختلف عن مجموع قوى الدفاع أو الهجوم التى يستطيع أن ينميها الفرد من الفرسان أو المشاة على حدة، فكذلك يختلف مجموع نواحى النشاط الآلية التى ينميها العمال غير المتحد أحدهم بالآخر اختلافاً كبيراً عن القوة الاجتماعية الكامنة التى تظهر حينما يشتغل عمال كثيرون فى وقت واحد فى نفس العملية غير المقسمة كما هو الحال فى رفع ثقل كبير أو إدارة رافعة أثقال أو إزالة عقبة من العقبات (٢).

ففى هذه الحالات يحقق العمل المشترك نتائج يعجز عنها العمل المنفصل، أو لو أن الأخير إستطاع تحقيقها لاحتاج إلى وقت أطول أو حققها على نطاق ضئيل. فالذى له أثر هنا ليس مجرد الزيادة فى القوة الانتاجية الفردية عن طريق التعاون بل هو خلق قوة إنتاجية جديدة هى القوة الانتاجية للجماهير (٣).

وفضلا عن الطاقة الجديدة التى يولدها امتزاج طاقات كثيرة لتكون طاقة متحدة فالذى يحدث عادة فى العمل الانتاجى أن مجرد الاتصال أو الاحتكاك الاجتماعى يثير التنافس وينمى الغرائز الحيوانية إلى حد ما مما يترتب عليه ازدياد كفاية كل عامل فردى بحيث أن يوم عمل طوله ١٤٤ ساعة ويشمل أيام عمل طول كل منها ١٢ ساعة لإثنى عشرة عامل يتعاونون فى العمل ينتج منتجاً كلياً أكبر من المنتج الكلى لاثنى عشرة عاملا يشتغل كل منهم على حدة ١٢ ساعة أو من المنتج الكلى لعامل يشتغل بمفرده ١٤٤ ساعة خلال ١٢ يوما متتالية (٤). والسبب فى هذا أن الإنسان بطبعه إن لم يكن حيواناً سياسياً (كما قال أرسطو)

(١) يطلق ديتوت دى تراسى عبارة ,, اتفاق القوى ،، على التعاون (ص ٧٨).

(٢) هناك عمليات عدة بسيطة إلى حد أنه لا يمكن تقسيمها إلى أجزاء ولكنها لا تتم إلا عن طريق تعاون أيد عاملة كثيرة ومثال ذلك رفع شجرة كبيرة على رافعة الأثقال ..... وكل شىء لا يمكن أداؤه إلا إذا تعاون عدد كبير من العمال فى نفس العملية غير المنقسمة وفى نفس الوقت ،، E. G, Wakefield, A View of the Art of Colonisation, London 1849, p. 168.

(٣) ,, ربما أن رجلا واحداً لا يستطيع رفع ما تحمله طن وربما أن عشرة رجال يجب أن يجهدوا أنفسهم كى يتم لهم ذلك. إلا أن مائة رجل يستطيعون أداء ذلك العمل إذا ما استخدم كل منهم قوة أحد أصابعه ،،

John Bellers, Proposals for Raising a College of Industry, London, 1696, p. 21,

(٤) حينما يقوم مزارع واحد باستخدام نفس العدد من العمال فى أرض مساحتها ٣٠٠ فدان بدلا من أن يستخدمهم ١٠ مزارعين كل منهم يفلح أرضاً مساحتها ٣٠ فداناً لكانت هناك كذلك ميزة فى نسبة الخدم التى لا يسهل إدراكها إلا =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فإنه على كل حال حيوان اجتماعى (١) .

وبالرغم من أن عدداً من الأفراد قد يؤدون فى نفس الوقت عمليات متماثلة أو متشابهة ، فقد يمثل العمل الفردى الذى يقوم به كل عضو فى جماعة تعاونية مظهراً معيناً فى عملية عمل مكونة من مظاهر عدة يتخطاها العمل بسرعة أكبر ما دامت العملية تتم بطريق التعاون . ومثال ذلك : لو وقف إثنى عشرة رجلا فوق سلم كأنهم سلسلة لنقل الطوب من أسفله إلى أعلاه فإن كلا منهم يؤدى نفس الشىء الذى يعمله زميله ، ومع ذلك فأعمال الواحد منهم أجزاء فى سلسلة متصلة من العمليات أو أنها مظاهر خاصة معينة فى سلسلة عامة من الحركات يجب أن تمر الطوبة الواحدة خلالها ، وبذلك نجد أن الأيدى الأربع والعشرين لهذا العامل الجماعى تنقل الطوب إلى حيث يراد ذلك بسرعة أعظم مما لو أن كلا من العمال الاثنى عشرة أخذ طوبة وعلا بها السلم ثم نزل ليأخذ غيرها (٢)، فكأن الشىء الذى يتناوله العمل يمر خلال نفس الفراغ فى وقت أقصر أمدا . ومن جهة أخرى هناك اتحاد فى العمل حين يشيد بناء فى نفس الوقت الواحد من كافة الجوانب مرة واحدة وإن كان من يرصون الطوب متعاونين يعملون نفس الشىء أو أشياء متشابهة . إن يوم العمل المتحد المكون من ١٤٤ ساعة والذى يتم فيه ممارسة أمر ما من جوانب مختلفة كثيرة فى وقت واحد يؤدى إلى إتمام المنتج الكلى بقدر من السرعة أعظم منه فى حالة ١٢ يوما يقوم خلالها بالعمل ١٢ رجلا قد يعظم أو يقل استقلال كل منهم بما يؤديه الأمر الذى يجعلهم يقربون العمل بطريقة ذات جانب واحد نسبياً (والسبب فى هذا أن العامل الجماعى أى المكون من اتحاد عدد من العمال له أعين وأيد

= على الجريين ذلك أنه من الطبيعى أن تقول إنه كما يكون ١ بالنسبة إلى ٤ فكذلك تكون ٣ إلى ١٢ ولكن هذا لا يصدق عليه آ ، ففى وقت الحصاد وعمليات أخرى كثيرة تتطلب نفس النوع من السرعة عن طريق تشغيل كثير من الأيدى العاملة سوياً يتم أداء العمل بطريقة أفضل وأسرع ؛ فبجنيه واحد فى الحصاد واستخدام سائقين وحمالين ورجلين ممن يدرون القمح واثنين ممن يسوون التربة واستخدام الباقين عند أكوام الدريس أو فى الهرى فان ذلك يؤدى إلى أداء ضعف العمل الذى يقوم به نفس العمال لو قسمناهم جماعات مختلفة تشتغل فى مزارع مختلفة ،،

An Inquiry into the Connection between the Present Price of Provisions and the Size of Farms, by a Farmer. (لندن ١٧٧٣ ص ٧ — ٨) .

(١) إذا شئنا الدقة قلنا إن أرسطو يعرف الانسان بأنه ساكن المدينة ، وبالنسبة للعصور القديمة يعد هذا تمييزاً لها كما تتميز الروح الأمريكية الحديثة بتعريف بنيامين فرانكلين إن الانسان بطبيعته حيوان يصنع العدد .

(٢) هذا المثل مأخوذ من كتاب Théorie des richesses sociales تأليف F. Sharbek الطبعة الثانية ، باريس ١٨٤٠ ، المجلد الأول ص ٩٧ — ٩٨ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من الأمام ومن الخلف) . إن للعمل المشترك الفضل فى أن تتم وتنضج مختلف أجزاء المنتج فى وقت واحد .

لقد وجهت الأهمية فى الأمثلة السابقة إلى الطريقة التى يقوم فيها أشخاص كثيرون يكمل عمل منهم عمل الآخرين بأداء نفس الأشياء أو الأشياء المتشابهة ، ذلك لأن هذا الشكل البسيط جداً من العمل المشترك يلعب كذلك دوراً عظيماً حتى فى أعظم أنواع التعاون رقياً ونمواً . أما إذا كانت عملية العمل معقدة فإن مجرد وجود الكثير من العمال المتعاونين يجعل فى الإمكان تخصيص العمليات المتنوعة إلى أيد عاملة مختلفة بحيث يمكن أداء العمليات كلها فى نفس الوقت وبهذه الوسائل يمكن خفض وقت العمل الضرورى لإتمام المنتج الكلى (١) .

وفى كثير من الصناعات لحظات دقيقة أى مظاهر خاصة متوقفة على طبيعة عملية العمل ولا بد خلالها من الحصول على نتائج خاصة معينة . فإذا جز مثلا صوف قطيع من الغنم أو حصد قمح مزروع فى عدد معلوم من الأفدنة فإن مقدار المنتج ونوعه يتوقفان على بدء العملية فى يوم معين وإتمامها خلال فترة محدودة من الزمن . وفى هذه الحالات يحدد الحد الأقصى لطول عملية العمل مقدماً كما هو الحال فى صناعة صيد الرنجة .

إن العامل المستقل بنفسه لا يستطيع أن يصطاد فى يوم واحد أكثر مما يسمح به يوم عمل طوله ١٢ ساعة مثلا ، أما إذا تعاون ١٠٠ عامل مدى يوم واحد كان معنى هذا أن يوم العمل ذا الإثنى عشرة ساعة يتمدد ويتسع فيصبح يوم عمل كلى طوله ١٢٠٠ ساعة ، وبذا يمكن أن نعوض قصر الوقت اللازم لأداء العمل عن طريق حجم العمل المشترك الذى نستخدمه فى ميدان الإنتاج خلال فترة معينة . فإتمام العمل سراعا كما نرغب فيه صار ممكناً لأننا استخدمنا فى وقت واحد وبطريقة الاشتراك أيام عمل أفراد عدة ، واتساع نطاق النتيجة النافعة يتوقف على عدد المشتغلين بإنتاجها ، ولكن فى حالة وجود التعاون يكون هذا العدد من الأشخاص أقل دائماً مما يتطلبه إدراك نفس النتيجة وفى نفس الوقت والمكان لو اشتغل هؤلاء بغير تعاون واشتراك (٢) . وإلى انعدام مثل هذا التعاون فى ولايات الاتحاد الأمريكى الغربية

(١) „ إذا أريد أداء عمل معقد أمكن عمل أشياء عدة فى نفس الوقت الواحد ، فيقوم فرد بأمر ما ويؤدى آخر سواه ، وبذا يحقق الجيش نتيجة ليست مطلقاً فى مستطاع الفرد المستقل عن غيره . فرجل منهم يحرك المجاذيف والثانى يدير الدفة والثالث يلقى بالشباك أو الرمح ، ويكون العمل المشترك أكثر نجاحا مما لو لم يكن هناك وجود لهذا الاتحاد فى القوى „ (ديتوت دى تراسى) .

(٢) „ وأداؤه (أى العمل الزراعى) فى تلك اللحظة الحرجة ذو أهمية كبرى „ An Inquiry into the Connection between the Present Crisis, etc, p. 9. „ ليس من عامل يفوق عامل الوقت أهمية فى الزراعة „ .

Lieig, Ueber Theorie und Praxis in der Landwirtschaft 1856, p. 23.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وفى بعض أجزاء الهند حيث قضى الحكم الانجليزى على نظام تعاون الجماعة القديمة يرجع تبديد جانب كبير من القمح فى البلد الأول والقطن فى البلد الثانى عاما بعد آخر (١) .

والتعاون من جهة يجعل فى الامكان اتساع مجال تنفيذ المشروعات من حيث المكان ، وذلك تتطلبه العلاقات المكانية لمادة العمل فى عمليات معينة كالصرف وإقامة السدود والرى وشق الترع ومد الطرق والخطوط الحديدية وما أشبه ذلك . ومن جهة أخرى يجعل التعاون من السهل تقلص ميدان الانتاج بالنسبة إلى مداه ، وهو الأمر الذى يسبب حدوثه فى نفس وقت امتداد نطاق العمليات وفراً كبيراً فى نفقات لا لزوم لها وهو وفر ممكن بسبب تقريب العمال بعضهم من بعض وضم عمليات العمل المختلفة وتركيز وسائل الانتاج (٢) .

إذا قسنا يوم العمل المتحد بمجموع مساو له من أيام العمل الفردية المنعزل كل منها عن الآخر ، لوجدناه ينتج مقادير أكبر من القيم الاستعمالية وبذلك يؤدى إلى خفض مدة وقت العمل اللازمة لانتاج النتيجة النافعة المرغوب فيها . ومهما كان ازدياد الانتاجية فى حالة معلومة سببه أن يوم العمل المتحد يزيد من حدة طاقة العمل الميكانيكية ، أو يوسع مجال فعل العمل ، أو يقلل ميدان الانتاج بالقياس إلى مناطقه أو يحرك فى اللحظة الحرجة مقادير كبيرة من العمل بشرط أن يكون ذلك فى وقت أقل نسبياً ، أو يثير روحاً من المنافسة فى العمال الفرديين ويزيد من قوة وحدة غرائزهم الحيوانية ، أو يدمغ العمليات المتشابهة التى يقوم بها أفراد كثيرون بطابع الاستمرار وتعدد الشكل ، أو يؤدى إلى الوفر فى أدوات الانتاج عن طريق تنظيمها المشترك ، أو يطبع العمل الفردى بخصائص متوسط العمل الانتاجى ـ نقول إن الانتاجية الخاصة ليوم العمل المتحد هى إنتاجية العمل الاجتماعية أو إنتاجية العمل

(١) ,, والأذى الآخر الذى نادراً ما يتوقع الانسان أن يجده فى بلد يصدر مقداراً من القمل أكثر مما يصدره بلد آخر فى العالم مع استثناء الصين وانجلترا — استحالة الحصول على عدد كاف من الأيدى العاملة لتنظيف القطن . والنتيجة المترتبة على هذا عدم جنى مقادير كبيرة من المحصول بينما يجمع وجانب آخر من الأرض بعد تساقطه وبذلك يتعرض طبيعة الحال إلى تلوث لونه وفساده ، ولهذا يتعرض المزارع بسبب نقص العمال فى الفصل المناسب لخسارة جزء كبير من ذلك المحصول الذى تشتد حاجة انجلترا إليه ،، Bengal Hurkaru, bi-monthly overland summary of news, July 22, 1861,

(٢) فى تقدم الزراعة تجد أن كل رأس المال والعمل الذى كان يشغل ٥٠٠ فدان أصبح الآن متركزاً لزراعة ١٠٠ فدان زراعة أوفى ،، . وبرغم ,, أن المكان متركز بالنسبة إلى مقدار رأس المال والعمل المستخدم ، فان ميدان الانتاج قد اتسع إذا قيس بميدان الانتاج الذى كان يشغله أو يعمل فيه من قبل عامل واحد مستقل من عوامل الانتاج R. Jones, An Essay on the Distribution of Wealth, on Rent, London, 1831, p. 191.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الاجتماعى . إنها النتيجة المباشرة المترتبة على التعاون . حينما يتعاون عامل بطريقة منتظمة مع غيره من العمال فإنه يتجاوز أو يتخطى حدوده الفردية ويعمل على تنمية المقدرات capabilities التى يتميز بها بوصفه عضواً فى مجموعة أو جنس (١) .

ونقول بوجه عام إن العمال لا يستطيعون الاشتراك والتعاون مباشرة إلا إذا جمعوا فى صعيد واحد أى أن ارتباطهم المكانى مقدمة ضرورية لتعاونهم . وفيما يختص بالعمال الأجراء فإنهم لا يستطيعون التعاون إلا إذا استخدمهم رأسمالى معين أو مجموعة معينة من رأس المال فى نفس الوقت أى يشترى قوة عملهم جميعاً فى التو والحال . وقبل أن يجمع العمال سوياً فى عملية لا بد أن يكون فى جيب الرأسمالى قيمة قوة العمل المتحدة أى المجموع الكلى اللازم لدفع أجور العمال المتحدين أى المتعاونين خلال يوم أو أسبوع (حسبما تكون عليه الحال) . إن مقدار ما ينفق من رأس المال لدفع أجور ٣٠٠ عامل فى وقت واحد وإن كان ذلك لمدة يوم واحد فقط ، أكبر مما ننفقه فى دفع أجور عدد صغير من العمال بنظام الأسبوع خلال السنة كلها . ومن هنا يتوقف عدد العمال المتعاونين أو نطاق الإنتاج على مقدار رأس المال الذى يستطيع الرأسمالى الفردى إنفاقه فى شراء قوة العمل ، وبعبارة أخرى يتوقف على مدى تسلط رأسمالى واحد على وسائل عيش عدد من العمال .

وما ينطبق هنا على رأس المال المتغير يصدق كذلك على الثابت . فمثلا يتعين على الرأسمالى الذى يستخدم ٣٠٠ عامل أن ينفق فى مرة واحدة مقداراً أكبر على المادة الخام مما ينفقه أى واحد من الثلاثين رأسمالياً الذى يستخدم كل منهم ١٠ عمال . وفيما يتعلق بأدوات العمل التى يستخدمها العمال بالاشتراك فان قيمتها وكميتها لا يزيدان بنسبة الزيادة فى عدد العمال المستخدمين ، ولكنهما ينموان نمواً بالغا . إن تركز كميات كبيرة من أدوات الإنتاج فى أيدى رأسماليين فرديين شرط مادى أولى لا بد منه لتعاون العمال ، كما أن مجال التعاون أو نطاق الإنتاج يتوقف على مدى درجة مثل هذا التركز .

ونلاحظ أولا أنه كان على المجموع الفردى من رأس المال أن يبلغ حجما معينا قبل أن يكون فى عدد العمال المشتغلين فى نفس الوقت وبالتالى قبل أن يكون فى مقدار فائض القيمة ما يكفى لأن يجعل صاحب العمل فى غير حاجة إلى الاشتراك بنفسه فى العمل اليدوى وما يكفى لتحويله من صاحب عمل صغير (أوسطى) إلى رأسمالى وبذا يستهل الانتاج الرأسمالى بالمعنى

(١) إن قوى كل إنسان صغيرة جداً ولكن اتحاد هذه القوى الصغيرة يحقق نتيجة أعظم من مجرد جمع هذه القوى نفسها بطريقة حسابية ، فحينما تتحد القوى فانها تؤدى عملها فى وقت أقصر وتحقق نتيجة أوسع مدى ... .

G. R. Carli, note to P. Verri, op. cit., vol. xv, p. 196.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الذى تدل عليه هـذه العبارة . وإنا لنرى الآن أن نفس الشيء شرط أولى لا بد منه لتهيئة الأحوال المادية التى تجعل فى الإمكان جمع عـدد من عمليات العمل الفردية المستقلة المنعزلة بحيث تصير عملية عمل اجتماعية متحدة .

ونلاحظ أولا فضلا عن ذلك أن خضوع العمل لرأس المال لم يكن سوى النتيجة المترتبة على اشتغال العامل للرأسمالى لا لنفسه ، وبذا يضطر إلى العمل تحت سلطان الرأسمالى . ولكن حين يأخذ عدد كبير من العمال الأجراء فى التعاون يصبح أداؤهم العمل تحت رقابة وإشراف رأس المـال أمراً أساسيا لعملية العمل وشرطا ضروريا للانتاج ، وهكذا تصبح سيطرة الرأسمالى فى ميدان الإنتاج لا تقل ضرورة وأهمية عن سيطرة القائد فى ساحة القتال .

والعمل الاجتماعى ذو الصفة الإجتماعية أى عمل الجماعة على نطاق كبير يتطلب الإشراف عليه وتوجيهه بدرجة أكبر أو أقل ، ويحتـاج إلى الإدارة التى تنسق ما بين مظاهر النشاط الفردية وتؤدى الوظائف العامة التى تنتمى إلى حركة الجهـاز الانتاجى الموحد . إن عازف الكمان يدير أموره بنفسه ولكن فرقة العزف تحتاج إلى من ينظم أمرها ، وهـذه الوظيفة التى تنحصر فى الارشاد والاشراف والتنظيم تقع على عاتق رأس المال بمجرد أن يكتسب العمل الخاضع له الطابع التعاونى ، وتكتسب وظيفة الإدارة هـذه صفات ومميزات خاصة وذلك بوصفها وظيفة يقوم بها رأس المـال .

وغاية الانتاج الرأسمالى ، والقوة الدافعة له ، إن هى كلها إلا محاولة لتنمية التوسع الذاتى لرأس المال[1] أى إنتاج أكبر قدر ممكن من القيمة الفائضة ، وبالتالى استغلال قوة العمل إلى أقصى حد . ولكن لما كانت الزيادة فى عـدد العمال الذين يستخدمهم الرأسمالى تصحبها أخرى فى قوة مقاومتهم ، لهذا يحتاج رأس المال إلى قدر أكبر من الضغط للتغلب على هـذه المقاومة . إن الارشاد والاشراف الرأسماليين لا يبـدو أن لنا على أنهما بوجه خاص وظيفة ناشئة عن طبيعة عملية العمل الاجتماعية وخاصة بها ، ولكنهما يظهران كذلك على أنهما وظيفة الغرض منها استغلال عمليـة عمل اجتماعية ، وهى وظيفة تولدت عن التعارض الذى لا مفر منه بين المستغل والمادة الخام الحية التى يستغلها وعلى هذا كلما اتسع نطاق استخدام أدوات الانتاج التى تواجه العامل الأجير بصفتها ملك لآخر ، حدثت بنفس النسبة زيادة فى الحاجة إلى الاشراف والسيطرة على الاستغلال المقصود لهـذه الأدوات[2] . وفضلا عن هذا فما

---

(١) « الارباح ... هى الغاية الوحيدة من التجارة » ج. فاندرلنت ص ١١ .

(٢) فى العدد الصادر فى ٣ يوليه سنة ١٨٦٦ أشارت مجلة سيكتتور إلى ما أتبعته شركة عمـل الاسلاك بمنشستر من إدخال نوع من المشاركة بين الرأسمالى والعمال فقالت « وأول نتيجة ترتبت على ذلك كانت النقص المفاجىء فى المادة =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تعاون العمال الأجراء أكثر من نتيجة لرأس المال الذى يستخدمهم فى وقت واحد . إن الصلات التى تربط بين عمل هؤلاء وتعمل على توحيده لتكوين جهاز إنتاجى جماعى صلات خارجة وغريبة عنهم ولكنها كامنة فى رأس المال الذى يجمعهم سوياً . وعلى ذلك يبدو اتحاد عملهم بالنسبة اليهم على أنه خطة رسمها الرأسمالى كما يبدو فى الواقع ومن الناحية العملية على أنه وليد إرادة خارجة عنهم تخضع أعمالهم لخدمة أهداف ذلك الرأسمالى .

بهذا يقدم الارشاد والاشراف الرأسماليان لنا مظهرين مختلفين والسبب فى هذا أن عملية الانتاج الرأسمالية ذاتها ذات طبيعة مزدوجة ، فهى من جهة عملية عمل اجتماعية يراد بها إنتاج قيم استعمالية . ومن جهة أخرى عملية ترمى إلى تنمية التوسع الذاتى لرأس المال أى فائض القيمة . وفضلا عن هـــذا فان الارشاد والإشراف الرأسماليين يتخذان طابعاً استبدادياً ، وهذا الاستبداد يتخذ أشكالا خاصة كلما اتسع نطاق التعاون . ففى الأيام الأولى يتحرر الرأسمالى من الحاجة إلى قيامه بذاته بالعمل اليدوى وذلك حينما يبلغ رأس الحال الحد الأدنى الذى يبدأ عنده الإنتاج الرأسمالى . وكذلك الآن وفى هذه المرحلة المتأخرة من التطور نراه يتخلص من ضرورة قيامه بالإشراف الذاتى المتواصل على العمال الفرديين والمجموعات العاملة . ويكل هذه المهمة إلى نوع معين من العمال الأجراء . وكما هو الحال فى الجيش يجب أن يكون للعمال الكثيرى العدد الذين يتعاونون سويا ضباط رسميون (وهم المديرون) وغير رسميين (وهم مقدمو العمال والأسطوات الخ) وهؤلاء يديرون عملية العمل ويشرفون عليها باسم رأس المال . حين يوازن دخل الاقتصاد السياسى بين الأعمال الانتاجية التى يقوم بها الفلاحون المستقلون والصناع المستقلون وبين الانتاج القائم على عمل العبيد فى المزارع الكائنة بالأقاليم الاستوائية وشبه الاستوائية ، تراه يحدثنا بوجوب اعتبار وظيفة الاشراف فى الحالة الأخيرة داخلة فى مصاريف الانتاج النثرية (١) . ولكنه إذ يتحول إلى بحث موضوع الانتاج الرأسمالى فإنه يجعل مهمة الإدارة من حيث أنها ناشئة عن الطبيعة الأساسية لعمل العمل المتحدة مماثلة لنفس

= الى تذهب هباء فى العمل لأن العمال لم يروا داعياً لتبديد ما هو ملك لهم كما هو ملك لصاحب العمل ، ولعل التبديد المشار اليه بعد الديون الميتة من أعظم مصادر خسارة رجال الصناعة . وتحدثنا المجلة عما تقول إنه العيب الأساسى فى التجارب التعاونية فى روشديل فتقول « لقد أظهرت أن جماعات العمال تستطيع إدارة المحال والمصانع وكافة أشكال الصناعة تقريباً بنجاح ، وأدت إلى إحداث تحسين بالغ فى أحوال العمال ، ولكنها لم تدع مكاناً واحداً لأصحاب الأعمال » يالله من أمر فظيع !

(١) بعد أن يحدثنا الاستاذ كيرنز أن الاشراف على العمل ظاهرة أساسية للانتاج الذى يولده العبيد فى ولايات الاتحاد الأمريكى الجنوبية يقول « إن المالك (فى الولايات الشمالية) الذى يختص لنفسه بمنتج القرية كله لا يحتاج إلى دافع خلاف هذا على بذل المجهود ولهذا يتم هنا الاستغناء عن الاشراف تماما » .

The Slave Power, London, 1862, pa. 48-49.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المهمة لأنها نتيجة الطابع الرأسمالى لتلك العملية وبذا يجعلها التعارض بين صاحب رأس المال والعامل أمراً ضرورياً (١) . إن الرأسمالى لايصير كذلك لأنه يسيطر على الصناعة ، ولكنه يتحكم فى الصناعة لأنه رأسمالى ، فالسيطرة على الصناعة صفة لازمة لرأس المال كما كانت القيادة فى الحرب والجلوس فى محاكم القضاء من خواص الملكية الزراعية فى عصر الاقطاع (٢).

يملك العامل قوة العمل مادام يعرضها فى السوق كى يبيعها للرأسمالى ، وليس لديه مايبيعه سوى قوة العمل الفردية المنعزلة فى ذاتها . ولا يختلف الحال عن هذا لأن الرأسمالى يشترى قوة عمل مائة عامل أو يتعاقد مع مائة كل منهم مستقل عن الآخر ، وهو قادر على استخدام هؤلاء المائة دون أن يجعلهم يتعاونون ، وما يدفعه الرأسمالى إن هو إلا قيمة قوات عمل منفصلة يملكها مائة فرد وليس بقيمة قوتهم على العمل المتحدة . وبصفتهم أفراداً مستقلين فهؤلاء العمال أصبحوا ذوى علاقة بنفس الرأسمالى ولكن لم يقيموا علاقات فيما بينهم ، ولا يبدأ تعاونهم إلا بابتداء عملية العمل ولكنهم فى عملية العمل لا يعودون ملكا لأنفسهم بل يندمجون فى رأس المال إذ أنهم بصفتهم متعاونين وأعضاء فى جهاز عامل لايعدون كونهم أسلوبا خاصا معينا يبدو به رأس المال وبالتالى تكون إنتاجية العامل بوصفه عاملا متحداً مع غيره إنتاجية رأس المال . إن إنتاجية العمل المتزايدة التى تنجم عن الاتحاد شىء ينمو مجاناً بدون مقابل بمجرد أن يوضع العمال فى الأحوال والظروف التى يهيئها رأس المال . ونظراً لأن إنتاجية العمل المتحد العليا لا تكلف رأس المال شيئاً ونظراً لأن العامل (من جهة أخرى) لا يبدى هذه الانتاجية العليا إلا إذا صار عمله ملكا لرأس المال لهذا يبدو كأنما هذه الانتاجية العليا خاصية طبيعية يتميز بها رأس المال وتعزى خطأ إلى طاقة إنتاجية كامنة فيه .

ويمكن إدراك النتائج الداعية إلى الاعجاب والدهشة والمترتبة على التعاون المبسيط من دراسة المنشئات الضخمة التى أقامها أهل آسيا ومصر واتروريا الخ فى العصور القديمة . ولقد وجدت هذه الدول الشرقية بعد تغطية مصروفات المنشآت المدنية والعسكرية أن لديها فائضا تستخدمه فى إقامة المنشآت الرائعة أو ذات المنفعة وقد كان لسيطرتها على الفريق غير الزراعى من السكان الأثر فى إنتاج هذه الآثار الضخمة التى لا تزال تنهض دليلا على قوتها . فأنتج وادى النيل الخصيب .... الغذاء للفريق الوافر العدد من غير المشتغلين بالزراعة وهيأ ذلك

---

(١) يقول السير جيمس ستيوارت الذى يتميز بدقة ملاحظات الفوارق بين مختلف أساليب الانتاج « إن السبب الذى من أجله تؤدى المشروعات الكبيرة فى الصناعة إلى دمار الصناعة الخاصة الفردية يرجع إلى أنها تتبع أساليب تشبه بساطة العمل القائم على استغلال العبيد » . (مبادىء الاقتصاد السياسى ، لندن ١٧٦٧ جـ ١ ص ١٦٧ — ١٦٨) .

(٢) إن أوجست كونت وتلاميذه الذين يستخلصون ضرورة وجود أمراء رأس المال قد يستنتجون الضرورة الدائمة لوجود سادة الأرض الاقطاعيين .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الغذاء الذى كان ملكا للفراعنة والكهنة السبيل لاقامة الآثار الضخمة التى تملأ البلاد .... وقد استخدم العمل اليدوى وحده تقريبا فى نقل التماثيل الهائلة وكتل الحجارة الضخمة الأمر الذى يثير الاعجاب والدهشة .. وكان فى عدد العمال وتركز جهودهم الكفاية والغناء . إننا نرى صخوراً مرجانية ترتفع من أعماق المحيط مكونة جزراً وأرضاً ثابتة ولكن كل حيوان بحرى يودع هذه المادة مخلوق ضئيل ضعيف يدعو إلى احتقاره . إن العمال غير الزراعيين فى الملكيات الآسيوية لم يكن لديهم سوى جهودهم الجثمانية لأداء العمل ولكن عددهم الوفير كان مصدر قوتهم وسبب توجيه هذه الجماهير والاشراف عليها قيام القصور والمعابد والأهرامات والأعداد الهائلة من التماثيل الضخمة التى لا تزال بقاياها داعية إلى دهشتنا وحيرتنا . إن تركيز هذه الموارد التى تغذى السكان فى يد واحد أو عدد قليل مما جعل إقامة هذه المشروعات فى حيز الامكان»(١) . إن القوة التى كانت متركزة فى أيدى ملوك آسيا ومصر وحكام أتروريا المستبدين وأشباههم تحولت فى العصر الحديث إما إلى الرأسماليين الفرديين أو الرأسماليين الجماعيين كالحال فى الشركات المساهمة .

والتعاون فى أداء عملية العمل كما نراه فى فجر الحضارة (بين القبائل المشتغلة بالصيد (٢) مثلا ، أو فى الزراعة كما تمارسه الجماعات القروية فى بلاد الهند) يرتكز من جهة على الملكية المشتركة لأدوات الإنتاج ، ومن جهة أخرى على عدم انفصام صلة الدم التى تربط الفرد بالقبيلة بين تلك الشعوب البدائية ، فالفرد جزء من الجماعة كما أن النحلة العاملة جزء من الخلية . ولكن فى كلا المظهرين المشار إليهما يختلف التعاون البدائى عن التعاون الرأسمالى . كذلك حين ننظر إلى تطبيق التعاون من حين لآخر على نطاق واسع جداً فى العالم القديم والعصور الوسطى والحياة الحديثة بالمستعمرات نراه يقوم على علاقات مباشرة من السيادة والخضوع وفى الحقيقة على الرق . أما التعاون الرأسمالى من جهة أخرى فيفترض مقدما وجود العامل الأجير الحر الذى يبيع قوة العمل إلى رأس المال . وإذا درسناه من الوجهة التاريخية لوجدناه ينمو كمظهر معارض أو مناقض للزراعة التى يتولاها الفلاح ومناقض للحرفية المستقلة (سواء أكانت هذه منظمة فى ظل نقابات الحرف أم لا) (٣) وبخلاف هذه النواحى لا يبدو التعاون

(١) R. Jones, Textbook of Lectures, etc., pp. 77-78. وعما يشهد بعملية العمل الانتاجية هذه المجموعات الأشورية والمصرية القديمة وغيرها فى لندن وفى سواها من العواصم الأوربية .

(٢) لعل لينجويه على حق إذ يقول فى كتابه Théories des lois civiles إن صيد الحيوان كان أول أشكال التعاون عهداً ، وأن صيد الانسان (الحرب) كان أول شكل للمطاردة (الصيد) chase

(٣) كانت الزراعة الصغيرة التى يمارسها الفلاحون والحرف اليدوية المستقلة إلى حد ما الأسس التى قامت عليها طريقة الانتاج فى العصر الاقطاعى ، وظهرت جنبا إلى جنب مع الانتاج الرأسمالى بعد تحطم النظام الاقطاعى . وقد

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الرأسمالى لنا كشكل تاريخى خاص من أشكال التعاون ، بل نقول بالأحرى إن التعاون يبدو كشكل تاريخى خاص بعملية الإنتاج الرأسمالية يميزها عن غيرها بصفة خاصة .

وكما أن إنتاجية العمل الاجتماعية التى نمت بفضل التعاون تبدو كأنها إنتاجية رأس المال كذلك يتخذ التعاون نفسه مظهر كونه شكلا خاصاً بعملية الانتاج الرأسمالية كما تبدو معارضته للانتاج الذى يقوم به عمال مستقلون بل وصغار أصحاب العمل . والتحول إلى التعاون أول تغيير يطرأ على عملية العمل الفعلية حتى تخضع لسلطان رأس المال ، وهذا التحول يحدث بصفة تلقائية ، والفرض الأول الضرورى لتحققه وهو اشتغال كثير من العمال الأجراء فى وقت واحد فى أداء نفس عملية العمل هو النقطة التى يبدأ عندها الانتاج الرأسمالى وهى النقطة التى يتفق ظهورها مع نشأة رأس المال . وعلى ذلك إذا بدا أن الطريقة الرأسمالية فى الإنتاج لاغنى عنها من الوجهة التاريخية لتحول عملية العمل إلى عملية اجتماعية ، فإن هذا الشكل الاجتماعى الذى تتخذه عملية العمل يبدو من جهة أخرى وسيلة يستخدمها رأس المال لزيادة إنتاجية تلك العملية وبذا يسهل زيادة الاستغلال المربح للعمل . ويبدو التعاون فى شكله الأولى وعلى مابحثناه حتى الآن كأنه أمر ملازم للانتاج على نطاق ممتد أو متسع ، ولكنه ليس عنصراً ثابت الأسس مميزاً من العناصر التى يتكون منها عصر معين من عصور تطور الإنتاج الرأسمالى ، ويمكن أن ننظر إليه على أنه كذلك تقريباً فى الأيام الأولى للصناعة اليدوية (حين كان الطابع الحرفى الغالب عليها) [1] وفى ذلك النوع من الزراعة الكبيرة النطاق التى يتفق وجودها مع عصر الصناعة اليدوية والتى لاتتميز عن الزراعة التى يمارسها الفلاح الفردى إلا من حيث عدد العمال الذين يستخدمون فى العمل فى وقت واحد ، ومن حيث اتساع مدى أدوات الإنتاج التى جمعت بقصد استعمالها . إن التعاون البسيط يظل الشكل الغالب من التعاون فى فروع الانتاج التى يعمل فيها رأس المال على نطاق كبير ولكن لايلعب فيها تقسيم العمل والآلات دورا هاماً بعد .

إن التعاون دائماً عنصر أساسى فى الانتاج الرأسمالى ، وبينما هو بذرة أشكال أخرى أشد تعقيداً إلا أنه يظل قائماً إلى جانبها فى شكله البسيط أو الأولى كما وصفناه آنفا .

= كانت كذلك الأسس الاقتصادية لمجموعات الدول القديمة فى أيامها الأولى بعد اختفاء الملكية المشتركة الشرقية للارض وقبل أن يحوز الرق سيطرة فعالة على الانتاج .

(١) « سواء لم يكن اتحاد مهارة الكثيرين وجدهم وتنافسهم فى نفس العمل الوسيلة لتقدمه ؟ وسواء أكان من الممكن بغير هذا أن تواصل انجلترا صناعتها الصوفية إلى مثل هذا الحد العظيم من الاتقان ؟ »

Berkeley The Querist, لندن ١٧٥٠ : ص ٥٦ — ٥٢١

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الثانى عشر

تقسيم العمل والصناعة اليدوية

(١) أصل الصناعة اليدوية المزدوج

يتخذ التعاون القائم على أساس تقسيم العمل الشكل الخاص به وذلك فى الصناعة اليدوية . كما تكون له خلال عصرها الغلبة والسيادة بوصفه الشكل الذى تتميز به عملية الانتاج الرأسمالية. ويمكن القول عموما بأن هذا العصر يمتد من أواسط القرن السادس عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر .

تنشأ الصناعة اليدوية بطريقين أولهما حين يجتمع فى ورشة واحدة تحت إشراف رأسمالى واحد عمال يمارسون حرفا مختلفة مستقلة يجب أن تمر سلعة معلومة خلال أيديهم حتى يتم صنعها . فقد كانت العربة مثلا المنتج المشترك لعمل عدد كبير من رجال الحرف المستقل كل منهم عن الآخر من امثال صانع العجلات وعدة الحصان والحائك وصانع الأقفال والمنجد وعامل الزجاج والنقاش والمذهب الخ . هنا يجتمع مختلف رجال الحرف فى محل عمل واحد ويقومون بالعمل الذى يخرج من يد الواحد منهم إلى الآخر وهكذا . وبالطبع لا يمكن تذهيب العربة قبل صنعها ، ولكن إذا كان صنع عربات كثيرة يجرى فى وقت واحد أمكن أن يكون جزء منها فى أيدى المذهب بينما يمر جزء آخر فى مرحلة أولية من عملية الإنتاج . ولغاية الآن لا زلنا أمام التعاون البسيط الذى يجد المواد اللازمة له على هيئة الأفراد والأشياء ، ولكن سرعان مايحدث تغيير هام ذلك أن المنجد أو أى واحد من أهل الحرف إذ يشتغل خاصة فى مهمة صنع العربة لا يلبث بسبب نقص المران أن يفقد بالتدريج مقدرته على مواصلة حرفته اليدوية القديمة إلى أقصى حدها الكامل . ومن جهة أخرى نظراً لأن عمله ينحصر فى ناحية واحدة فانه يتعلم أداءها بقدر أكبر من الكفاية . لقد كان صنع العربة فى الأصل اتحاداً من حرف يدوية كل منها مستقلة عن الأخرى ، ولكن بمرور الوقت تنقسم عملية الصناعة إلى عدد من العمليات التفصيلية لا تلبث أن تتبلور كل منها بحيث تصبح الوظيفة الخاصة لعامل مخصوص ، ويقوم بالصناعة عموماً أولئك العمال عن طريق العمل المشترك . وقد نشأت بالمثل صناعة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

القماش وسلسلة من صناعات أخرى عن طريق اتحاد حرف يدوية مختلفة تحت سيطرة وحدات مفردة من رأس المال (١) .

أما فى الطريقة الثانية فإن نفس الوحدة من رأس المال تستخدم فى الورشة فى نفس الوقت عددا من العمال يؤدون جميعاً نفس الشيء أو أشياء متشابهة كعمل الورق والإبر . وهذا تعاون فى أبسط أشكاله إذ أن كلا من هؤلاء العمال (وربما بمساعدة صبي أو صبيين) يقوم بالعمليات التى يتطلبها صنع السلعة واحدة بعد الأخرى متبعاً أساليب حرفته اليدوية القديمة ، ولكن لاتلبث الظروف والأحوال الخارجية أن تحتم الالتجاء إلى طريقة مختلفة فى الانتفاع بتركز العمال فى نفس البقعة الواحدة وأدائهم العمل فى نفس الوقت الواحد . فمثلا يصير من الضرورى إنتاج كمية أكبر من السلع التامة الصنع خلال فترة معلومة ، ولذا يعاد توزيع العمل بحيث تفصل هذه العمليات ويجرى أداؤها جنباً إلى جنب ، وتخصص كل منها لعامل معين ، ويتمها العمال المتعاونون فى وقت واحـــد . وإذ يتكرر هذا التوزيع العرضى الجديد تبدو مزاياه ويتحول بمرور الوقت إلى توزيع للعمل وفق نظام معلوم ، وبهذا بدلا من أن تكون السلعة المنتج الفردى لعامل مستقل يقوم بعمليات كثيرة تتحول إلى منتج اجتماعى تخرجه مجموعة من العمال يؤدى كل منهم عملية واحدة لاغير . فالعمليات التى كانت فى حالة صانع ورق يتمى إلى إحدى نقابات الحرف الألمانية ممتزجة ببعضها بوصفها فعالا متتالية يقوم بها عامل واحد تصبح فى صناعة الورق اليدوية الهولندية عدداً من العمليات الجزئية يتولاها عدد من العمال يتعاونون فيما بينهم . وإن صناع الإبر المنتمين إلى نقابة الحرف فى نورمبرج يعتبرون الصورة التى قام على أساسها ونسقها زملاؤهم الانجليز ، ولكن بينما كان كل من الأولين يتولى عمليات مختلفة قد تبلغ العشرين عداً الواحدة تلو الأخرى تجد فى حالة صناعة الابر اليدوية بانجلترا أن نحو عشرين صانعا يؤدون فى وقت واحد عشرين عملية مختلفة بحيث يختص كل عامل فردى باحدى هذه الأقسام الفرعية .

(١) القطعة التالية مثال أحدث عهداً يوضح الطريقة التى تنشأ بها الصناعه اليدوية وهو عن صناعة غزل ونسج الحرير فى ليون ونيم . فهذه الصناعة تستخدم عـدداً كبيراً من النساء والأطفال دون أن تهك قواهم أو تفسدهم ، فهى تتركهم فى أوديتهم الجميلة (الدروم ، الفار ، إيزير ، فركلوز) حيث يربون دود القز ويفضون الشرانق ، ولا تأتى بهم مطلقاً إلى مصنع حقيقى . وبرغم كمال تقسيم العمل هنا إلا أن هذا المبدأ يتخذ صفة خاصة . فهنا عمال يقومون باللف والصياغة والغزل الخ ولـكنهم لا يجتمعون فى بناء واحد ، ولا يعتمد كل منهم على الآخر ، إنهم جميعاً يتمتعون بالاستقلال A. Blanqui : Cours d'économie industrielle, edited by A. Blaise, Paris, 1838-1839, p. 79. ومنذ أن كتب بلانكى الفقرة السابقه أخذ مختلف العمال المستقلين يتجمعون إلى حد ما فى مصانع .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بهذا نرى أن منشأ الصناعة اليدوية وتطورها من الحرفة اليدوية عملية مزدوجة فهى تقوم من جهة عن طريق اتحاد حرف يدوية مستقلة مختلفة لا تلبث أن تفقد استقلالها وتصبح موضع التخصص بحيث لا تعدو فى النهاية كونها عمليات جزئية تكمل كل منها الأخرى فى عملية إنتاج نفس السلعة الواحدة . وقد تنشأ من جهة أخرى عن طريق تعاون عمال يمارسون نفس الحرفة اليدوية الواحدة التى لا تلبث أن تنقسم إلى عمليات خاصة تصير كل منها منعزلة ومستقلة عن غيرها إلى الحد الذى يجعل أداءها منوطاً بعامل فردى مخصوص . وعلى ذلك نرى أن الصناعة اليدوية من جهة تدخل تقسيم العمل فى ميدان عملية إنتاجية أو تنمى هذا التقسيم أكثر مما هو عليه ، كما أنها من جهة أخرى تربط حرفاً يدوية كانت من قبل منفصلة فيما بينها . ومهما كانت نقطة الابتداء فإن النتيجه النهائية واحدة ألا وهى أداة إنتاجية أدواتها المخلوقات الآدمية .

ويتعين علينا أن نلم بالنقط التالية إذا أردنا أن نفهم تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية فهما صحيحاً صادقاً . فأولا يتفق تحليل عملية الانتاج إلى مظاهرها الخاصة مع انقسام الحرفة اليدوية إلى عملياتها الجزئية المختلفة . ولكن سواء كان ذلك معقداً أو بسيطاً فإن تنظيم العمل يظل جارياً حسب خطوط الحرفة اليدوية وبذا يتوقف على القوة والمهارة والسرعة والدقة التى يتناول بها العامل الفردى عدده وأدواته . وطالما احتفظت عملية الإنتاج بهذا الأساس الفنى الضيق فليس من الممكن إجراء تحليل علمى حقيقة ما دامت كل عملية جزئية يمر خلالها المنتج يجب أن تكون مما يمكن القيام به على أنه حرفة يدوية . وإلى نفس السبب الذى من أجله تظل المهارة فى الحرفة أساس عملية الإنتـــاج يرجع تخصيص وظيفة جزئية لكل عامل ، وبذا تصير قوته على العمل أداة هذه الوظيفة الجزئية بقية عمره . وثانياً فتقسيم العمل هذا ضرب مخصوص من التعاون والكثير من مزاياه نتيجة مترتبة على ماهية التعاون العامة لا على طبيعة هذا الشكل الخاص .

(٢) العامل الذى يقوم بعملية تفصيلية وأداته

إذا ما أمعنا النظر فى الموضوع لرأينا بادىء الأمر أن العامل الذى يمارس نفس العملية البسيطة الواحدة طيلة حياته إنما يحول جسمه إلى آلة أوتوماتيكية متخصصة لتلك العملية الأمر الذى يترتب عليه أن يصير قادراً على أدائها بأسرع مما يستطيع من يؤدى سلسلة كاملة من عمليات مختلفة . ولكن العامل الجماعى أو المتحد الذى تتكون منه أداة إنتاج المصنع اليدوى الحية أى العمال المشتغلين فيه ليس إلا المجموع المكون من أمثال هؤلاء العمال المتخصصين فى العمليات التفصيلية . وبناء على هذا إذا ما وازنا إنتاج المصنع اليدوى بالحرفة اليدوية المستقلة لوجدنا نظام المصانع اليدوية قادراً على أن ينتج مقدار أكبر فى وقت أقصر ، إذ بذلك تزداد

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إنتاجية العمل [١] . وعلاوة على هذا فإن طريقة العمل التفصيلى تزداد إتقانا وكمالا بعد أن تصبح الوظيفة الوحيدة التى يختص بها شخص واحد ، ذلك أن التكرار المتواصل لنفس العملية الواحدة المحدودة وتركيز انتباه العامل فى هذا الميدان الضيق يعلمانه بالتجربة كيف يدرك الغاية النافعة المرغوب فيها مع بذل الحد الأدنى من النشاط أو الطاقة . وإذ تعيش أجيال عدة من العمال سوياً فى نفس الوقت وتتعاون فى نفس الصناعة اليدوية فإن ما تكتسبه من حيل المهنة عن طريق التجربة تثبت دعائمه ويتراكم وتتناقله الأجيال واحداً بعد الاخر [٢] .

والواقع أن الصناعة اليدوية تولد مهارة العامل المختص بالعملية التفصيلية وذلك لأنها تعمل بانتظام داخل الورشة على أن يصل إلى غايته التمير بين الحرف التى تجدها هذه الصناعة بين يديها كشىء نما عن المجتمع نمواً طبيعياً . ومن جهة أخرى فتحول العمل التفصيلي إلى مهنة يمارسها الفرد طيلة حياته يطابق ماساد المجتمعات الأولى من ميل إلى جعل المهن وراثية وحصرها فى طبقات أو نقابات طوائف — وهذه العملية الأخيرة تحل محل الأولى حينما تجد ظروف وأحوال تاريخية خاصة تولد قدراً من قابلية التغير والتنوع لدى الأفراد مما لا يتسق ونظام الطبقات . فالطبقات ونظام الطوائف صورة تعبر عن نفس القانون الطبيعى كذلك الذى ينظم تقسيم النبات والحيوان إلى أنواع وفصائل ، والفارق الوحيد أنه عند بلوغ مرحلة أو ظاهرة معينة من التطور يتخذ طابع الوراثية فى الطبقات والاحتكارية فى نقابات الطوائف صفة القانون الاجتماعى [٣] . « ليس مايفوق حرايرالدكن فى رقتها ودقتها ، أو البفتة وغيرها

---

(١) كلما زاد توزيع الصناعة على عدد كبير من الصناع كلما أمكن الانتاج بطريقة أفضل وبسرعة أكبر وبقدر أقل من الوقت والعمل . The Advantages of the East Indian Trade (لندن ١٧٢٠ ص ٧١) .

(٢) يقول توماس هودجسكن ,, العمل السهل مهارة منقولة ،، .

(٣) ,, وكذلك بلغت الفنون ... فى مصر الدرجة اللازمة من الاتقان لأنها البلد الوحيد الذى لا يتداخل فيه الصناع فى شؤون طبقة أخرى من المواطنين ، بل يجب عليهم ممارسة العمل الذى يحتم القانون أن يكون وراثياً فى طائفتهم ... فى البلاد الأخرى يوزع التجار اهتمامهم على أشياء مختلفة فتارة يعملون فى الزراعة ، وأخرى فى التجارة ، وأحيانا يمارسون عملين أو ثلاثاً فى وقت واحد . وفى البلاد الحرة كثيراً مايرتادون الجمعيات الشعبية ، أما فى مصر فالقانون ينزل العقاب الشديد بالعامل الذى يتدخل فى شؤون الدولة أو يمارس حرفاً عدة فى وقت واحد . وهكذا ليس من شىء يحول دون انتظام مواصلتهم العمل الذى توافروا عليه ... وعلاوة على ذلك فكما أنهم يرثون عن أجدادهم قواعد وتنظيمات متعددة ، تراهم شديدى الشغف بكشف مزايا جديدة ،، (ديودور الصقلى — المكتبة التاريخية I, I, c. 74 .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من أقمشة إقليم كروما ندل من حيث بهاء اللون وثباته ، ولكن هذه المنسوجات يتم إنتاجها بدون رأس مال أو آلات أو تقسيم عمل أو أى من تلك الوسائل التى تهيىء التسهيلات للمشرفين على إنتاج المصانع اليدوية بأوربا . فليس النساج إلا فرداً مستقلا بعمله ينسج مايطلبه منه عميله مستخدماً فى ذلك ولا غاية فى بساطة التركيب يتركب أحياناً من بضع من فروع الشجر أو قضبان الخشب قد جمعت سوياً بطريقة أولية ، بل إنك لا تجد لديه وسيلة للف النسيج وبذا لابد من مد النول إلى الحد الأقصى من طوله الأمر الذى يجعله كبيراً بحيث لا يمكن أن يظل داخل كوخ الصانع الذى يضطر إلى أداء عمله فى الهواء الطلق حيث يتعرض للعطل نتيجة كل تقلب يطرأ على الجو (١) ويكتسب الهندى هذه المقدرة ، كما يفعل العنكبوت ، بفضل المهارة الناجمة عن التخصص والتى تتجمع من جيل إلى جيل ويتوارثها الأبناء عن الاباء . ومع هذا فالعمل الذى يؤديه مثل هذا النساج الهندى شديد التعقيد إذا ماقيس بما يقوم به معظم العمال فى المصانع اليدوية .

وصاحب الحرفة اليدوية الذى يمارس مختلف العمليات التفصيلية اللازمة لعمل المنتج التام واحدة بعد الأخرى مضطر إلى تغيير مكانه وعدده من وقت إلى آخر ، كما يعطل الانتقال من عملية إلى أخرى سير العمل وبذا يحدث ثغرات فى يوم العمل ، ولكن هذه الثغرات تسد حينما يقوم العامل بأداء نفس العملية الواحدة باستمرار خلال يوم العمل أو أنها تقل بنسبة الهبوط فى درجة وقوع تغيرات فى العملية . ويرجع تزايد الإنتاجية إما إلى ازدياد مايبذل من قوة العمل فى فترة معلومة من الوقت (أى إلى ازدياد حدة العمل) وإما إلى خفض فى الاستهلاك غير الإنتاجى لقوة العمل . والافراط فى بذل النشاط وهو مايتطلبه الانتقال من الراحة إلى الحركة تعوضه الإطالة فى السرعة العادية إذا ما تم إدراكها . ومن جهة أخرى فإن العمل المتصل من نوع متجانس يسىء إلى حدة وقوة غرائز الانسان الحيوانية التى تجد فى تغيير العمل والجهد باعثاً على تجديدها ودافعاً لها .

ولا تتوقف إنتاجية العمل على مهارة العامل فحسب ، بل وعلى جودة العدد ، فالأدوات التى من نوع واحد كالسكاكين والمثاقيب والبرمات الصغيرة والمطارق الخ يمكن استعمالها فى عمليات عمل مختلفة ، كما قد تصلح أداة واحدة لأغراض مختلفة فى نفس عملية العمل . ولكن

---

(١) Historical and Descriptive Account of British India, etc., by Hugh Murray and James Wilson, etc, Edinburgh, 1832, vol. 11, p. 449.
النول الهندى رأسى بمعنى أن السداة تنشر وتمد بطريقة رأسية .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بمجرد أن تنفصل العمليات المختلفة الواحدة عن الأخرى وبمجرد أن تكتسب العملية الجزئية التى يؤديها عامل الشكل الأصلح والأكثر ملاءمة أصبحت التغييرات فى الأدوات التى ظلت صالحة لأغراض مختلفة أمراً ضرورياً . ويتحدد اتجاه أمثال هذه التغييرات فى الشكل عن طريق الخبرة المكتسبة من الصعاب الناشئة عن استخدام شكل غير متغير من الأدوات فالإنتاج فى المصنع اليدوى يتميز بتنويع أدوات العمل وهو ما تكتسب بفضله أدوات من نفس النوع أشكالا خاصة دائمة مطابقة لأغراض خاصة نافعة ، كما يتميز بتخصص الأدوات . وهو الأمر الذى يتيح للعمال المختصين بالعمليات التفصيلية استخدام هذه الأدوات البالغة حداً عالياً من التخصص إلى أقصى حد لذلك . ففى برمنجهام وحدها تصنع حوالى خمسمائة نوع مختلف من المطارق ، ولكن يجب ألا يتبادر إلى الظن أن كلا منها يصلح لبعض عمليات إنتاج بكليتها إذ هناك فى كثير من الحالات أنواع عدة لأداء عمليات مختلفة بوصفها أجزاء من نفس العملية . إن عصر إنتاج المصانع اليدوية يعمل على تبسيط أدوات العمل ويؤدى إلى تحسينها ومضاعفتها وذلك بأن يجعلها ملاءمة للوظائف الخاصة التى تناط بالعامل المتخصص فى عملية تفصيلية ، كما أنه فى الوقت ذاته يولد الشروط المادية اللازمة لوجود الالات الميكانيكية التى تنشأ من اتحاد أدوات بسيطة .

فالعامل المختص بالعملية التفصيلية يكوّن مع أدواته العناصر البسيطة لانتاج المصانع اليدوية . وعلينا الان أن ننتقل إلى بحث مظهر إنتاج المصنع اليدوى بوجه عام .

(٣) الشكلان الأساسيان لانتاج المصنع اليدوى (للصناعة اليدوية)

الشكل غير المتجانس والشكل العضوى

ينقسم إنتاج المصنع اليدوى إلى شكلين أساسيين . وبرغم تداخلهما أحيانا هنا وهناك إلا أن كلا منهما متميز عن الاخر تماماً ، وهما يلعبان بصفة خاصة دورين مختلفين اختلافاً كلياً حينما يتحول فى النهاية انتاج المصنع اليدوى الى الصناعة الكبيرة الحديثة التى تقوم بها الالات . هذه الصفة المزدوجة ناشئة عن طبيعة المنتج ، فالسلعة التامة الصنع تتكون إما عن طريق الضم الالى البسيط لمنتجات جزئية تم صنع كل منها على حدة واما نتيجة سلسلة من العمليات والتحولات التى يعتمد كل منها على الأخرى .

فالقاطرة مثلا تتكون من أكثر من خمسة آلاف جزء مستقل ولكننا لانستطيع أن نتخذ من القاطرة أنموذجاً للنوع الأول من انتاج المصنع اليدوى بمعناه الصحيح لأنها من منتجات

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الصناعة الكبيرة ، ولذا فالتمثيل بالساعة قد يكون أصلح لتحقيق الغرض الذى أمامنا ، ولنذكر أن وليم بتى استخدم الساعة لتوضيح تقسيم العمل فى انتاج المصنع اليدوى . لقد كانت الساعة قديماً يقوم بإنتاجها أحد أرباب الحرف فى نورمبرج ، أما اليوم فهى المنتج الاجتماعى لعدد كبير جداً من العمال المضطلعين بتفاصيل العمل من أمثال صناع الزنبركات والميناء والعقارب والغلاف والمسامير المحواة والعجلات والتروس الخ ... وقليل من الأجزاء الساعة يمر خلال عدة أيدى كما أن هذه الأجزاء المتصلة لا تتجمع سوياً إلا بعد أن تصل الى ايدى شخص معين يقوم بضم هذه الأجزاء بعضها الى بعض كى يجعل منها شكلا ميكانيكياً . وفى هذا المثال الذى ضربناه كما هو الحال فى السلع الأخرى التامة الصنع تجد أن طبيعة العلاقة بين المنتج النهائى والعناصر المتنوعة التى يتركب منها تجعل اجتماع العمال أو عدم اجتماعهم تحت سقف واحد أمراً وليد الصدفة ، فقد يتم إجراء العمليات الجزئية أحيانا كأنها حرف يدوية مستقلة كما هو الحال فى مقاطعتى القود ونيوشاتل بينما تجد فى جنيف مصانع كبيرة لعمل الساعات وفيها يتعاونون عمال العمليات التفصيلية مباشرة تحت اشراف وحدة واحدة من راس المال ، وحتى فى الحالة الأخيرة يكون من النادر عمل الميناء والزنبركات والغطاء فى المصنع . إن تركز العمال فى مهنة عمل الساعات تحت سقف واحد بقصد مواصلة انتاج المصنع اليدوى نادراً ما يكون أمراً مجزياً إذ المنافسة أعظم درجة بين العمال الذين يزاولون أعمالهم فى بيوتهم ، كما أن تقسيم العمل الى عدد من العمليات المتباينة لا يدع إلا مجالا صغيراً لاستعمال أدوات الانتاج المشتركة ، وحينما تتفرق الصناعة اليدوية فان هذا يوفر على صاحب رأس المال المبالغ التى ينفقها على الورش وما الى ذلك[1] . ولكن هؤلاء العمال الذين يشتغلون لحساب الرأسمالى برغم أنهم يؤدون العمل فى

---

(١) فى سنة ١٨٥٤ أنتجت جنيف ٨٠٠٠٠٠ ساعة وهذا لا يعادل خمس ما تنتجه مقاطعة نيوشاتل ، وتنتج Chauxtde—Fonds (التى لا تزيد عن كونها مصنعاً واحداً كبيراً للساعات) ضعف ما أخرجته جنيف . وأنتجت جنيف ٧٥٠٠٠٠٠ ساعة فيما بين ١٨٥٠، ١٨٦١ — انظر Report from Geneva on the Watch Trade, Reports by H. M.'s Secretaries of Embassy and Legation on the Manufactures, Commerce, etc. (رقم ٦ ، ١٨٦٣) . فى حالة سلعة كالساعة حيث السلعة التامة الصنع مكونة من عدد من الأجزاء تجد من الصعب تحويل مثل هذه الصناعة اليدوية إلى فرع من الصناعة الكبيرة حيث تستخدم الآلات ، ذلك بسبب عدم وجود الصلة بين مختلف العمليات ، ولكن فيما يتعلق بالساعة تجد عقبتين فى وجه مثل هذا التحويل أولاهما صغر ودقة الأجزاء التى تتكون منها ، وثانيتهما أن الساعة أداة ترف . ومن هنا يأتى اختلاف أنواع الساعات بحيث أنك قلما تجد أحسن بيوت لندن يصنع فى المئة إثنى عشرة ساعة متشابهة . ومن جهة أخرى ففى فاشيرون وقنسطيطين حيث استخدمت الآلات بنجاح فى مصنع الساعات تجده ينتج على الأكثر ثلاثة أو أربعة أحجام وأنواع مختلفة من الساعات .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بيوتهم ـ نقول إن مركز هؤلاء مختلف جداً عن مركز أرباب الحرف المستقلين الذين يعملون لعملائهم(١) .

أما النوع الثانى من إنتاج المصنع اليدوى وهو الشكل الكامل منه فينتج سلعاً تامة الصنع تمر خلال مراحل تعتمد الواحدة على الأخرى أى خلال سلسلة متدرجة من العمليات، ومن أمثلة ذلك عملية صنع الإبرة التى فيها يمر السلك الذى تصنع منه خلال أيدى ما بين اثنين وسبعين واثنين وتسعين من عمال المسائل التفصيلية .

وبقدر ما يسبب إنتاج المصنع اليدوى اتحاداً بين حرف كانت فى أول الأمر متميزة فانه يعمل على خفض مدى الانفصال المكانى بين المظاهر الخاصة فى إتمام المنتج النهائى ، فيقصر الوقت اللازم للانتقال من مرحلة الى أخرى ، كما ينخفض العمل الذى يسبب هذا الانتقال(٢). وبالموازنة مع الحرف اليدوية نرى أن انتاج المصنع اليدوى يكسب من ناحية الطاقة الانتاجية وهذا الكسب ناجم عن الصفة التعاونية العامة للانتاج . ومن جهة أخرى نجد أن تقسيم العمل وهو المبدأ الذى يتميز به إنتاج المصنع اليدوى يتطلب فصل مظاهر الانتاج المختلفة التى يتبع كل منها الآخر كأنها عـــدد كبير من عمليات الحرف اليدوية التفصيلية . ويستدعى قيام علاقة بين الوظائف المستقل كل منها عن الأخرى انتقال السلعة باستمرار من يد إلى أخرى ومن عملية الى غيرها . ولو نظرنا الى هذا الأمر من وجهة نظر الصناعة الكبيرة لبدا أنه من المساوىء المميزة والكثيرة الكلفة والكامنة فى المبدأ الذى يقوم عليه انتاج المصنع اليدوى(٣) .

حينما نبحث مقداراً محدوداً من المادة الخام كالخرق فى صناعة الورق والسلك فى صناعة الإبر لوجدناه فى أيدى العمال المشتغلين بالأمور التفصيلية يمر فى سلسلة متتالية من مظاهر أو مراحل الانتاج الى أن يتم إعداد الشكل النهائى . ولكن اذا تأملنا الورشة على أنها جهاز آلات كامل الأجزاء لرأينا أن المادة الخام توجد فى نفس الوقت فى كافة مظاهر الانتاج فى نفس

---

(١) عمل الساعات مثال للصناعة اليدوية غير المتجانسة ، وفيها تسهيلات غير مألوفة لدراسة ما سبق ذكره من مظاهر التميز بين أدوات العمل وتخصصها ، وهو ما يعد نتيجة انقسام الحرف اليدوية أقساماً فرعية

(٢) لابد أن يكون النقل أقل فى مثل هذه الحالة حين يسكن الناس قريبين بعضهم مع بعض ،،

The Advantages of the East Indian Trade, p. 106.

(٣) إن عزل المراحل المختلفة فى الصناعة اليدوية وهو الأمر الذى يترتب على استخدام العمل اليدوى ، مما يزيد نفقة الانتاج زيادة بالغة ، وتنشأ الخسارة فى الغالب من الانتقال من عملية إلى اخرى ،،

The Industry of Nations, London, 1855, pt, II, p, 200.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الوقت الواحد ، فالعامل الجماعى (أى الوحدة المكونة من العمال الفرديين المشتغلين بالعمليات التفصيلية) يستخدم بعض أياديه الكثيرة (أى العمال الفرديين) المزودة بالعدد فى سحب السلك ، ويستخدم غيرها فى نفس الوقت فى مده وقطعه وتدبيبه وهكذا . فالعمليات التفصيلية المختلفة تتجمع فيما بينها فى مكان واحد برغم توالها الزمنى أى وقوع كل منها بعد الأخرى ، وإلى هذا يرجع الفضل فى إمكان إنتاج مقدار أكبر من السلع التامة الصنع فى وقت معلوم[1] . حقيقة إن التوافق الزمنى أى وقوع الأشياء فى وقت واحد ، نتيجة مترتبة على الشكل التعاونى العام للعملية كلها . ولكن إنتاج المصنع اليدوى لا يقتصر أمره على أنه يجد ظروف التعاون قائمة معدة أمامه نظراً لأنه من جهة يخلق هذه الأحوال أو الشروط عن طريق تقسيم عمليات الحرفة اليدوية إلى أقسام فرعية ، غير أنه يسبب هذا التنظيم الاجتماعى لعملية العمل وذلك لمجرد أنه يربط كل عامل بعملية تفصيلية معينة يتعين عليه أداؤها .

لما كان المنتج الجزئى الذى يتمه كل عامل مختص بعملية تفصيلية لا يعدو كذلك ان يكون مظهراً من مراحل التطور التى يمر خلالها المنتج إلى حين إتمام صنعه ، ترتب على هذا أن ما يتمه كل عامل أو كل مجموعة من العمال يصلح كالمادة الخام التى يبدأ بها عامل آخر أو مجموعة أخرى من العمال ، وبهذا يهيىء كل عامل عملا لمن يأتى بعده أو يعقبه . ومقدار وقت العمل اللازم لإدراك الهدف النافع المرغوب فيه فى كل عملية جزئية يتحدد عن طريق التجربة ، والجهاز الآلى الكامل لإنتاج المصنع اليدوى يقوم على فرض تحقيق نتيجة معلومة فى فترة معلومة من وقت العمل ، وعلى أساس هذا الفرض وحده يمكن لعمليات العمل المختلفة التى يكمل بعضها بعضاً أن يتم أداؤها فى وقت واحد وباستمرار دون أن يعوقها ما يعطل سيرها . ومن الواضح أن اعتماد العمليات وبالتالى العمال كل على الآخر اعتماداً مباشراً يجعل من اللازم ألا يبذل كل فرد أكثر من وقت العمل اللازم لقيامه بوظيفته الخاصة المنوطة به . وبهذا نجد أن استمرار العمل وانتظامه وانسجامه[2] . وأكثر من هذا حدته تختلف جميعها فى حالة

---

(١) „ يصيب „ تقسيم العمل كذلك وفراً فى الوقت نتيجة فصل العمل إلى فروعه المختلفة وكلما يمكن إتمامها فى نفس اللحظة .... ونظرا لأداء العمليات المختلفة مرة واحدة وهى العمليات التى لابد لفرد واحد أن يؤديها كلا على حدة ، يصبح فى الامكان انتاج عدد كبير من الدبابيس تامة الصنع فى نفس الوقت الذى يجرى فيه قطع دبوس واحد أو تدبيبه „ Dugald Stewart, op. cit., p. 319.

(٢) كلما زاد تنوع الصناع فى كل صناعة ... زاد الانتظام فى كل عمل ، ويجب أن يتم أداء هذا فى وقت أقل وبعمل أقل „ The Advantages of the East Indian Trade, p, 68.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إحدى العمليات التى يتكون منها إنتاج المصنع اليدوى عنها فى حالة الحرفة اليدوية المستقلة أو حتى فى حالة التعاون البسيط . وإذن تبدو القاعدة القائلة بألا يبذل فى إنتاج السلعة أكثر من وقت العمل اللازم فى ظل أحوال اجتماعية معلومة كأنها قاعدة عامة فى إنتاج السلع تدعمها وتثبت قواعدها قوة المنافسة ، ذلك أن كل منتج فردى ـ إذا شئنا ببساطة التعبير ـ ينبغى له أن يبيع السلعة بسعر السوق . ومع هذا ففى إنتاج المصنع اليدوى يكون إنتاج كمية معلومة من المنتج فى مقدار معلوم من وقت العمل قانوناً فنياً من قوانين عملية الانتاج ذاتها (١).

ولكن تحتاج العمليات المختلفة إلى فترات من الزمن مختلفة كى يتسنى أداؤها ، وعلى ذلك ففى فترات الوقت المتساوية يتم صنع مقادير غير متساوية من المنتجات الجزئية . فاذا كان على نفس العامل أن يؤدى نفس العملية ولاشىء سواها يوماً بعد يوم ترتب بعد ذلك ضرورة وجود أعداد متفاوتة من العمال لممارسة العمليات المختلفة . وهنا نجد مرة أخرى تعاوناً فى أبسط ضروبه وهو استخدام أفراد كثيرين فى نفس الوقت لعمل نفس الشىء الواحد ، ولكن هذا عبارة عن صورة تعبر عن علاقة عضوية . وعلى ذلك فتقسيم العمل فى نظام إنتاج المصنع اليدوى لا يقف عند حد تبسيط ومضاعفه أجهزة العامل الجماعى المختلفة من حيث الكيف أى النوع وإنما يقيم نسبة رياضية ثابتة بين أعداد هذه الأخيرة ويحدد عدد العمال أو حجم المجموعات العاملة بالنسبة لكل وظيفة خاصة معينة ، فهو بينما يقسم عملية العمل أقساماً فرعية من ناحية الكيف يحدد قاعدة ثابتة من حيث الكم ويقيم تناسباً ثابتاً بالنسبة إلى هذه العملية .

واذا ما حدث أن هدت التجربة الى تحديد أصلح النسب العددية لمختلف أنواع مجموعات عمال المسائل التفصيلية فى مجال معين من الانتاج صار امتداد ذلك المجال غير مستطاع إلا باستخدام مضاعفات كل مجموعة عاملة معينة (٢) . وفضلا عن هذا فهناك أنواع معينة من العمل يستطيع الفرد فيها أن يؤدى على نطاق كبير نفس القدر من العمل الذى يقوم به على نطاق أصغر ومثال ذلك الرقابة ونقل المنتجات الجزئية من إحدى مظاهر الانتاج الى غيرها

---

(١) برغم هذا ففى فروع كثيرة من الصناعة يحقق نظام الصناعة اليدوية هذه النتيجة بطريقة ناقصة نظراً لنقص قوة الضبط الدقيق على الأحوال الكيماوية والطبيعية فى عملية الانتاج .

(٢) « نظرا للطبيعة الخاصة المميزة لمنتج كل مصنع يدوى (حين نتأكد من عدد العمليات التى تنقسم إليها مما يعود بالفائدة ، وحينما نتأكد من عدد الأفراد الذين تستخدمهم ، ففى هذه نجد أن بقية المصانع اليدوية الأخرى التى لا تستخدم مضاعفات هذا العدد تنتج نفس السلعة بنفقة أعظم .. ومن هنا أحد أسباب كبر حجم المنشآت الصناعية C. Babbage : On the Economy of Machinery (الطبعة الأولى ، لندن ١٨٣٢ ، الفصل الحادى والعشرون ص ١٧٢– ١٧٣)

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وهكذا . وعلى ذلك فإسناد هذه المهام الى عمال مخصوصين يصبح مفيداً حين يتضاعف عدد العمال ، ولكن هذا التضعيف يجب أن يؤثر فى كافة المجموعات نسبياً .

والمجموعة الفردية من عمال يضطلعون بنفس المهمة الجزئية تتكون من عناصر متجانسة كما أنها جزء مخصوص من الأجزاء التى يتكون منها الجهاز العامل كله . ومع هذا فإنا نجد فى بعض الصناعات اليدوية أن المجموعة نفسها هى هيئة العمل المنظمة وأن الجهاز الكامل كله يتكون بواسطة تكرار ومضاعفة هذه المجموعات أو العناصر الإنتاجية الأولية . ومن الأمثلة على ذلك عمل القوارير من الزجاج لأنه ينقسم ثلاث مراحل أو مظاهر يتميز كل منها عن سواه تميزاً أساسياً . فلدينا أولا المرحلة الإعدادية أى تحضير المواد والعناصر التى يصنع منها الزجاج ، وخلط الرمل والجير ، وتسخين هذا المزيج حتى تتكون لدينا كتلة من الزجاج المذاب[1]. فى هذه المرحلة الأولى يجرى استخدام مختلف العمال فى الأعمال الجزئية التفصيلية ، ويصدق نفس الأمر على المرحلة الختامية وهى إنتاج القوارير من أفران التجفيف وترتيبها وتعبئتها وما إلى ذلك . ويقع بين هاتين المرحلتين الأولى والختامية صنع الزجاج بالمعنى المراد من هذه العبارة ونقصد بذلك تشكيل الزجاج المذاب وصياغته . فعند كل من فتحات الفرن نجد مجموعة من خمسة عمال يطلق عليها اسم hole ويقوم كل منهم بعمل تفصيلى خاص ولكنهم يقومون بالعمل بصفتهم وحدة لا تستطيع أداء عملها إلا إذا تعاون الخمسة فيما بينهم بحيث يتوقف عمل المجموعة كلها إذا تغيب أحد أفرادها . ولكن لكل فرن عدة فتحات يتراوح عددها فى انجلترا ما بين ٤ ، ٦ ولكل منها وعاء ملىء بالزجاج المذاب كما أن كلا منها تهىء عملا لمجموعة مماثلة مكونة من خمسة من العمال . ويقوم تنظيم كل جماعة مباشرة على تقسيم العمل بينها الصلة التى تربط ما بين المجموعات الخمس صلة من التعاون البسيط الذى يرجع اليه الفضل فى أن أداة الانتاج (وهى فرن الإذابة فى هذا المثل) يمكن استخدامها بطريقة أدعى إلى الاقتصاد والوفر نظراً لأنها تستعمل بالاشتراك . ومن هذا الفرن بمجموعاته التى يتراوح عددها بين ٤ ، ٦ يتكون ما يقال له « بيت الزجاج » ويضم المصنع عدداً من هذه البيوت مع الجهاز العامل والعمال مما تتطلبه المرحلتان الأولى والختامية فى عملية الانتاج .

وأخيراً كما أن الصناعة اليدوية تنمو عن طريق ربط حرف يدوية مختلفة فانها تستطيع كذلك أن تنمو فتصبح اتحاداً أو ارتباطاً بين صناعات يدوية مختلفة . ومثال ذلك أن معامل

---

(١) فى انجلترا تجرى كل من عمليتى إذابة وصنع الزجاج فى فرن خاص بها ، أما فى بلجيكا فتجرى العمليتان فى نفس الفرن الواحد .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الزجاج فى انجلترا تتولى عمل الأوانى الفخارية اللازمة لها لأن نجاح المنتج أو فشله يتوقف إلى حد كبير على جودة هذه الأوانى وهنا نجد لدينا ارتباطا بين صنع إحدى أدوات الانتاج وصنع المنتج ذاته . وبالعكس يمكن أن يتحد صنع المنتج بصناعات أخرى يقوم بالنسبة اليها بوظيفة المادة الخام أو يتحد بمنتجاتها بطريقة أو أخرى . فمثلا ترتبط صناعة الزجاج من الصوان أحياناً بقطع الزجاج بصناعة brass Founding إذ يستخدم النحاس كأجزاء معدنية فى سلع مختلفة مصنوعة من الزجاج . هذه الصناعات اليدوية المختلفة التى ارتبطت فيما بينها تكون أقساماً (يزداد أو يقل انفصالها من حيث المكان) من الصناعات اليدوية الكلية ، ولكنها فى الوقت ذاته عمليات إنتاجية مستقلة لكل منها طريقتها فى تقسيم العمل الخاص بها . وبرغم ما لأمثال هذه الصناعات المرتبطة فيما بينها من مزايا كثيرة فانها لا تكتسب على أساس الصناعة اليدوية البسيطة وحدة فنية حقيقية لأن الوحدة الفعالة لا تحدث إلا حين تحل الصناعة الآلية محل الصناعة اليدوية .

وفى عهد الصناعة اليدوية سرعان ما أصبح خفض مقدار وقت العمل اللازم لإنتاج السلع مبدأ فى العمل له غايته[١] ، واستخدمت خلال ذلك العصر الآلات هنا وهناك وخاصة بقصد أداء عمليات بسيطة معينة يمكن القيام بها على نطاق واسع وتتطلب بذل مقدار كبير من النشاط أو الطاقة فمثلا فى صنع الورق بالمصنع اليدوى كان عمل العجينة من الخرق يتم فى معامل الورق[٢] . وقد ورث العالم عن الإمبراطورية الرومانية الشكل الاولى من الآلات على هيئة الطاحون المائى[٣] . وقد تمت خلال عصر الحرف اليدوية كشوف عظيمة كالبوصلة والبارود والطباعة والساعة الأوتوماتيكية . وعلى العموم لعبت الآلات الدور الثانى الذى نسبه اليها آدم سميث وذلك بالقياس إلى تقسيم العمل[٤] . وكان استخدام الآلات فى نواح

---

(١) أنظر The Advantages of the East Indian Trade وكذلك كتابات و . بتى ، جون بيلرز ، أندرو بارانتون ، ج . فاندرلنت .

(٢) حتى أواخر القرن السادس عشر كانوا لا يزالون فى فرنسا يستعملون الهاون والمنخل اليدوى لسحق ودق الخامات المعدنية .

(٣) يمكن أن نقتفى آثار تاريخ تطور الآلات فى تاريخ طواحين الغلال corn mills ، ففى انجلترا لا زالوا يطلقون كلمة mill على المصنع factory ، وفى ألمانيا استعملوا فى أوائل القرن التاسع عشر كلمة muhle للدلالة لا على الآلات التى تديرها قوى الطبيعة فحسب ، بل وعلى جميع المصانع اليدوية التى يستخدم فيها أى جهاز من نوع الآلة .

(٤) وكما سنرى حين نشرح نظريات القيمة الفائضة بالتفصيل ، لم يأت آدم سميث بأى رأى جديد بصدد

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

متفرقة خلال القرن السابع عشر ذا نتائج خطيرة إذ هيأت للرياضيين في تلك الأيام أساساً عملياً ودافعاً على خلق وابتداع علم الميكانيكا الحديث .

و « الآلات » المخصوصة التي تتميز بها فترة الصناعة اليدوية هي العامل الجماعي الذي يتكون من ارتباط العمال الذين يقوم كل منهم بعملية تفصيلية . والعمليات المختلفة التي يؤديها منتج السلعة واحدة بعد أخرى تفرض عليه حقوقاً وواجبات متباينة الأنواع . فعليه أن يبذل قدراً أكبر من حيث القوة في إحدى العمليات ، ومن المهارة في ثانية ، ومن الانتباه الشديد في عملية ثالثة . وليس من فرد قد وهبته الطبيعة هذه المزايا جميعاً إلى حد الكمال ، فبعد أن يتم عزل العمليات المختلفة واستقلال كل منها ، يجرى فصل العمال وترتيبهم وتجميعهم في مجموعات تبعاً لمواهبهم الغالبة . فاذا كانت مواهبهم الطبيعية أساس تقسيم العمل تجد الصناعة اليدوية من جهة أخرى تنمي فيهم قوى عاملة أعدتها الطبيعة لوظائف قليلة متخصصة . ويملك العامل الجماعي جميع الصفات الإنتاجية بدرجة متساوية من الجودة ، ويستطيع في نفس الوقت أن يستخدمها بطريقة تحقق أعظم الوفر لأنه يستخدم جميع أعضائه (أي العمال أو مجموعات العمال) لأداء مهام مخصوصة[١] . فالنقص في العامل الذي يقوم بعملية تفصيلية يصبح كمالا حين ننظر إليه على أنه عضو من أعضاء العامل الجماعي[٢] . وعادة أداء شيء واحد فقط تحوله إلى أداة لا تخيب في عملها . بينما تضطره علاقته بالجهاز الكلي إلى العمل بذلك القدر من الانتظام الذي يتميز به كل جزء من أجزاء الآلة[٣] .

= تقسيم العمل . والشيء الذي جعل منه أعظم الاقتصاديين الكلاسيك في عصر الصناعة اليدوية إنما ما علقه من عظيم الأهمية على تقسيم العمل . والأهمية الضئيلة التي علقها على الآلات كانت سبباً في الجدل من جانب لاودرديل في أوائل عهد الصناعة الكبيرة ، ويور بعد أن قطعت شوطاً في تطورها ونموها . وفضلا عن هذا خلط آدم سميث بين اختراع الآلات وبين التفرقة والتمييز بين أدوات العمل (وهو الأمر الأخير الذي يلعب فيه عمال المسائل التفصيلية في الصناعة اليدوية دوراً فعالا) . وفيما يتعلق بالأخير فالذي لعب الدور الهام لم يكن عمال الصناعة اليدوية ، بل رجال العلم وأهل الحرف اليدوية وحتى الفلاحين (برتدلي) .

(١) إذا قسم صاحب الصناعة العمل المراد أداؤه إلى عمليات مختلفة يتطلب كل منها درجات مختلفة من المهارة والقوة ، فانه يستطيع أن يشترى تماماً تلك الكمية منهما اللازمة لكل عملية ، بينما إذا قام عامل واحد بالعمل كله فيجب أن يكون حائزاً للقدر الكافي من المهارة والقوة لأداء أصعب وأشق العمليات التي تنقسم إليها السلعة ،، (Babbage ص ١٨) .

(٢) فمثلا قد يحدث غالباً نمو غير عادي في مجموعات خاصة من العضلات ، العظام الخ ...

(٣) تساءل أحد أعضاء لجنة التحقيق كيف أمكن إبقاء ,, الصغار السن ،، لأداء العمل بانتظام ، فاجاب المستر وليم مارشال مدير أحد مصانع الزجاج اليدوية قائلا ,, لا يستطيعون إهمال عملهم ، فاذا ما بدأوا العمل وجب عليهم أن يواصلوه ، فهم كأجزاء الآلة ،، (لجنة تشغيل الأطفال ، التقرير الرابع ١٨٦٥ ص ٢٤٧) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولما كانت بعض وظائف العامل الجماعى بسيطة والأخرى معقدة نجد أن أعضاءه أى قوى العمل الفردية التى يتكون منها تتطلب درجات متباينة من التدريب ، وبذلك تكون لها قيم متفاوتة . ونتيجة لهذا تعمل الصناعة اليدوية على نشأة ترتيب هرمى لقوى العمل يلاءمه نظام من الأجور المتدرجة . فاذا كان العامل الفردى من جهة مخصصاً طيلة حياته لوظيفة مقيدة محدودة ، فمن الجهة الأخرى نجد أن مختلف العمليات التى يقوم بها أعضاء هذه المجموعة ذات الترتيب الهرمى تنظم وتخصص طبقاً لمهارتهم الطبيعية والمكتسبة (١). وتتطلب كل عملية إنتاج أعمالا بسيطة معينة يستطيع كل عامل أداءها ، فهى تفصل إذن وتصبح وظائف خاصة قائمة بذاتها .

وعلى ذلك ففى كل حرفة يدوية تبسط عليها الصناعة اليدوية سيطرتها تنشأ طبقة ممن يقال لهم العمال غير الحاذقين وهى ما لم يكن له مكان فى الصناعة الحرفية . فالى جانب الترتيب الهرمى نجد تقسيما فرعياً بسيطاً إلى عمال حاذقين وغير حاذقين ، وتهبط نفقات تدريب الأخيرين إلى لا شىء كما تكون فى حالة الأولين أقل مما كانت عليه فى عهد الحرف اليدوية نظراً لأن مهمتهم أو وظيفتهم تصبح أبسط مما كانت عليه قبلا . وفى كلتا الحالتين تهبط قيمة قوة العمل (٢). وثمت استثناءات لهذا القانون نظراً لأن تجزئة عملية العمل يولد وظائف أوسع مدى لم يكن لها وجود مطلقاً في الحرفة اليدوية أو كانت موجودة بدرجة أقل . والنقص النسبى فى قيمة قوة العمل وهو ما ينجم من زوال نفقات التدريب الحرفى أو خفضها ، ينطوى على ازدياد الحدة التى يستخدم بها رأس المال ذلك لأن كل ما يؤدى إلى تقصير وقت العمل الضرورى لإعادة إنتاج قوة العمل يؤدى إلى ازدياد مدى العمل الفائض .

---

(١) إن الدكتور يور — فى تمجيده الصناعة الكبيرة من وجهة نظرها والاشادة بها — يبرز خواص الصناعة اليدوية خيراً مما فعل من تقدمه من الاقتصاديين الذين لم يتوافر لهم حماسه واهتمامه بالأمر ، بل وربما حيراً من معاصريه مثل بابلج الذى وإن فاق يور كرياضى وميكانيكى إلا أنه مال إلى النظر الى الصناعة الكبيرة من وجهة نظر الصناعة اليدوية فقط . يقول يور إن تخصص العمال فى عمليات مخصوصة ,, جوهر تقسيم العمل ،، . وفى مكان آخر يصف تقسيم العمل بأنه إعداده وجعله ملاءما لمواهب الناس المختلفة ،، ، وأخيراً يتحدث عن نظام الصناعة اليدوية كله بأنه نظام لتقسيم أو تدريج العمل ،، وأنه ,, تقسيم العمل إلى درجات من المهارة ،، الخ .

Ure : Philosophy of Manufactures, pp. 10—23.

(٢) ,, نظراً لأن كلا من أهل الحرف اليدوية ... تمكن من بلوغ حد الاتقان فى ناحية واحدة بفضل المران والتدريب لهذا أصبح ... عاملا أرخص ثمنا ،، — شرحه ص ١٩ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

٤ — تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية وتقسيم العمل فى المجتمع

بحثنا نشأة الصناعة اليدوية ، وعناصرها البسيطة ، والعامل الذى يؤدى عملية تفصيلية وأداته التى يشتغل بها ، وأخيراً جهاز الصناعة اليدوية بوجه عام . والآن نعرض بإيجاز للعلاقة بين تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية وتقسيم العمل فى المجتمع . ومن الأخير يتكون الأساس العام الذى يقوم عليه إنتاج السلع كله .

إذا جعلنا العمل وحده نصب أعيننا أمكن أن نصف التقسيم الفرعى للانتاج الاجتماعى إلى أقسامه الأساسية كالزراعة والصناعة الخ بأنه تقسيم العمل بوجه عام ، وأمكن أن نصف تجزئة هذه الأقسام إلى أنواع وفروع بأنه التقسيم من الوجهة الخاصة ، وأخيراً استطعنا أن نصف تقسيم العمل داخل الورشة بأنه تقسيم من حيث التفاصيل(١).

وتقسيم العمل فى المجتمع وما يماثله من قصر الأفراد على مهن أو أعمال خاصة ينشأ ـ مثل تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية ـ من نقطتى ابتداء يقعان فى طرفين متقابلين . ففى داخل الأسرة ثم فى القبيلة(٢) بعد ذلك يحدث تقسيم العمل بصفة تلقائية تبعاً لاختلافات الجنس والسن ، بمعنى أن أساس هذا التقسيم فسيولوجى بحت . وتتمدد أو تنتشر المادة التى تخضع للعمل بنسبة اتساع نطاق الجماعة ، والزيادة فى عدد السكان ، وأكثر من هذا بفضل المنازعات التى تنشب بين القبائل المختلفة وإخضاع قبيلة للاخرى . ومن جهة أخرى ينشأ تبادل المنتجات فى النقط التى تتلاقى أو تتصل عندها الأسرات والقبائل أو الجماعات المختلفة ـ ذلك أنك ترى فى المراحل المبكرة للحضارة أن الوحدات المستقلة التى يواجه بعضها بعضاً ليست أفراداً وإنما هى أسرات وقبائل الخ . وتكشف الجماعات المختلفة عن وسائل إنتاج وعيش مختلفة فى

---

(١) ,, يقترح تقسيم العمل من فصل أشد المهن اختلافاً بعضها عن بعضها ، إلى ذلك التقسيم الذى يشترك فيه عدد من العمال فى إعداد نفس المنتج الواحد ، كما هو الشأن فى الصناعة اليدوية ،،

(٢) Storch : Cours d'économie politique, Paris edition, vol 1, p.173.

,, نجد بين الشعوب التى بلغت درجة معينة من الحضارة ثلاثة أنواع من تقسيم العمل : أولها مانسميه التقسيم العام وهو الذى يميز بين المنتجين الزراعيين والصناعيين والتجاريين وهؤلاء ينتمون إلى الأنواع الثلاثة من الحرفة القومية ؛ وثانيها ونطلق عليه عبارة التقسيم الخاص وهو تقسيم كل نوع من العمل industry إلى أنواع وأجناس ، وثالثها وهو تقسيم المهنة أو العمل بمعناه الصحيح والذى نجده داخل نطاق الصناعات والحرف وهو مانلقاه فى معظم المصانع اليدوية والورش ،، (شاربك : مصدر سابق ٨٤ — ٨٥) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

البيئة الطبيعية التى تعيش فى أحضانها ، وهذا ما يترتب عليه اختلاف ما لديها من وسائل الإنتاج وأساليب الحياة والمنتجات . ونظراً لهذه الاختلافات والفروق التى تنشأ من تلقاء ذاتها ، ترى أنه إذا ما اتصلت الجماعات بعضها ببعض حدث التبادل بين منتجات عدة بحيث لا تلبث هذه المنتجات أن تتحول تدريجاً إلى سلع . فالتبادل لا يبعث على اختلاف ميادين الإنتاج ، وإنما يقيم علاقة فيما بينها وبذا يحولها إلى فروع من الإنتاج الجماعى الاجتماعى تتفاوت من حيث اعتماد (تبعية) كل منها على الآخر . وهكذا ينشأ التقسيم الاجتماعى للعمل عن طريق التبادل بين مجالى الإنتاج التى يكون كل منها فى الأصل متميزاً ومستقلا عن الآخر . ولكن حيث يكون التقسيم الفسيولوجى للعمل هو نقطة الابتداء فإن الأعضاء أو العناصر الخاصة فى الهيكل أو الشكل الذى تعتمد أجزاؤه مباشرة كل على الآخر ، تتفكك وبذا تصبح وحدات مستقلة بحيث أن تبادل المنتجات بوصفها سلعاً هو وحده الذى يبقى العلاقة القائمة بين مختلف أنواع العمل . ففى الحالة الأولى يصبح ما كان مستقلا فى حالة اعتماد على غيره ، بينما فى الحالة الثانية يصير ما كان معتمداً على غيره مستقلا عنه (ذلك أن تبادل السلع مع الجماعات الغريبة الأجنبية فيه الدافع الرئيسى نحو عملية التحلل والتفكك هذه) .

إن الانقسام بين الحضر والريف الأساس الذى يقوم عليه كل تقسيم للعمل قد بلغ مبلغاً عالياً من التطور ، وهو التقسيم الذى سببه تبادل السلع[1]. ويجوز القول إن التاريخ الاقتصادى للمجتمع بأسره يتلخص فى تطور هذا الانقسام بين الحضر والريف . وإن كنا لن نتوسع أو نتعمق فى بحث هذا الموضوع الآن .

وكما أن تقسيم العمل فى الصناعات اليدوية يستلزم حتما وجود طبقة سفلية مادية أعنى عدداً معيناً من عمال يجرى تشغيلهم فى وقت واحد ، كذلك لا بد لتقسيم العمل فى المجتمع من أن يكون السكان على قدر كاف من الوفرة وكثافة العدد ـ لأن حجم السكان وكثافتهم يحلان هنا محل تجميع العمال فى نفس محل العمل الواحد[2] وكثافة السكان هذه مسألة

---

(١) عالج سير جيمس ستيوارت هذا الموضوع خيراً مما فعل غيره من الكتاب . ومما يدل على قلة معرفة الناس بكتابه الصغير الحجم الذى نشر قبل ,,ثروة الشعوب،، بعشر سنوات ، أن المعجبين بمالثس لا يعرفون أن كتاب ذلك المؤلف Principles of Population معظمه مجرد نقل عن مؤلف ستيوارت (وإن كان مالثس استعان أيضا بولاس وتونسند) .

(٢) ,, وتحت قدر معين من كثافة السكان يسهل الاتصال الاجتماعى واتحاد القوى الذى يمكن بواسطته زيادة منتج العمل،، (جيمس مل ، مصدر سابق ص ٥٠) — كلما زاد عدد العمال ، زادت قوة المجتمع الانتاجية بالنسبة المركبة لهذه الزيادة مضروبة فى الآثار الناجمة عن تقسيم العمل ،، Thomas Hodgskin

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

نسبية . فالبلد الذى تتوافر به وسائل مواصلات نامية يعد بلداً كثيفاً ولو كان عدد سكانه قليلا ، وعلى هذا الاعتبار يجوز أن نعد الولايات الشمالية من الاتحاد الأمريكى أشد كثافة وازدحاماً بالسكان من بلاد الهند (١) .

لما كان إنتاج السلع وتداولها الشروط العامة اللازمة للأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج فإن تقسيم العمل فى ظل الصناعة اليدوية لا يمكن أن يقوم إلا إذا ما بلغ نمو وتطور تقسيم العمل فى داخل المجتمع درجة معينة . وبالعكس فلتقسيم العمل فى نظام الصناعة اليدوية أثر فى تنمية ومضاعفة التقسيم الاجتماعى للعمل . وإذ تتعرض أدوات العمل للتفرقة فيما بينها يزداد التباين والافتراق بين الصناعات التى تنتج هذه الأدوات(٢) . وإذا غزا نظام الصناعة اليدوية صناعة ظلت حتى ذاك الوقت ذات علاقة بغيرها ، إما كصناعة رئيسية أو كصناعة ثانوية (وكلها تحت سيطرة منتج واحد) فسرعان ما تنفصل هذه الصناعات بعضها عن بعض ويصبح كل منها مستقلا عن الآخر . وإذا غزا نظام الصناعة المنزلية مرحلة معينة فى إنتاج سلعة ما ، تحولت المظاهر المختلفة فى إنتاجها إلى صناعات مستقلة . وقد سبق أن بينت أن السلعة التامة الصنع لا تزيد عن كونها مجموعة من المنتجات الجزئية تجمعت بطريقة آلية فقد تعود المهن التفصيلية فتثبت قواعدها بصفتها حرفاً يدوية مستقلة . ولكى يزداد تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية نمواً فقد ينقسم فرع واحد من الإنتاج إلى صناعات مختلفة قد يكون بعضها جديداً تماماً ، وفى هذه الحالة يتوقف الشكل الذى تتخذه العملية على الفروق فى المواد الأولية أو على وجود أنواع مختلفة من نفس المادة الأولية الواحدة . ففى فرنسا مثلا منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر كانوا ينسجون أكثر من مائة نوع من المادة الحريرية . وكان بأفينيون قانون يحتم « على كل صبى أن يخصص نفسه لنوع واحد من الصناعة اليدوية ، وألا يتعلم إعداد أنواع عدة من المادة فى وقت واحد » . ونظام الصناعة اليدوية الذى يعمل على الاستفادة من كافة الخواص والميزات المحلية يساعد على نمو التقسيم الإقليمى للعمل وهو الذى بمقتضاه تتركز فروع معينة من الإنتاج فى جهات معينة(٣) . ومن العوامل التى أسرعت

---

(١) نظراً لازدياد الطلب على القطن منذ سنة ١٨٦١ ، زاد إنتاجه على حساب إنتاج الارز وذلك فى أشد أجزاء جزر الهند الشرقية ازدحاما . وترتب على هذا كثرة حدوث المجاعات المحلية وذلك لأنه بسبب رداءة المواصلات إذا قل محصول الارز فى جهة تعذر استيراده من جهات أخرى .

(٢) هكذا نرى كيف أصبحت صناعة الميكانيك فرعاً خاصاً من الصناعة فى هولنده خلال القرن السابع عشر .

(٣) ,,سواء لم تكن الصناعة الصوفية بانجلترا منقسمة أجزاء أو فروعا عدة يتخصص فى عمل كل منها مكان معين. فالأقمشة الرفيعة فى سمرستشير ، السميكة فى يوركشير ، ells فى اكستر ، الحرائر فى سدبرى ، crapes فى نوروتش.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بتقسيم العمل داخل المجتمع خلال عصر الصناعة اليدوية ، اتساع السوق العالمية وتكوين المستعمرات وكلاهما جزء من الشروط العامة اللازمة لوجود ذلك العصر . وليس هذا مجال البحث المفصل فى كيف غزا تقسيم العمل كافة ميادين الحياة الاجتماعية إلى جانب الميدان الاقتصادى ، وكيف أنه صار فى كل مكان الأساس الذى قام عليه التخصص إلى الحد الذى دعا ا. فرجوسن ـ أستاذ آدم سميث القول « إننا نخلق شعبا من العبيد ، وليس لدينا مواطنون أحرار » (History of Civil Socity - إذنبره الجزء الرابع ، قسم ٢ ص ٢٨٥) .

برغم ما بين تقسيم العمل فى المجتمع وتقسيم العمل فى الورشة من أوجه الشبه والصلات يجب علينا ألا نعدهما درجتين مختلفتين من نفس العملية الواحدة ، ذلك لأنهما متمايزان بصفة أساسية . إن وجه التشابه بينهما مما لا يمكن تكرانه حين تكون صلة غير متطورة تربط ما بين مختلف فروع الصناعة . مثال ذلك ينتج مربى الماشية الجلود ، ويصنع الدباغ من هذه الجلد المدبوغ ، وهذا الأخير يحوله الحذاء إلى أحذية . فكل من هؤلاء الثلاثة يخرج منتجاً متدرجاً والشكل الختامى التام الصنع هو الثمرة المتحدة لكافة أعمالهم المنفصل كل منها عن الآخر . ثم علينا أن ننظر إلى فروع العمل المختلفة التى تمد كلا من مربى الماشية والدباغ والحذاء بأدوات الإنتاج . وعلى ذلك من المستطاع أن نتصور مع آدم سميث أن هذا التقسيم الاجتماعى للعمل إنما يتميز من الناحية الذاتية عن تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية ، وأنه تقسيم لا يميزه سوى الناظر إليه الذى يستطيع فى حالة الصناعة اليدوية أن يرى من أول نظرة مختلف العمليات التفصيلية يجرى أداؤها فى نفس المكان ، بينما فى حالة التقسيم الاجتماعى للعمل نجد أن الصلات المتداخلة يخفيها توزيع هذه العمليات على أماكن متباعدة ويخفيها كذلك العدد الكبير من أنواع العمل المنفصلة (١) . ولكن ما طبيعة العلاقة بين الأعمال المستقلة التى يؤديها كل من

---

linseys فى كندال ، البطاطين فى هوتنى وهكذا ،، Berkeley ; The Querist, 1750; p. 250.
(الأسماء الانجليزية أنواع من الأقمشة) .

(١) يحدثنا آدم سميث أن تقسيم العمل يبدو أعظم فى الصناعات اليدوية بمعناها الصحيح ذلك ،، أن الذين يستخدمون فى كل فرع فروع العمل المختلفة يمكن جمعهم فى نفس محل العمل تحت أنظار من يريد مشاهدتهم . وبالعكس فى الصناعات اليدوية الكبيرة التى تمد أغلب الناس بحاجياتهم . يستخدم كل من فروع العمل المختلفة عدداً كبيراً من العمال بحيث يستحيل جمعهم فى نفس محل العمل الواحد ... وبذا لا يكون تقسيم العمل واضحاً كما فى الحالة الأولى ،، (ثروة الشعوب ، الكتاب الأول ، الفصل الأول) ـ انظر القطعة المشهورة التى تبدأ بالكلمات الآتية ،، لاحظ مسكن الصانع ==

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مربى الماشية والدباغ والحذاء ؟ تنحصر هذه العلاقة فى وجود منتجاتهم على هيئة سلع . وما الذى يميز من جهة أخرى تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية ؟ يميزه كون العامل الذى يقوم بإتمام عملية تفصيلية لا ينتج السلع ، لأن الذى يتحول إلى سلعة إنما هو منتج عدد من عمال العمليات التفصيلية(١). وتقسيم العمل داخل المجتمع يترتب على بيع وشراء منتجات مختلف فروع الصناعة ، بينما العلاقة بين الأعمال التفصيلية فى الصناعة اليدوية يسببها بيع قوات العمل المختلفة للرأسمالى الذى يستخدمها كقوة عمل متحدة . ويتضمن تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية معنى تركيز أدوات الإنتاج فى أيدى رأسمالى واحد بينما يتضمن التقسيم الاجتماعى للعمل معنى تفرق أدوات الإنتاج بين كثير من منتجى السلع ، كل منهم مستقل عن الآخر . وبينما تجد فى الصناعة اليدوية أن قانون تناسب يخضع جماعات معينة من العمال لوظائف معينة ، تلعب الصدفة والهوى الدور فى توزيع منتجى السلع وما لديهم من أدوات الإنتاج على مختلف فروع

= العادى أو العامل الذى يشتغل باليوم ، فى دولة متمدنة غنية ،، ، وفى هذه القطعة يوضح لنا كثرة وتنوع الصناعات التى تساهم فى إشباع الحاجيات التى يتطلبها عامل عادى . هذه القطعة منقولة حرفاً بحرف من .

Bernard de Mandeville's "Remarks to his « Fable of the Bees, or Private Vices, Publick Benefits » The "Remarks" were added to the 1714. edition.

(٢) ،، لم يعد ثمت وجود لما يقال له الجزاء الطبيعى للعمل الفردى . إن كل عامل ينتج فقط جزءاً من كل ، ولما كان كل جزء ليست له قيمة أو منفعة فى حد ذاته ، لهذا لايجد العامل له سنداً حين يقول (هذا ما أنتجته ، وسأحتفظ به لنفسى) ،، (لندن ١٨١٥ ص ٢٥) .

Labour defended against the Claims of Capita

وصاحب هذا المؤلف الذى يثير الاعصاب توماس هودجسكن .

(١) أوضح لنا الأمريكيون بصورة عملية هذا الفارق بين التقسيم الاجتماعى للعمل وتقسيم العمل فى الصناعة اليدوية . ففى الحرب الأهلية فرضت ضريبة ندرها ٦ ٪ على المنتجات الصناعية وبطبيعة الحال بدر السؤال : ماهو المنتج الصناعى جاب المشرع ،، ينتج الشىء حين يصنع ، ويصنع حين يكون معداً للبيع ،، وإليك مثال واحد . كانت المصانع اليدوية فى نيويورك وفيلادلفيا سابقاً تصنع ،، المظلات بكافة لوازمها . ولكن لما كانت المظلة مكونة من أجزاء كثيرة مختلفة ، أصبحت الأجزاء التى تكونها أدوات تامة الصنع يتم إنتاجها بصورة مستقلة بواسطة صناعات مستقلة بأماكن مختلفة . وكانوا يرسلون المنتجات الجزئية إلى المصنع اليدوى بصفتها سلعاً مستقلة حيث يتم تجميعها لصنع مظلة كاملة . وأطلق الأمريكيون على الأدوات التى يتم إعدادها على هذا النحو عبارة ، الأدوات المتجمعة assembled articles وهو اسم مناسب لأنها كانت مجموعات من الضرائب . وعلى ذلك تجمع المظلة أولا ضريبة قدرها ٦ ٪ على ثمن كل جزء من أجزائها ، ٦ ٪ على ثمن المظلة كلها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الصناعة فى المجتمع . حقيقة تحاول مختلف ميادين الانتاج تحقيق التوازن إذ يجب من جهة على كل منتج للسلع أن ينتج قيمة استعمالية أى يشبع حاجة اجتماعية مخصوصة (ويختلف مدى هذه الحاجيات إختلافا كميا ولكن هذه الحاجيات المختلفة ترتبط فيما بينها بيدخفية غير منظورة كى تكون نظاما طبيعيا) ، ومن جهة أخرى فإن قانون قيمة السلع يعين المقدار الذى يمكن تخصيصه من المجموع الكلى من وقت العمل لإنتاج نوع معين من السلعة . ولكن هذا الميل المستمر من جانب ميادين الإنتاج المختلفة بقصد إحداث التوازن فيما بينها لا يبدو مفعوله إلا كرد فعل على ما يتعرض له هذا التوازن من اضطراب مستمر .

والقاعدة التى يبدو فعلها فى حالة تقسيم العمل داخل الورشة كأنه يرمى إلى هدف مقصود تعمل فى حالة تقسيم العمل فى المجتمع كأنها ضرورة طبيعية (كامنة ، صماء ، يكشف الغطاء عنها ما يصيب بارومتر أثمان السوق من ارتفاع وانخفاض) وتفرض سلطانها على ما يقوم به منتجو السلع من أعمال غير منظمة تخضع للهوى . وينطوى تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية على سلطة غير مقيدة ينعم بها الرأسمالى إزاء الأفراد الذين صاروا مجرد أجزاء فى الجهاز الكامل الذى يملكه . أما التقسيم الاجتماعى للعمل فيجعل منتجى السلع المستقلين يواجه بعضهم بعضاً لا يعرفون سلطاناً عليهم إلا سلطان المنافسة وضغط المصالح المتبادلة ، كالحال فى مملكة الحيوان حيث حرب الكل ضد الكل تحافظ على الأحوال اللازمة لبقاء الأجناس . تمتدح العقلية البورجوازية تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية ، وضم العامل طيلة حياته إلى عملية جزئية . وخضوع العامل الذى يتولى عملية تفصيلية خضوعاً غير مشروط لرأس المال ، على اعتبار أن هذه جميعا تنظيم للعمل هدفه ونهايته زيادة إنتاجية العمل. هذه العقلية ذاتها تحمل بنفس القوة على كل ضرب من ضروب الإشراف الاجتماعى وتنظيم عملية الإنتاج الاجتماعية ، باعتبار هذا جميعه إعتداء على ما للرأسمالى من حقوق لا يجوز انتهاكها من حيث الملكية وحرية العمل والتصرف . إن الذين يدافعون عن نظام المصانع لا يجدون حجة يقيمونها على التنظيم العام للعمل الإجتماعى أسوأ من قولهم إن هذا الأمر لو حدث قمين أن يحول المجتمع كله إلى مصنع.

وبينما نجد في المجتمع الخاضع للطريقة الرأسمالية فى الإنتاج أن فوضى التقسيم الإجتماعى للعمل واستبداد تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية يعين ويحدد كل منهما الآخر ، نجد أن أشكال المجتمع المتقدمة التى نما فيها انفصال الصناعات من تلقاء ذاته وتبلور ثم دعمه أخيراً القانون ـ نقول إن هذه الأشكال تقدم لنا من جهة صورة لتنظيم له هدف وسلطان للعمل الاجتماعى ، وترينا من جهة أخرى نظاما يكون فيه تقسيم العمل داخل الورشة إما معدوما وإما فى أدنى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حد له وإما وجوده راجع إلى مجرد الصدفة (١) .

إن الجماعات الهندية الصغيرة القديمة العهد للغاية والقائمة حتى اليوم ، أساسها امتلاك الجماعة للأرض ، والصلة المباشرة بين الزراعة والحرفة اليدوية ، والشكل الثابت من تقسيم العمل والذى تتخذه وتتبعه الجماعات الجديدة والتى تتكون . هذه الجماعات وحدات إنتاجية تكفى ذاتها بذاتها ، وتتراوح مساحة أرض الجماعة بين مائة وعدة آلاف من الأفدنة . ويخصص الشطر الأكبر من الإنتاج لإشباع حاجيات الجماعة المباشرة ، وبذلك يكون الإنتاج نفسه مستقلا عن تقسيم العمل الناجم من تبادل السلع فى المجتمع الهندى بوجه عام ، ولا يتحول إلى سلع إلا المنتجات الفائضة من حاجة الجماعة وهذا العمل نتيجة أولية مترتبة على أعمال الدولة التى خصصت لها منذ أبعد الأزمنة فى القدم نسبة محدودة من الناتج على صورة ريع يدفع لها عينا . وتلقى بمختلف أقاليم الهند أشكالا مختلفة من أمثال هذه الجماعات . وأبسط شكل ذلك الذى تقوم فيه الجماعة بفلاحة الأرض بطريقة الاشتراك ثم يوزع الناتج على أعضائها . وفى الوقت ذاته تمارس كل أسرة الغزل والنسج الخ بصفة مهنة منزلية إضافية . وإلى جانب الجماهير أو مجموعات الناس التى تشتغل بنفس الحرف الواحدة ، تجد هذه المجموعة من الأفراد ولكل منهم عمل يؤديه ، فهناك الرئيس ويتولى القضاء وحفظ الأمن وجباية الضرائب ، والمحاسب الذى يقيد حسابات الزراعة ويسجل كل ما يتصل بذلك ، وموظف مهمته مقاضاة المجرمين وحماية تنقلات المسافرين الوافدين من بعيد وحراستهم حتى يبلغوا القرية المجاورة . ورجل آخر يحافظ على الحدود التى تفصل ما بين جماعته والجماعات المجاورة ، ومراقب المياه الذى يتولى توزيع المخزون منها فى خزانات الجماعة ، والقسيس ـ البراهما ـ الذى يتولى الشؤون الدينية ، والمعلم الذى يعلم القراءة والكتابة للأطفال مستخدماً الرمل فى ذلك ، والمنجم الذى يعين الأوقات المناسبة للبذر والحصاد ويخبر الناس عن أيام الخير والشر لمختلف العمليات الزراعية ، والنجار والحداد اللذان يصنعان أدوات الزراعة ويصلحانها ، والفخار الذى يعمل حاجة الجماعة من أوان ، والجوهرى الذى يصنع الحلى والأدوات من الفضة ، وقد يكون هناك شاعر يقوم بعمل الجوهرى فى بعض الجماعات وبوظيفة المعلم فى الأخرى . هؤلاء الأفراد جميعاً تتولى الجماعة الانفاق عليهم . وإذا زاد عدد السكان قامت جماعة جديدة على

---

(١) يصح القول ... بصفة قاعدة عامة إنه كلما قل ما نلقاه من سلطان يسود تقسيم العمل داخل المجتمع ، زاد نمو تقسيم العمل فى الورشة وعظم خضوعه لسلطان فرد واحد . وهكذا ففيما يختص بتقسيم العمل نجد أن السلطان فى الورشة والسلطان فى المجتمع ، يتناسبان تناسباً عكسياً الواحد إزاء الآخر ،،
كارل ماركس : فقر الفلسفة ص ١٣٠ — ١٣١ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

نسق الأولى واتخذت مكاناً لها أرضاً عذراء . ومن هذا نرى أن جهاز الحياة فى الجماعة يتميز بتقسيم للعمل ذى هدف محدود ، ولكن تقسيم العمل ـ كما يكون فى الصناعة اليدوية ـ مستحيل نظراً لأن السوق التى تستوعب عمل الحداد والنجار الخ ثابتة محدودة ، وحتى إذا كانت القرية كبيرة فقد تضم اثنين أو ثلاثة من الفخاريين والحدادين[1] . هنا تجد أن القانون الذى ينظم تقسيم عمل الجماعة يبدو فعله وكأنما قد اكتسب قوة قانون طبيعى لا يمكن خرقه ، فكل من رجال الحرف اليدوية يؤدى عمله طبقاً للعرف والتقاليد ولكنه يعمل مستقلا عن غيره ويقوم فى محل عمله وحسب ما يهديه اليه تفكيره بكافة الأعمال اللازمة لما تخصص فيه . وذلك كله دون أن يخضع لأى نوع من السلطان والسيطرة . هذه الجماعات التى تعيش فى حالة استكفاء ذاتى والتى تتكاثر أو تنشأ من جديد ـ إذا تحطمت ـ فى نفس المكان وبنفس الاسم[2] ذات جهاز إنتاجى يمتاز ببساطة تكشف لنا عن سر استقرار وثبات المجتمع الآسيوى بخلاف التقلبات التى تتعرض لها الدول الآسيوية والأسرات الحاكمة . إن العناصر الاقتصادية التى يتكون منها المجتمع تظل غير متأثرة بالعواصف السياسية .

أوضحت كيف حالت النقابات الطائفية guilds عمداً دون تحول رب العمل (المعلم master) إلى رأسمالى وذلك بفضل القيود التى فرضتها على من يعملون عنده من الصبيان apprentices وعمال اليومية journeymen ، كما أنه لم يكن فى استطاعته أن يستخدم عمال اليومية إلا فى الحرفة التى كان نفسه فيها معلماً . فكأن هذه النقابات راقبت بعين الغيرة كافة محاولات التدخل والاعتداء على ميدانها من جانب رأس المال التجارى وهو النوع الوحيد من رأس المال الذى اتصلت به . لقد كان فى استطاعة التاجر أن يشترى البضائع ولكنه لم يكن قادراً على شراء العمل كسلعة ، فكأنه وجد للمتاجرة فى منتجات الحرف اليدوية . واذا استدعت الأحوال الخارجية نوعاً أكثر تقدماً ورقياً من تقسيم العمل انقسمت النقابات فروعاً أو أسست

---

(١) Lieutenant Colonel Mark Wilks : Historical Sketches of the South of India, London, 1810-1817, vol. 1, pp. 118-120,

وتجد وصفاً طيباً للجماعات الهندية فى كتاب ,, الهند الحديثة ،، لجورج كامبل (١٨٥٢) .

(٢) ,, فى ظل هذا الشكل البسيط ... عاش أهل البلد منذ أقدم العصور ، وقلما تعرضت الحدود الفاصلة بين القرى للتغيير . وبرغم ما أصاب القرى ذاتها أحياناً من الأذى بل والدمار بسبب الحرب والمجاعة والمرض ، ظلت نفس الأسماء ونفس الحدود ونفس المصالح بل ونفس الأسرات باقية عصوراً . ولا يهتم الأهلون بتحطم الممالك وانقسامها . فبينما تظل القرية كاملة فانه لا يعنيهم إلى أى قوة أو حاكم تؤول . إن اقتصادها الداخلى يظل دون تغيير ،، ـ توماس ستامفورد رافلس ، حاكم جاوه السابق ,, تاريخ جاوه ،، ـ لندن ١٨١٧ ج ١ ص ٢٨٥

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

نقابات جديدة إلى جانب القديمة ، كما أنها لم تحاول ممارسة حرف يدوية مختلفة فى نفس الورشة . ونتيجة لهذا نجد أن هـذا الضرب النقابى من التقسيم لم يكن متفقاً مـع نمو تقسيم العمل للصناعة اليـدوية وذلك بفضل الحرف اليدوية (مع أنه ربما مال إلى خلق الشروط الـلازمة لتطور عصر الصناعة اليدوية وذلك بفصل الحرف اليدوية وعزلها بعضها عن بعض وإتقانها) . وإذا نظرنا إلى النظام كله رأينا أن العـامل ظل متصلا بأدوات الانتاج التى استخدمها ، ولذلك لم يتوافر الأساس الأولى الذى تقوم عليه الصناعة اليـدوية وهو وجود أدوات الانتاج على هيئة رأس مال يواجه وجود العامل .

وبينما نجـد فى المجتمع عموماً أن تقسيم العمل ، سواء ولده أو لم يولده تبادل السلع ؛ مظهر لمجتمعات من أشد الأنواع الاقتصادية تبايناً وتنوعاً ـ فتقسيم العمل فى الصناعة اليدوية تطور تتميز به الطريقة الرأسماليـة فى الانتاج .

(٥) الطابع الرأسمالى الذى تتميز به الصناعة اليدوية

إن نقطة الابتداء الطبيعية فى التعاون بأعم معنى له وفى الصناعة اليدوية على حد سواء هى وجود عدد متزايد من العمال تحت إشراف وحدة واحدة من رأس المال . وبالعكس فتقسيم العمل فى الصناعة اليدوية يجعل زيادة فى عـدد العمال الذين هم تحت سيطرة وحدة واحدة من رأس المال ضرورة فنية . والشكل القائم من تقسيم العمل يتحكم فى الحد الأدنى من عدد العمال الذين يستخدمهم رأسمالى واحد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا يمكن تحقيق المزايا الناجمة من ازدياد درجة تقسيم العمل إلا بالإضافة إلى عدد العمال ولا يتم هذا إلا باضافة مضاعفات مختلف المجموعات المشتغلة بالعمليـات التفصيلية ولكن نمو الجزء المتغير من رأس المال يجب أن يصحبه نمو الجزء الثابت ، أى ان أى زيادة فى أدوات الانتاج العامة كالمبانى والأفران الخ يجب أن تصحبها كذلك زيادة فى مورد (عرض) المادة الأولية التى يعظم الطلب عليها بأسرع مما يعظم على عدد أكثر من العمال . وتزداد كمية المادة الأولية التى يستخدمها مقـدار معلوم من العمل فى وقت معلوم بقدر النسبة التى تزيد بهـا إنتاجية العمل بسبب تقسيم العمل . وعلى هـذا فالطابع الفنى للصناعة اليدوية يترتب عليه القـانون التالى وهو أنه لا بد من زيادة مطردة فى الحد الأدنى من مقدار رأس المال الذى يكون فى أيدى الرأسماليين الفرديين ، وبعبارة أخرى لابد من ازدياد مستمر فى تحويل وسائل العيش وأدوات الانتاج الاجتماعية إلى ر س مال(١).

---

(١) « لا يكفى أن رأس المال (وكان ينبغى للكاتب أن يقول وسائل العيش الضرورية وأدوات الانتاج) اللازم لتقسيم الحرف اليدوية إلى فروع يكون موجوداً فعلا فى داخل المجتمع ، بل من الضرورى أن يكون رأس =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والجهاز العامل الجماعى ، فى الصناعة اليدوية كما فى التعاون البسيط ، شكل ينم عن وجود رأس المال ، والرأسمالى يملك الأداة الانتاجية الإجتماعية التى تتكون من عدد كبير من العمال الفرديين ممن يضطلعون بالعمليات التفصيلية . ونتيجة لهذا تبدو الطاقة الانتاجية الناجمة من اتحاد العمل كأنها طاقة رأس المال الانتاجية . إن الصناعة اليدوية بمعناها الصحيح لا تقف عند حد إخضاع العامل الذى كان من قبل مستقلا لإشراف رأس المال ، بل إنها بالاضافة إلى هذا تخلق تدريجاً هرمياً بين العمال أنفسهم أى تجعلهم درجات يعلو بعضها بعضا . وبينما لا يغير التعاون البسيط وسائل العمل التى يستخدمها الفرد تحدث الصناعة اليدوية انقلابات فى هذه الوسائل ، وتحول العامل إلى شخص كسيح ومارد وذلك بارغامه على أن يظهر مهارة ذات درجة عالية من التخصص على حساب عالم من القوى والمواهب الانتاجية وهو الأمر الشبيه بما يفعلون فى الأرجنتين حيث يذبحون حيواناً لكى يحصلوا على جلده أو دهنه . لا يقف الأمر عند حد تخصيص عمليات جزئية متنوعة لأفراد مختلفين ، بل إن الفرد نفسه ينقسم أجزاء ويتحول إلى محرك أوتوماتيكى لعملية جزئية[1]. وبهذا تتحقق أسطورة Menenius Agrippa السخيفة التى صورت الآدمى كأنه قطعة من جسده[2] . ونبدأ القول بأن العامل يبيع ما يملك من قوة العمل للرأسمالى إذ هو نفسه يفتقر إلى الوسائل المادية اللازمة لإنتاج السلعة . فقوته على العمل الفردية لا تستطيع أداء وظيفتها إلا إذا بيعت لرأس المال وأصبحت فى البيئة التى تتصل فيها بورشة صاحب رأس المال . أما وقد أصبح العامل عاجزاً عن الاستقلال بعمله وإنتاج ما يشاء فانه يتحول إلى شىء تابع لورشة الرأسمالى[3] ، وبذلك يدمغ

المال هذا قد تجمع فى أيدى المنظمين بمقادير كافية تمكنهم من إدارة عملياتهم على نطاق كبير ... كلما تقدم تقسيم العمل فان استخدام عدد معلوم من العمال بصفة دائمة يتطلب زيادة إنفاق رأس المال على العدد والمواد الخام الخ ،، (ستورش : Cours d'économie politique طبعة باريس ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١) - ،، إن تركيز أدوات الانتاج وتقسيم العمل لا يقلان ضرورة وأهمية عن تركيز السلطات العامة وتقسيم المصالح الخاصة فى عالم الحياة السياسية ،، (كارل ماركس : فقر الفلسفة ص ١٣٤) .

(١) يطلق Dugald Stewart على العمال الصناعيين عبارة ,, الأجهزة الحية living automatons ... التى تستخدم فى تفصيلات العمل ،، (ص ٣١٨) .

(٢) فى الحيوانات المرجانيه يكون الفرد فى الحقيقة معدة للجماعة بأسرها . ولكن الحيوان polyp المرجانى يمد المجموعة بالغذاء بينما السيد الشريف patrician الرومانى كان يحصل على الغذاء من الجماعة .

(٣) ,, إن العامل الذى يعجز عن ممارسة حرفة كاملة يمكنه أن يزاولها فى أى مكان وأن يجد وسائل العيش . ليس العامل فى الصناعة اليدوية أكثر من شىء إضافى ، وإذ ينفصل عن أقرانه يفقد الكفاية والاستقلال وبذلك يضطر إلى قبول ما يرى الناس فرضه عليه من قواعد وقيود ،،

Storch, op. cit., p. 28 St. Petersburg edition, 1815, vol. 1. p. 204.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية العامل بأنه متاع لرأس المال وملك له . إن الفلاح أو رجل الحرفة اليدوية المستقل تنمو لديه المعرفة والبصر بالأمور والادارة ولو إلى حد معتدل ، والمتوحش يمارس فنون القتال كمظاهر دالة على مالديه من دهاء ، أما فى نظام الصناعة اليدوية فكافة هذه الملكات إنما تحتاجها الورشة بصفتها كل واحد . فالذكاء فى الانتاج يتضخم فى ناحية لأنه يختفى فى نواح عدة أخرى . وما يفقده عمال المسائل التفصيلية يتركز فى رأس المال الذى يستخدمهم (١) . ويترتب على تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية أن القوى الفكرية لعملية الانتاج المادية تواجه العامل الذى أصبح عبداً لها ، وتبدأ هذه العملية فى التعاون البسيط الذى فيه يقف الرأسمالى إزاء العامل ممثلا وحدة وإرادة الجهاز العامل المتحد ، ويشتد هذا الاتجاه فى الصناعة اليدوية ويكمل فى الصناعة الكبيرة التى تفصل العلم عن العمل وتجعل من الأول قوة إنتاج مستقلة لخدمة رأس المال(٢). فى الصناعة اليدوية نجد أن إثراء العامل الجماعى وبالتالى رأس المال فى مسألة الانتاجية الاجتماعية يتوقف على إفقار العمال فيما يتعلق بقواهم الفردية فى الانتاج يولد الجهل الجد والخرافة ، ويتعرض الفكر والخيال للخطأ ولكن عادة تحريك اليد أو القدم مستقلة عن أى منهما . وتتقدم الصناعات إذا ما قل الدور الذى يقوم به العقل وإذا ما صارت الورشة آلة الناس أجزاؤها » (فرجسون ص ٢٨٠) . والواقع درج بعض رجال الصناعة فى منتصف القرن الثامن عشر على استخدام البلهاء فى بعض عمليات بسيطة كانت معتبرة من أسرار المهنة(٣) .

يقول آدم سميث إن ملكات الفهم لدى معظم الناس تكونها أعمالهم العادية . فالرجل الذى يقضى حياته فى أداء بضع عمليات بسيطة لا تتوافر له الفرصة لاستخدام موهبة الفهم ويصبح شخصاً غبياً وجاهلا . وبعد أن يصف غباء العامل المكلف بعملية جزئية يقول إن وحدة حياته الراكدة مما يفسد عقله ، بل إنها تفسد نشاط جسمه وتجعله عاجزاً عن استخدام قوته ونشاطه ومثابرته فى أى أعمال خلاف العمل الذى تربى عليه . وهنا يبدو كأنما مهارته فى الحرفة المخصوصة التى يمارسها قد اكتسبها على حساب فضائله ومزاياه العقلية والاجتماعية

---

(١) « قد يكون الأول كسب ما خسره الآخر » (؟ . فرجسون ، مصدر سابق ص ٢٨١) .

(٢) إن الرجل ذا المعرفة والعامل الانتاجى يمكن التقسيم بينهما ، وبدلا من أن تظل المعرفة أداة يستخدمها العامل لزيادة قواه الانتاجية فانها تقف ضد العمل... وتخدع العمال وتضللهم كيما تجعل قواهم العضلية ميكانيكية ومطيعة تماماً » ، و . تمبسون : بحث فى مبادىء توزيع الثروة ـ لندن ١٨٢٤ ص ٢٧٤ .

(٣) J. D. Tuckett: A History. of the Past and Present State of the Labouring Population, London, 1846, vol. 1, p. 149.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والحربية ، وهذه هى الحالة التى يهوى اليها العمال الفقراء فى كل مجتمع متمدين متقدم(١) ولكى يتسنى التغلب على الآثار الخطيرة الناجمة عن تقسيم العمل يوصى آدم سميث بقيام الدولة بتعليم الشعب ، ولكن المسيو ج . جارنيه الذى ترجم كتاب آدم سميث إلى الفرنسية وعلق عليه ، ينتقد رأى الاقتصادى الانجليزى وهو انتقاد يتفق مع النظم التى سادت فى عهد الامبراطورية الفرنسية والتى أتاحت له أن يصبح أحد أعضاء مجلس الشيوخ . يقول جارنيه إن إقدام الدولة على تعليم الجماهير فيه خرق لأول قوانين تقسيم العمل ، وينطوى على القضاء على نظام المجتمع بأسره » . « إن التقسيم بين العمل اليدوى » والعمل الذهنى(٢) ، يشتد وضوحاً وتأثيراً كلما عظم ثراء المجتمع(٣) ، وهذا التقسيم ثمرة الماضى وسبب فيما يتم من تقدم فى المستقبل . . فهل للحكومة أن تعمل ما يتعارض مع تقسيم العمل هذا وما يعرقل سيره الطبيعى ؟ هل لها أن تنفق جانباً من الأموال العامة فى مزج هذين النوعين من العمل واللذين يجاهدان فى سبيل الانقسام والانفصال(٤) .

وحتى تقسيم العمل فى المجتمع بوجه عام يعمل على إضعاف العقل والجسم . ولما كان عصر الصناعة اليدوية يخطو خطوة بعيدة بهذا التقسيم الاجتماعى لفروع العمل فضلا عن أنه يجتث جذور حياة الفرد ، لهذا نجد فى هذا العصر أن الأمراض الصناعية تزداد وضوحاً(٥) .

---

(١) Wealth of Nations, bk V, ch. 1, part 3, art. 2. — كان آدم سميث واضحاً فى هذه النقطة إذ هو تلميذ ا . فرجسون الذى وجه أعظم الاهتمام إلى آثار تقسيم العمل السيئة . ففى الجزء الافتتاحى من مؤلفه حيث يمتدح تقسيم العمل تراه يشير إشارة عابرة إلى الوسيلة التى يسبب بها هذا التقسيم الفوارق الاجتماعية ، وهو لا يردد آراء فرجسون إلا حين يصل إلى الكتاب الخامس الذى تكلم فيه عن إيرادات الدولة . وفى كتابى « فقر الفلسفة » قلت كل ما يلزم لبيان العلاقة التاريخية بين فرجسون وآدم سميث وليونتاى وسادى بصدد نقد تقسيم العمل . وقد أشرت فى كتابى أولا إلى أن تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية شكل خاص من الطريقة الرأسمالية فى الانتاج ص ١٢٢ وما بعدها) .

(٢) قال فرجسون (ص ٢٨١) « وحتى التفكير ذاته يصبح فى هذا العصر من الانفصال حرفة مخصوصة غريبة

(٣) يستعمل آدم سميث بحق كلمة « المجتمع » هذه للدلالة على رأس المال والملكية الزراعية والدولة التى تقوم عليهما .

(٤) ترجمة G. Garnier لكتاب آدم سميث ، الجزء الخامس ص ٤ — ٥

(٥) فى سنة ١٧١٣ نشر Ramazzini أستاذ الطب فى بادوا كتاباً باسم De morbis artificum (أمراض العمال) ، وظهرت ترجمة فرنسية له وأعيد طبعها سنة ١٨٤١ فى « دائرة معارف العلوم الطبية » . وخلال عصر الصناعة الكبيرة زاد الكتالوج الذى يتضمن الأمراض المهنية زيادة كبيرة . أنظر مثلا :

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

« إذا قسمت الإنسان أجزاء كان ذلك حكما بإعـــدامه إذا استحق ، واغتيالا إذا لم يستحق ... وتقسيم العمل فروعاً اغتيال للشعب»(١) .

والتعاون القائم على أساس تقسيم العمل ، أو الصناعة اليدوية بعبارة أخرى قد نما نمواً تلقائيا . وبمجرد أن يبلغ مرحلة معينة من الثبات والامتداد يصبح شكلا واضحاً منتظما ذاهدف مقصود ، اتخذته طريقة الإنتاج الرأسمالية . ويدل تاريخ الصناعة اليدوية على أن تقسيم العمل الذى يميزها قد اتخذ الشكل المناسب له من وراء ظهور المشتركين فيه ثم ما لبث أن سعى إلى الاحتفاظ بهذا الشكل بقوة التقاليد وإنه ليحتفظ به فعلا قرونا كثيرة . فإذا حدث تغيير فى الشكل كان السبب فيه تغيير انقلابى فى أدوات العمل . وفى بعض الحالات تجد الصناعة اليدوية الحديثة بالمدن الكبرى الأجزاء المتناثرة من الجهاز الذى تعمل به وما عليها إلا أن تجمع هذه الأجزاء . وفى حالات أخرى تستطيع بسهولة أن تطبق مبدأ التقسيم بأن تخصص العمليات المختلفة التى تتكون منها حرفة يدوية كتجليد الكتب لأفراد مخصوصين . وفى مثل هذه الحالات يكفى أسبوع واحد ليبين النسب العددية الملاءمة بين الأيدى العاملة وهى النسب اللازمة للوظائف المختلفة(٢) أى يوضح عدد العمال اللازمين لكل وظيفة .

Dr. A. L. Fonterel : Hygiène physique et morale de l'souvrier dans les grandes villes en genéral et dans la ville de Lyon en particulier (باريس ١٨٥٨) ، وكذلك

Die Krankheiten welche verschiednen Standen, Altern und Geschlechtern eigenthumlich sind, 6 vols., 1860.

وفى سنة ١٨٥٤ عينت The Society of Arts. لجنة لتحقيق الأمراض الصناعية ، وجمعت اللجنة وثائق نجدها فى كتالوج متحف تويكنام الاقتصادى . ومن الوثائق الهامة جداً ,, التقارير عن الصحة العامة ،، ـ أنظر أيضاً

Eduard Reich, M. D., : Ueber die Entartung des Menschen, Erlangen, 1868.

(١) D. Urquhart : Familiar Words, London, 1855, p. 119.

الهيجل آراء فاسدة للغاية بصدد تقسيم العمل وهو يقول فى كتابه Rechtsphilosophie ,, حين نتحدث عن المتعلمين نقصد أولا أولئك الذين يستطيعون عمل كل ما يعمله الآخرون ،، .

(٢) يؤمن الأساتذة الألمان بالعبقرية الابتكارية التى لابد أن الرأسمالى الفردى قد استخدمها لكى يقيم قواعد تقسيم العمل . ومن هؤلاء روشير الذى يفترض أن تقسيم العمل وليد ذهن الرأسمالى ، وعلى أساس هذا الفرض يخصص لهذا الرأسمالى ,, أجورا مختلفة ،، من قبيل الجزاء والمكافأة . إن عظم أو نقص تطبيق تقسيم العمل يتوقف على جيب الرأسمالى أكثر منه على حجم عبقريته .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بواسطة تحليل أعمال الحرفة اليدوية ، وتخصيص أدوات العمل لنواح معينة ، وإيجاد العمال الذين يتولون العمليات التفصيلية ، وتجميعهم والربط فيما بينهم لتكوين جهاز واحد كامل . يسبب تقسيم العمل في الصناعات اليدوية تقسيما فرعياً من حيث الكيف وتناسباً كمياً في عملية الإنتاج الاجتماعية وهذا يتضمن تنظيما محدوداً للعمل الاجتماعي . كما أنه في الوقت نفسه يولد إنتاجية عمل اجتماعية جديدة . وبصفته الشكل الرأسمالي الخاص لعملية الإنتاج الاجتماعية فهو لا يزيد عن كونه طريقة خاصة لتوليد فائض القيمة أو لزيادة الامتداد الذاتي لرأس المال (الذي يقال له عادة «الثروة الاجتماعية» ، «ثروة الشعوب» الخ) على حساب العمال . وهو لا يقف عند حد تنمية إنتاجية العمل الاجتماعية للرأسمالي بدلا من أن ينميها لمصلحة العامل ، بل إنه ليصوغ أحوالا جديدة تمكن لرأس المال من أن يسيطر على العمل . وعلى ذلك إذا كنا ننظر إليه من جهة على أنه تقدم تاريخي وعامل ضروري في التطور الاقتصادي للمجتمع ، يجب علينا من جهة أخرى أن نعده أداة للاستغلال المتحضر المهذب . والاقتصاد السياسي الذي يبدو لأول مرة كعلم مستقل في عصر الصناعة اليدوية ، ينظر إلى تقسيم العمل فقط من وجهة نظر تقسيم العمل في الصناعة اليدوية ،[1] أي كأداة لإنتاج سلع أكثر بنفس المقدار من العمل وبالتالي كوسيلة لخفض أثمان السلع والإسراع بتجميع رأس المال ، ولذا كان اهتمام الكتاب القدماء منصباً على النوع والقيمة الاستعمالية[2] فقالوا إنه عن طريق فصل فروع الإنتاج الاجتماعي يتم إنتاج السلع بطريقة أفضل ، كما تتهيأ لنواحي نشاط الإنسان ومواهبه أصلح ميادين العمل[3] وقالوا

---

(١) تجد الاقتصاديين الأوائل مثل بيتي والمؤلف المجهول الاسم لكتاب ,, مزايا تجارة الهند الشرقية ،، يبرزون الطابع الرأسمالي لتقسيم العمل في الصناعة اليدوية ، بشكل أوضح مما يفعل آدم سميث .

(٢) وعلى سبيل الاستثناء من بين الكتاب الحديثين أذكر بعض كتاب القرن الثامن عشر الذين لا تختلف نظرتهم إلى رأس المال عن رأي القدماء ، ومن أمثلة هذا النفر بكاريا وجيمس هاريس — ويقول الأول Cesare Beccaria في كتابه Elementi di economica politica (طبعة كستودي ، القسم الحديث حـ ١١ ص ٢٨) ,,من الملاحظ يوميا أن للشخص الذي يستخدم يده وذكاءه على الدوام في نفس العمل والمنتجات يحصل على نتائج أسهل وأفضل وأكثر مما يحققه الشخص الذي يصنع الأشياء المختلفة التي تشبع حاجياته ، وبذا ينقسم الناس طبقات وأحوالا متباينة بقصد الصالحين العام والخاص،، ، أما جيمس هاريس الذي أصبح فيما بعد إيرل مالمسبري والمشهور بيومياته عن مدة سفارته في سان بطرسبرج فيقول في حاشية على Dialogue concerning Happiness (لندن ١٧٤١ ، أعيد طبعها في مقالات ثلاث الخ ، الطبعة الثالثة ١٧٧٢) « إن الكتاب الثاني من جمهورية أفلاطون يمدنا بالحجة الكاملة لاثبات أن المجتمع طبيعي (بواسطة تقسيم الأعمال) » .

(٣) قارن أوديسية هومر ١٤ و ٢٢٨ ,, يحد الناس المختلفون لذة في الأعمال المختلفة ،، وقال Archilochus نفس الشيء (أنظر Sextus Empiricus).

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

باستحالة تحقيق شيء مهم بغير نوع من تركيز الغاية والهدف[١]. فعلى رأيهم يؤدى تقسيم العمل إلى تحسين كل من المنتِج والمنتَج . وإذا كنا نذكر أحياناً وعرضاً الزيادة فى كمية المنتجات فان هذا لا يقع إلا بالإشارة إلى ازدياد توافر القيم الاستعمالية. وليس هناك ذكر مطلقاً للقيمة التبادلية ، أو أى فكرة عن ترخيص السلع . وإن أفلاطون نفسه ليعنى بالقيمة الاستعمالية[٢] وهو الذى يعد تقسيم العمل أساس انقسام الطبقات الاجتماعى ، كما نجد نفس الاهتمام بالقيمة الاستعمالية لدى زينوفون[٣] الذى يحدثنا الكثير عن تقسيم العمل داخل الورشة وهذا الأمر

---

(١) لدى الاغريق ما يشبه المثل المعروف ,, إن من يحترف كافة المهن لا يتقن أياً منها ،، وكان الأثينى يعتبر نفسه منتجاً للسلع أفضل من الاسبرطى ، لأن الأخير وقت الحرب كان يجد الرجال تحت تصرفه ، ولكنه لم يتحكم فى المال . وقد قال بركليس مثل هذا فى خطابه الذى ألقاه ليحث الاثينيين على حرب البليبونيز ,, إن الناس .. الذين يفلحون الأرض بأيديهم أكثر استعداداً للمخاطرة بحياتهم فى الحرب من المخاطرة بممتلكاتهم . Thucydides, book I Chapter 141 وبرغم هذا ظل ,, الاستكفاء الذاتى ،، حتى فيما يختص بالانتاج المادى ـ المثل الأعلى للأثينيين ، وهو مايختلف عن تقسيم العمل . وبهذه المناسبة يجب أن نذكر أنه فى عهد سقوط الطغاة الثلاثين ، ذلك العهد المتأخر بالنسبة إلى ما سبقه ، لم يكن بأثينا سوى خمسة آلاف مواطن لا يملكون أرضاً زراعية .

(٢) يرى أفلاطون أن تقسيم العمل داخل الجماعة ينشأ عن تعدد الحاجيات بخلاف بساطة الصفات الفردية. وأهم حججه أن على العامل أن يجعل نفسه صالحاً للعمل ، وأن من غير المرغوب فيه أن نجعل العمل موافقاً للعامل وهو الشيء الذى لايمكن تجنبه حين يمارس العامل عدة حرف فى وقت واحد أو يمارس حرفة أو اثنتين ثانويتين إلى جانب حرفته الأساسية ، لأن العمل لايميل إلى الانتظار حتى يكون فاعله حراً غير مقيد ، ولكن الفاعل ينبغى له أن يتابع مايعمله وأن يجعل العمل هدفه الأول ـــ يجب عليه هذا ، وإذا كان الأمر كذلك يجب أن نستخلص من هذا أن كافة الأشياء يمكن إنتاجها بمقادير أوفر وبطريقة أسهل ومن نوع أفضل ، وذلك حينما يؤدى المرء العمل الذى يتفق وطبيعته ، ويؤديه فى الوقت المناسب الصحيح ، ويدع كل ماعداه »

(Republica, 11, 370, Jowett's translation, Dialogues, 1892, vol. III, p. 50).

« إن الملاحة البحرية كأى حرفة حاذقة أخرى تعد فنا (صنعة) ولايمكن القيام بها كأنها مهنة إضافية مساعدة ، وكذلك لايمكن ممارسة أى مهنة أخرى كأنها مساعدة للملاحة البحرية . ويلاحظ أفلاطون أنه إذا كان على العمل أن ينتظر العامل فغالباً مايحدث أن تضيع اللحظة المناسبة وتفسد السلعة . ونلقى مايماثل هذه الفكرة الأفلاطونية فى احتجاج مبيضى القماش الانجليز ضد مافى قوانين المصانع من مواد تفرض ساعة محدودة للغذاء لكافة العمال فى نفس الوقت الواحد ، ويقولون إنهم لا يستطيعون أن يوقفوا عملهم مراعاة لراحة العمال ذلك أنه فيما يختص بالعمليات المختلفة من غسل وتبيض وصباغة .الخ لايمكن إيقاف واحدة منها فى لحظة معلومة دون التعرض لخطر الخسارة . « إن فرض نظام ساعة الغذاء بجميع العمال قد يعرض من وقت لآخر بضائع قيمة وللخطر الناجم عن عمليات غير كاملة» .. إلى أين تتجه الأفلاطونية بعد ذلك ؟

(٣) يحدثنا زينوفون أنه ليس شرفا حسب أن تحصل على الأطعمة الشهية من مائدة الممالك الفارس . بل إن=

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من جانبه يتفق وطابع الرجل البورجوازى . وجمهورية أفلاطون من حيث أنها تعتبر تقسيم العمل كأنه المبدأ الذى تقوم عليه الدولة ، لا تزيد عن كونها صورة مثالية رسمها الأثينيون لنظام الطبقات caste system فى مصر القديمة ، وعلينا أن نذكر أن بعض الإغريق ممن عاشوا فى عهد أفلاطون كانوا يعدون مصر البلد الصناعى النموذجى ومن أمثال هؤلاء Isocrates [1]. وقد رأى الإغريق نفس الأمر فى أيام الامبراطورية الرومانية (ديودور الصقلى) .

فى عصر الصناعة اليدوية بمعناها الصحيح أى فى العصر الذى كانت فيه الصناعة اليدوية الشكل الغالب من الطريقة الرأسمالية فى الإنتاج تجد أن هذا النظام يلقى عقبات كثيرة تحول دون النمو الكامل لاتجاهاته الخاصة به . وبرغم أن الصناعة اليدوية لا تؤدى إلى تقسيم العمال فحسب تقسيما هرمياً بل تسبب كذلك انقساماً بسيطاً بين العمال الحاذقين وغير الحاذقين ، يظل عدد العمال غير الحاذقين صغيراً جداً نظراً لغلبة نفوذ العمال الحاذقين . وبرغم أنها توفق بين عملياتها التفصيلية وبين تفاوت عمالها من حيث درجة نضوجهم وقوتهم ومهارتهم وبذا تميل إلى تشجيع الاستغلال الانتاجى للنساء والأطفال ، إلا أن هذا الميل تحد منه التقاليد ومقاومة

= مثل هذه الأطعمة الرائعة أفضل مذاقا من غيرها وليس ثمت مايدعو إلى الدهشة فكما أن كافة الفنون الأخرى تصل حد الاتقان فى المدن الكبيرة كذلك يؤتى بالأطعمة إلى المائدة الملكية وفق أسلوب أرقى وأسمى لأنه فى المدن الصغيرة يصنع نفس العامل الكراسى والأبواب والمحاريث والمناضد . وفضلا عن هذا فمن المحتمل أن يعمل فى بناء البيوت ، ولا يشعر بالرضاء لو وجد عملا كافياً لاعالته . وطبيعى أن من المستحيل على رجل يمارس كافة الحرف أن يتقن واحدة منها . أما فى المدن الكبرى حيث تتعدد المطالب على كل مهنة ، فان حرفة يدوية واحدة تكفى المرء كى يكسب عيشه . بل إن الحرف اليدوية تنقسم حقاً فيصنع إنسان أحذية الرجال بينما يقوم آخر بعمل أحذية النساء . وقد تجد رجلا يعيش على خياطة الأحذية أو فصل أوخياطة الأجزاء العليا من الحذاء ، بينما يقتصر آخرعلى تجميع هذه الأجزاء سوياً . والذى يحدث حتما أن الرجل الذى يتخصص فى عمل كهذا يؤديه على وجه أفضل . وتنطبق نفس الاعتبارات على فن الطهى » Cyropaedia, VIII. ii, 5 ويلاحظ أن الشىء الوحيد الذى يعنى به زينوفون هنا إنما رغبته فى أن يحدثنا عن الطريقة التى يمكن بها إنتاج أفضل القيم الاستعمالية ، ولكنه يعلم جيداً أن مراتب تقسيم العمل المتدرجة تتوقف على حجم السوق .

(١) « قسمهم بوصير طبقات خاصة ... بحيث ينبغى لنعس الأفراد أن يمارسوا دائماً نفس المهن والأعمال لأنه يدرك أن الذين يغيرون أعمالهم على الدوام لا يتمكنون من أى منها ، أما الذين يحترفون نفس العمل فيبلغون درجة الاتقان . والحقيقة أنهم فاقوا منا فسيهم من حيث الفنون والحرف اليدوية ، وقد بلغت الوسائل التى يحافظون فيها على الملكية ونظم الدولة الأخرى مبلغاً طيباً بحيث ترى أن أشهر الفلاسفة الذين تعرضوا لهذا الموضوع قد امتدحوا دستور الدولة المصرية ،، Isocrates : Busiris, cap. 8,

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العمال المذكور . وبرغم أن انقسام الحرفة أجزاء فرعية يقلل نفقة تدريب العامل وبذا يهبط بقيمته ، إلا أن العمل التفصيلي الصعب يظل فى حاجة إلى فترة طويلة من التدريب ولهذا يحرص العمال على المطالبة بإبقاء فترة التمرين هذه حتى ولو انتفت الحاجة إليها . ولذا ظلت القوانين التى حددت فترة تدريب الصبيان بسبع سنوات نافذة فى انجلترا حتى ختام عصر الصناعة اليدوية ولم يوقف مفعولها إلا بعد أن أصبحت الغلبة للصناعة الكبيرة . ولما كانت مهارة عمال الحرفة اليدوية الأساس الذى استندت إليه الصناعة اليدوية تعين على رأس المال أن يناضل دائماً مع تمرد العمال ، وفى هذا يقول صديقنا Ure « بسبب ما تمتاز به الطبيعة البشرية من نقص يحدث أنه كلما زاد العمل حذقاً كان أقوى إرادة وأشد عناداً وأقل صلاحية لأن يكون أحد العناصر المكونة لنظام ميكانيكى ... يستطيع فيه هذا العامل أن يسبب أذى كبيراً لهذا النظام » (١) (مصدر سابق ص ٢٠) . وهذا هو السبب الذى من أجله كثرت الشكاوى فى الصناعة اليدوية من افتقار العمال إلى النظام . وإذا لم تكن لدينا الأدلة من أقوال الكتاب المعاصرين فإن هذه الأدلة متوافرة مما نعلمه من عدم سيطرة رأس المال خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى قيام الصناعة الكبيرة ، على وقت العمل كله الذى يهيئه عمال ذلك العصر ، كما أن الصناعات كانت قصيرة الأجل وتنتقل من مكان لآخر تبعاً لانتقال العمال . ويقول مؤلف Trade and Commerce « لا بد من استقرار النظام » ، وكذلك طالب بنفس الشيء الدكتور أندرو ايور منذ ٦٦ عاماً . « كان النظام غير متوافر » فى الصناعة اليدوية القائمة على أساس « المذهب القديم فى تقسيم العمل » وقد « خلق أركريت » هذا النظام وأقام قواعده .

لم يكن فى استطاعة الصناعة اليدوية أن تضع يدها على مدى الإنتاج الاجتماعى كله ، أو تحدث انقلاباً كاملا فيه . إن ضيق الأساس الفنى الذى قامت عليه جعلها فى صراع مع المطالب الإنتاجية المتولدة عنها .

ومن أعظم ما ابتدعته الورشة التى قامت لإنتاج أدوات العمل ذاتها وبخاصة ما كان منها من الأنواع الشديدة التعقيد . وقد قال يور إن مصنع الآلات « يظهر تقسيم العمل فى مراتبه المتدرجة الكثيرة الأشكال — المبرد والمثقاب والمخرطة والكل منها عمالها المختلفون بحسب ترتيب مهارتهم » (شرحه ٢١) . فالورشة وهى وليدة تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية قامت بدورها بإنتاج الآلات التى قضت على العمل اليدوى بصفته المبدأ الذى ينظم الإنتاج الاجتماعى . وبهذا لم يعد ثمت وجود للأسباب الفنية التى قضت بقصر العامل مدى حياته على وظيفة جزئية ، كما اختلفت القيود التى فرضها نفس المبدأ على سيطرة رأس المال .

---

(١) تنطبق هذه الملاحظة على انجلترا أكثر منها على فرنسا ، وعلى الاخيرة أكثر منها على هولندة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الثالث عشر

الآلات والصناعة الكبيرة

(١) تطور الآلات

يقول جون ستيوارت مل (مبادىء الاقتصاد السياسى) : « نشك إذا كانت كافة المخترعات الميكانيكية خففت المجهود اليومى الواقع على عاتق كل فرد »[١] . غير أن هذا ليس الغاية التى ترمى إليها الطريقة الرأسمالية فى استعمال الآلات (machinery) إذ مهمة الأخيرة — كأى تقدم آخر في إنتاجية العمل — العمل على رخص السلع ، وإنقاص وقت العمل الذى يشتغل فيه العامل لنفسه ، وزيادة الجزء الذى يعطيه للرأسمالى دون مقابل ، فكأن الآلات وسيلة لإنتاج فائض القيمة . فى الصناعة اليدوية يبدأ الانقلاب فى طريقة الإنتاج بقوة العمل ولكنه يبدأ فى الصناعة الكبيرة بأدوات العمل ، instruments of labour والذى يعنينا أولا بحث الوسائل التى تتحول بها هذه الأدوات من عدد tools إلى آلات وأن نكشف الفوارق بين الاثنين . ولا يهمنا سوى المميزات العامة إذ يستحيل رسم خطوط دقيقة حاسمة بين عصور التاريخ الاجتماعى كما يستحيل ذلك بصدد عصور التاريخ الجيولوجى . يصف علماء الرياضة والميكانيكا العدة بأنها آلة بسيطة . والآلة بأنها عدة مركبة ، وكذلك يفعل الاقتصاديون البريطانيون . ولا يرى هؤلاء جميعاً فارقاً هاماً بين الآلة والعدة ، بل إنهم ليطلقون كلمة آلة على أدوات بسيطة ، لتضعيف القوة الميكانيكية كالعتلة والمسطح المائل والمسمار المحوى والاسفين الخ[٢] . والواقع أن الآلة تتركب من هذه الأدوات implements البسيطة مهما كان مبلغ تستر الأخيرة وارتباطها . غير أن هذا الوصف غير سليم من الناحية الاقتصادية لأنه يغفل أثر العامل التاريخى . ويرى البعض الفارق فى أن القوة المحركة فى العدة بشرية ولكنها فى

---

(١) كان ينبغى لمل أن يقول « الفرد الذى لا يعيش على عمل الغير » إذ لا مراء أن الآلات زادت من عدد الفريق المترف الذى لا يبذل جهداً .

(٢) انظر مثلا Hutton's Course of Mathematics

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الآلة قوة طبيعية أخرى كالحيوان والماء والريح الخ[١] . وقياساً على هذا يدخل فى عداد الآلة المحراث الذى تجره الثيران والذى استخدمه الإنسان فى مختلف عصور الانتاج ، بينما لا يعدو Clausen's Frame الذى يدور باليد ويتم ٩٦,٠٠٠ فتحة في الدقيقة الواحدة أن يكون عدة . ونظراً لأن استخدام قوة الحيوان من أقدم كشوف الجنس البشرى فان الانتاج بالآلة كان موجوداً فعلا قبل عصر الانتاج وفق نظام الحرف اليدوية . ولما أنهى جون ويات للعالم سنة ١٧٣٥ اختراعه المؤذن بقيام الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر لم يقل مطلقاً إنه اختراع بديره الحمار بدلا من الانسان ؛ ومع هذا كان هذا العمل من نصيب الحمار . لقد اكتفى الرجل بوصف اختراعه بأنه آلة « تعمل بغير الأصابع »[٢] .

تتكون الآلة الكاملة التطور من ثلاثة أجزاء وهى الالة المحركة motor machine وجهاز نقل الحركة transmitting mechanism وآلة التشغيل working machine . والجزء الأول هو القوة الدافعة ويولد ما يلزمه من قوة محركة كما تفعل الالة البخارية أو يستمد الطاقة من قوة طبيعية خارجية موجودة من قبل كما تستمد العجلة المائية القوة المحركة من المياه المتساقطة . والطاحون الهوائى من الريح الخ . ويقوم جهاز النقل بتنظيم الحركة وتغيير شكلها

---

(١) « ويمكن من هذه الناحية أن نرسم خطوطاً واضحة للتمييز بين العدة والآلة . فالمجارف والمطارق والأزاميل والوحدات المكونة من عتلات ومن بريمات الخ هذه كلها مهما كانت درجة التعقيد فى تركيبها تدخل فى عداد العدد ما دام الانسان القوة المحركة فيها ، ولكن المحراث الذى تجره الثيران ، والطواحين الهوائية وما إلى ذلك فتنتمى إلى عالم الآلات » . Wilhelm Schulz: Die Bewegung der Produktion, Zurich, 1843, p. 33. وهو كتاب يستحق الثناء من وجوه كثيرة .

(٢) سبق استعمال آلات غزل (ناقصة جداً) قبل عصر ويات ، ولعل ذلك بايطاليا قبل غيرها . ويستدل من دراسة تاريخ الحرف والصنائع أن القليل من مخترعات القرن الثامن عشر توصل اليه فرد واحد ، وحتى الآن لم ينشر مثل هذا الكتاب . لقد أثار دارون اهتمامنا بأصل أعضاء النبات والحيوان بصفتها أدوات إنتاجية تستخدم لبقاء هذه المخلوقات . ألا يستحق الاهتمام تاريخ أصل الاعضاء (الاجهزة) الانتاجية للناس فى المجتمع وهى الاجهزة التى يتكون منها الاساس المادى الذى يقوم عليه كل نوع من التنظيم الاجتماعى ؟ وكما يقول فيكو بما أن جوهر التمييز بين التاريخ الانسانى والتاريخ الطبيعى ينحصر فى أن الاول من عمل الانسان بخلاف الآخر ، أليست كتابة تاريخ الحرف الصناعية الانسانية أسهل من كتابة تاريخ الحرف الصناعية الطبيعية ؟ إن البحث فى نشأة الصناعات يظهر العلاقة بين الانسان والطبيعة ، ويكشف عن نواحى النشاط الانتاجى فى حياته ، وبذا يلقى الضوء على العلاقات الاجتماعية والآراء الفكرية الناجمة عنها . ان الدين يخلو من الطابع القدسى إن لم ندخل فى حسابنا هذا الأساس المادى ... إن المادية المجردة فى العلم الطبيعى الذى يستبعد العملية التاريخية ، مادية ناقصة معينة ، كما نرى ذلك حين نلقى نظرة سريعة على الصور الذهنية التى يعبر عنها أربابها وأنصارها حينما يجرأون على تجاوز نطاق اختصاصهم .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إذا لزم الأمر وتوزيعها ونقلها إلى آلة التشغيل ؛ وهو مكون من أعمدة المحاور وعجل التروس والطارات والسيور والأحزمة والتروس الصغيرة الخ . وعلة وجود الأجزاء المحركة والناقلة أنها تدفع آلة التشغيل الفعلية وتنقل اليها الحركة التى تمكنها من تغيير ومعالجة المادة الخام بالشكل الملاءم . وقد اعتمدت ثورة القرن الثامن عشر الصناعية على هذا الجزء الأخير من جهاز الالة الكامل . إن آلات التشغيل نقطة الابتداء دائماً حينما تحل الصناعة الالية machinofacture محل الحرفة اليدوية أو الصناعة اليدوية .

يرينا الفحص الدقيق أن آلة التشغيل تحتوى — ولو فى صورة معدلة — على الجهاز والأدوات التى اشتغل بها العامل فى نظامى الحرفة اليدوية والصناعة اليدوية ، ولكن هذه صارت أدوات ميكانيكية mechanised بدلا من كونها أدوات يشتغل بها إنسان . فالآلة بجملتها إما نسخة ميكانيكية معدلة من عدة عصر الحرفة اليدوية كما كان فى حالة النول البخارى(١) وإما أن فى تركيبها ما يذكرنا بأشياء قديمة كالمغازل فى آلة الغزل ، والمناشير فى آلة النشر وهكذا . هذه العدد ينتجها فى الغالب رجال الحرف اليدوية أو عمال الصناعة اليدوية ، ثم توصل بآلة التشغيل التى تصنعها الصناعة الميكانيكية(٢) . فآلة التشغيل — عن طريق العدد المتصلة بها — تؤدى العمل الذى كان يؤديه العامل اليدوى قبلا بواسطة عدد من نفس النوع ، وجوهر المسألة واحد سواء جاءت القوة المحركة عن طريق الإنسان أو الآلة . إن الآلة تحل محل العدد فى اللحظة التى تنتقل فيها إدارة العدة من الإنسان إلى جهاز آلى . والفرق واضح حتى لو ظل الإنسان القوة المحركة الأولى للآلة . ويحد من عدد أدوات العمل التى يشتغل بها العامل فى نفس الوقت الواحد ما يملك من أدوات إنتاج طبيعية أى أعضاء جثمانية . لقد حاولوا فى ألمانيا أن يديروا الغزال آلتين سوياً بيديه وقدميه فوجدوها طريقة مفككة للقوى وصنعوا آلة ذات مغزلين يديرها مداس واحد كان الغزالون الحاذقون ممن يغزلون خيطين فى وقت واحد فى الندرة كالآدمى ذى الرأسين ، ولكن آلة spinning jenny تدير ١٢ - ١٨ مغزل فى وقت واحد ، وعلى ذلك فمنذ البداية الأولى يتحرر عدد العُدد التى يديرها نفس آلة التشغيل الواحدة فى وقت واحد من القيود العضوية التى تقيد عمل عدد أهل الحرف اليدوية

---

(١) نستطيع أن نرى من أول نظرة أن النول البخارى فى أول أشكاله يشمل النول اليدوى القديم ؛ أما الشكل الحديث من النول البخارى فقد تغير تغيراً أساسياً .

(٢) منذ حوالى سنة ١٨٥٠ زادت باطراد نسبة عدد آلة التشغيل والتى أنتجتها الصناعة الميكانيكية بانجلترا ولو أن إنتاج هذه العدد لم يتم فى نفس المصانع التى تصنع الآلات ذاتها . ومن بين الآلات التى تصنع هذه العدد نذكر الأنواع الآتية card-setting engine, automatic bobbin making engine الخ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وفى كثير من الأدوات اليدوية نجد التباين واضحاً بين الانسان بصفته قوة محركة بسيطة وبصفته عاملا يشتغل بالعدد فعلا ، ففى عجلة الغزل تستخدم القدم كمجرد قوة تديرها بينما تقوم اليد التى تشتغل بالمغزل بعمليات الغزل الفعلية . هذا الجزء الأخير من أداة نظام الحرفة اليدوية هو الذى تبدأ الثورة الصناعية بوضع اليد عليه . فعلى الانسان وهو يراقب الآلة وعملها ويصحح أخطاءها ، أن يؤدى دوراً ميكانيكيا بحتا وهو إمداد القوة المحركة .

ومن جهة أخرى فالأدوات التى يمدها الإنسان دائماً بالقوة المحركة عن طريق مجرد استعمال عضلاته (مثل إدارة دولاب الطاحون [١] . وتحريك يد المضخة الخ) سرعان ما تتطلب استخدام الحيوان والماء والريح [٢]. ولقد أخذ مثل هـذه الأدوات يتحول إلى آلات قبـل عصر الصناعة اليدوية بزمن طويل وذلك فى حالات متفرقة ، واستمرت العملية خلال ذلك العصر دون أن تحدث انقلاباً فى طريقة الإنتاج . فلما بدأ عصر الصناعة الكبيرة نجد أن هذه الأدوات — حتى فى شكلها الذى تدار فيه باليد — قد أصبحت آلات . ومثال ذلك أن المضخات التى جفف بهـا الهولنديون بحيرة هارلم (١٨٣٦—١٨٣٧) كان تصميمها وفق مبدأ المضخات العادية مع فارق واحـد وهو إدارة مكابسها بواسطة آلات بخارية بدلا من يد الإنسان . ولايزال منفاخ الحداد يتحول فى انجلترا إلى منفاخ ميكانيكى وذلك بأن يوصل ذراعه بآلة بخارية . والآلة البخارية نفسها بالشكل الذى ظهرت به أولا فى عصر الصناعة اليدوية فى ختام القرن السابع عشر والذى استمر حتى سنة ١٧٨٠ [٣] ، لم تؤد إذ ذاك إلى ثورة صناعية . ولكن خلق العدد الميكانيكيةmechanised toos استلزم

---

(١) يقول موسى «لن تكمم الثور حين يدرس القمح» ، ولكن الانسانيين المسيحيين بألمانيا حينما استخدموا الأقنان لادارة الطواحين وضعوا قطعاً دائرية كبيرة من الخشب حول أعناق هذه الماشية الآدمية لمنعهم من الأكل أثناء العمل».

(٢) والذى حمل الهولنديين على الالتجاء إلى الريح كقوة محركة عدم وجود مجارى مائية وافية بالغرض ، والحاجة إلى إبعاد الماء عن الجهات التى لا لزوم للماء فيها وهى عملية تتكلف قدراً من الطاقة . وحصل الهولنديون على الطاحون الهوائى من ألمانيا حيث سبب ذلك الكشف نزاعاً بين النبلاء ورجال الدين والامبراطور بسبب ادعاء كل من هؤلاء أن الريح «تابع له» . وكانوا يقولون فى ألمانيا «الهواء يجلب العبودية» ، بينما جلب الريح الحرية فى هولندة . إن الريح بهولندة إسترق الأرض لا الانسان وقد بلغ عـدد الطواحين الهوائية فى ذلك البلد ١٢,٠٠٠ وقوتها ٦٠٠٠ حصان بخارى (سنة ١٨٣٦) وذلك لمنع تحول ثلثى البلد إلى مستنقعات من جديد .

(٣) تحسنت كثيراً فى الواقع بفضل اختراع آلات البخارية الأولى التى يقال لهاSingle action engine ولكنها لم تزد فى هذا الشكل عن كونها مضخة لرفع الماء من مناجم الفحم ، والماء الشديد الملوحة من مناجم الملح .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حدوث انقلاب فى الآلة البخارية . والإنسان الذى يشتغل بإحدى العدد حالما يكتفى بإمداد آلة التشغيل بقوة محركة فاذ من الصدف المجردة أن يكون مصدر هذه القوة عضلاته إذ يمكن أن يحل الريح والماء والبخار أو أية قوة آلية أخرى محل القوة المحركة الآدمية ، ولكن هذا العمل يستلزم تغييرات فنية كبيرة فى الجزء الذى كان مصنوعاً من قبل بحيث تديره القوة المحركة الآدمية . وثمت آلات كالتى تستخدم فى الحياكة وعمل الخبز الخ تصنع بطريقة تجعلها صالحة لأن تديرها القوة المحركة الآدمية أو الميكانيكية . إن الذى يسبب الثورة الصناعية هو الآلة التى تجعل مكان العامل الذى يشتغل بعدة واحدة جهاز آلة يدير فى نفس الوقت الواحد عدة عدد مشابهة وتديرها قوة محركة واحدة مهما كان شكل هذه القوة[1] . فلدينا هنا آلة ولكن لنبدأ بها على أنها عامل أولىّ من عوامل الصناعة الميكانيكية .

وكبر حجم آلة التشغيل وازدياد عدد مما تحركه من عُدد فى وقت واحد يترتب عليهما ازدياد المقاومة الداخلية مما يتطلب قوة محركة أقوى من عضلات الإنسان ، وهذا بغض النظر عن عدم استعداد الإنسان الطبيعى لإنتاج أو توليد حركة متجانسة مستمرة . وبفرض أن الإنسان يستمر فى العمل كقوة محركة أولية بينما تحولت العدة التى يستعملها بيده إلى عدة ميكانيكية ، فهنا يتضح أن فى إمكان قوى الطبيعة أن تحل محله كقوة محركة . والحصان أسوأ أنواع القوة المحركة الكبيرة التى وصلتنا من عصر الصناعة اليدوية ذلك أن له رأساً تفكر كما أنه كثير الكلفة ومدى استخدامه فى المصانع محدود[2] . وبرغم هذا ظلت الأحصنة تستخدم

---

(١) ,, تتكون الآلة من اتحاد جميع هذه الأدوات البسيطة التى يحركها محرك واحد. Babbage, op cit

(٢) فى يناير سنة ١٨٦١ قرأ جون . س . مورتن بحثا عن ,, القوى المستخدمة فى الزراعة ،، أمام جمعية الفنون فقال ,, كل تحسين يزيد من وحدة شكل الأرض وانتظامها يجعل الآلة البخارية أكثر صلاحية للاستعمال فى توليد قوة ميكانيكية بحتة ... وقوة الحصان البخارى لا بد منها حينما توجد الأسيجة المعوجة أو العوائق التى تحول دون انتظام الحركة ، وهذه العوائق تزول يوماً بعد آخر . وفى حالة العمليات التى تتطلب استخدام الارادة أكثر من استخدام القوة العملية ، تجد أن أصلح قوة تلك التى يسيطر عليها العقل البشرى ، وبعبارة أخرى قوة الانسان ،، بعد ذلك يرد مستر مورتن القوة البخارية وقوة الحصان وقوة الانسان إلى الوحدة التى تستخدم عموماً للالات البخارية أى القوة اللازمة لرفع ٣٣,٠٠٠ رطل لمسافة قدم فى دقيقة واحدةوهو يقول إن نفقة الحصان البخارى إذا ولدته الآلة البخارية عبارة عن ٣ بنسات فى الساعة ، وإذا تولد عن الحصان الحى بنسات فى الساعة . وأكثر من هذا إذا أريد بقاء الحصان فى صحة جيدة ينبغى ألا يشتغل أكثر من ٨ ساعات فى اليوم . واستخدام قوة البخار يمكن الفلاح من أن يستغنى عن ٣ أحصنة على الأقل من كل سبعة يستخدمها فى الأرض وذلك بنفقة لا تزيد فى السنة عن نفقة الأحصنة التى يستغنى عنها خلال الثلاثة أو الاربعة شهور التى يمكن فيها استخدام الاحصنة بطريقة فعالة . وأكثر من

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

على نطاق واسع فى أيام الانقلاب الصناعى الأولى ، ويدل على ذلك شكوى الزراع إذ ذاك كما أننا لا زلنا نستخدم عبارة « حصان بخارى » على أنه المقياس التقليدى لكمية القوة الميكانيكية . وإذ وجدوا الريح غير مضمونة يصعب السيطرة عليها سادت القوة المائية بانجلترا مهد الصناعة الكبيرة الحديثة ـ حتى فى عصر الصناعة اليدوية . وحاولوا فى القرن السابع عشر إدارة اسطوانتين ومجموعتين من الرحى بواسطة عجلة مائية واحدة . ولكن آلة نقل الحركة بعد أن كبر حجمها صارت قوية بالنسبة إلى العجلة ؛ وهذا أدى إلى القيام بدراسة أدق لقوانين الاحتكاك . وبسبب عدم انتظام الطواحين التى تدار بواسطة دفع وجذب عتلة ظهرت نظرية الحدافات وأخذوا فى تطبيقها(١) وهى النظرية التى لعبت دوراً هاماً فى الصناعة الكبيرة . هكذا تولدت فى عصر الصناعة اليدوية أولى العناصر العلمية والفنية التى يتطلبها قيام الصناعة الكبيرة . وكانت آلة أركريت للغزل تدار منذ ظهورها بقوة الماء ، ولكن استخدام هذه القوة كان محفوفاً بالصعاب إذ لا يمكن زيادتها حسب الطلب كما أنها تنفد فى فصول معينة ، وأهم من هذا أنها ذات طابع محلى بحت(٢) . ولما اخترع وات آلته البخارية الثانية ظهر لأول مرة محرك يولد قوته عن طريق استهلاك الفحم والماء ، وهو محرك نسيطر عليه وننقله من مكان لآخر ، ويمكن استخدامه بالمدينة لا بالقرية وحدها بحيث أمكن تركيز الانتاج بالمدن بعد أن كان متناثراً بالريف(٣) ، وصالح للاستعمال من الناحية الفنية إذ يقل تأثره بالظروف المحلية التى يوجد فيها . وتبدو عبقرية وات فى أنه فى الامتياز الذى حصل عليه فى أبريل ١٧٨٤ وصف الآلة البخارية لا على أنها كشف يراد به أغراض خاصة بل كعامل يمكن استخدامه

= هذا فاستخدام القوة البخارية مكان الاحصنة يؤدى إلى تحسين نوع العمل فى العمليات الزراعية التى يناسبها ذلك أن أداء عمل الآلة البخارية يتطلب ٦٦ رجلا بنفقة كلية قدرها ١٥ شلن فى الساعة ، بينما أداء عمل الحصان يتطلب ٣٢ رجلا والتكاليف الكلية ٨ شلنات فى الساعة .

(١) Faulhibr, 1625, De Cous, 1688.

(٢) كان من أثر كشف التربين أن تحرر استخدام قوة الماء فى الصناعة من كثير من القيود السابقة .

(٣) « فى الايام الاولى لصناعات النسج كان موقع المصنع يتوقف على وجود مجرى مائى به مسقط يستطيع إدارة العجلة المائية ، وبرغم أن إنشاء هذه المعامل التى تدور بالماء كان بداية تحطيم النظام المنزلى فى الصناعة اليدوية إلا أن المصانع (التى كانت بحكم الضرورة واقعة على المجارى المائية ومتباعدة بعضها عن بعض) كانت جزءاً من نظام ريفى أكثر منها من نظام مدنى . فلما استخدمت قوة البخار مكان الماء تجمعت المصانع فى المدن وتوافرت الاماكن التى بها الفحم والماء اللازمان لتوليد البخار بكميات كافية . فالآلة البخارية هى الأصل فى قيام المدن الصناعية » .

A. Redgrave Reports of the Inspectors of Factories, April 30, 1866 p, 36.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بصفة عامة فى الصناعة الميكانيكية . لقد تنبأ باستعمالات لم يتحقق كثير منها مثل المطرقة البخارية إلا بعد انقضاء نصف قرن . ومع ذلك شك فى استخدام آلته البخارية للملاحة ولكن خلفيه بولتن ووات عرضا فى المعرض الدولى (١٨٥١) آلات بخارية ضخمة صنعت من أجل عابرات المحيط البخارية .

حالما تتحول العدد التى يشتغل بها الفرد الى عدد فى آلة التشغيل لايلبث جهاز نقل الحركة أن يكتسب شكلا مستقلا وقد تحرر تماما من القيود التى تفرضها القوة الآدمية . فى هذه الحالة تهبط العدة الميكانيكية الفردية الى منزلة أحد عناصر الصناعة الميكانيكية ، ويصبح فى الامكان لجهاز حركة واحد أن يدير عدة آلات تشغيل فى وقت واحد . وإذ يزيد عدد الأخيرة يزداد جهاز الحركة حجما وقوة ، ويتسع نطاق جهاز النقل إلى حد كبير . وعلينا الآن أن نميز بين التعاون الذى تقوم به آلات كثيرة من نوع واحد وبين النظام القائم على الآلة بوجه عام . ففى الحالة الأولى يتم إنتاج السلعة بواسطة آلة تشغيل واحدة تؤدى مختلف العمليات التى كان يقوم بها رجل الحرفة اليدوية بما يملك من أداة ، أو التى كان عدد من رجال الحرف اليدوية يستخدمون عدداً مختلفة يضطلعون بها بوصفها عمليات كل منها تتم بعد الأخرى وذلك باعتبار كل عملية مستقلة عن الأخرى أو باعتبارها جميعاً أجزاء من عملية صناعية كاملة واحدة (١) . فمثلا فى صنع ظروف الخطابات باليد كان رجل يطوى الورق وآخر يلصق الصمغ وهكذا ، وحتى تتم هذه العمليات الجزئية لابد من انتقال الظرف من يد إلى أخرى ، أما الآن فآلة واحدة تقوم بهذه العمليات جميعا وتصنع ٣٠٠٠ ظرف فى الساعة . وعرضت فى معرض لندن (١٨٦١) آلة أمريكية تنتج ٣٠٠ حقيبة من الورق فى الدقيقة وتقوم بقطع الورق ولصقه وطيه . هذه العملية التى كانت منقسمة إلى عمليات كثيرة فى عصر الصناعة اليدوية تؤديها الآن آلة واحدة تدير عدداً مختلفة فى وقت واحد . وسواء كانت آلة التشغيل الضخمة هذه صورة ميكانيكية جديدة لأداة يدوية معقدة . أم أنها اتحاد من أدوات مختلفة كانت مخصصة لأغراض صناعية معينة ، ففى كلتا الحالتين يعود التعاون إلى الظهور بالمصنع — أى المكان الذى يتم فيه العمل بالآلات الميكانيكية — فى شكله البسيط . وإذا

(١) من وجهة نظر تقسيم العمل فى ظل الصناعة اليدوية كان النسج شكلا معقداً من العمل اليدوى ، ولهذا السبب فالنول البخارى الة تقوم بوظائف متعددة الأنواع . ومن الخطأ أن نظن أن الآلات الحديثة بدأت بوضع يدها على العمليات التى بسطها تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية ، ففى ذلك العهد كان الغزل والنسج منقسمين أنواعاً جديدة كما تحسنت وتعدلت الأدوات التى استعملت فيها ، ولكن عملية العمل نفسها لم تنقسم وظلت يدوية . إن تطور الآلة يبدأ من أدوات العمل لا العمل نفسه .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

صرفنا النظر مؤقتاً عن العمال فهذا التعاون يبدو تجميعاً فى مكان واحد لآلات متشابهة تؤدى عملا فى وقت واحد . مثال ذلك أن مصنع عمل المنسوجات يتكون من أنوال بخارية كثيرة تعمل جنباً إلى جنب ، ومن مصنع للحياكة يشمل آلات الحياكة التى تعمل فى نفس البناء . ففى أى الحالتين نجد وحدة فنية لأن جميع الأنوال البخارية أو آلات الحياكة يديرها محرك واحد فى وقت واحد وبدرجة متساوية ، وهذه الطاقة ينقلها جهاز ناقل مشترك بالنسبة إليها جميعاً نظراً لأن أجزاء منه تتفرع إلى كل آلة تشغيل . فكما أن آلة تشغيل واحدة تتكون من عدد كثيرة ، كذلك يتكون نفس الجهاز المحرك الواحد من آلات تشغيل كثيرة .

إن ما أطلقنا عليه عبارة «النظام القائم على الآلة» machine system لا يؤدى عمله مكان الالات الفردية المستقلة إلا بعد أن يتعرض الشىء الذى يتناوله العمل لسلسلة من عمليات مختلفة متدرجة تقوم بها آلات تشغيل مختلفة على التوالى ، وكل من الأخيرة تكمل عمل غيرها . وهنا كذلك نجد تكراراً لتعاون عن طريق تقسيم العمل وهو ما تتميز به الصناعة اليدوية ، ولكن هذا التقسيم يقوم به الان اتحاد من آلات التشغيل كل منها تؤدى عملية جزئية ، أى أن المهام التى كان يتولاها مختلف عمال المسائل التفصيلية (كالضاربين والمشاطين والغزالين فى صناعة الصوف اليدوية) تتحول إلى مهام تؤديها لات تشغيل مخصوصة كل منها عضو خاص لأداء وظيفة معينة فى نظام الجهاز الالى المتحد كله . وعلى ذلك ففى الفروع التى تدخلها ، الصناعة الميكانيكية لأول مرة تهيىء الصناعة اليدوية بوجه عام الأساس الطبيعى لتقسيم عملية الانتاج وبالتالى تنظيمها (١) وبرغم هذا يبدو لنا فى الحال فارق أساسى . ففى الصناعة اليدوية يتعين على العمال أن يؤدوا كل عملية جزئية بعددهم اليدوية سواء أكانوا منعزلين الواحد عن

---

(١) قبل أيام الصناعة الكبيرة كان عمل المنسوجات الصوفية الفرع الرئيسى من الصناعة الانجليزيه اليدوية ، نتيجة لهذا جرت أغلبية التجارب فى هذا الفرع خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر . وبعد ذلك استخدمت الخبرة المكتسبة على هذا النحو فى صناعة السلع القطنية وهى التى تتطلب استعدادات أقل مشقة منها فى حالة المنسوجات الصوفية. وبالعكس نجد فيما بعد أن صنع الاصواف بالآلات تطور وفق مبدأ الغزل الآلى والنسيج بالنول البخارى فى عمل المنسوجات القطنية . ولم تدخل عناصر معينة من الصناعة الصوفية فى نظام المصانع إلا فى العهود الحديثة «إن استخدام البخار فى عملية تمشيط الصوف ... على نطاق واسع منذ استعمال آلة التمشيط وبخاصة الآلة التى اخترعها ليستر ... كان من أثره بلا ريب تعطل عدد كبير من العمال . كان تمشيط الصوف يتم من قبل باليد وغالباً فى كوخ العامل الذى يتولى هذه العملية ، أما الآن فيجرى تمشيطه بوجه عام فى المصنع وحدث الاستغناء عن العمل اليدوى إلا فى حالة أنواع مخصوصة من العمل . وقد اشتغل كثيرون من المشاطين فى المصنع ولكن نسبة التمشيط باليد ضئيلة بالقياس إلى التمشيط بالآلة بحيث زال عهد استخدام عدد كبير جداً من المشاطين» تقارير مفتشى المصانع ٣١ أكتوبر ١٨٥٦ ص ١٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الآخر أم كانوا على هيئة مجموعات . والواقع أن العامل مهيء للعملية كما أن العملية صارت من قبل موافقة له . هذا المبدأ الذاتى الذى يقوم عليه تقسيم العمل لم يعد له وجود فى حالة الانتاج القائم على الالة إذ هنا تصبح العملية بأسرها موضوعية وينظر اليها فى حد ذاتها وبذاتها ، وتحلل إلى المظاهر التى تكونها ، كما أن مشكلة أداء كل عملية تفصيلية وربط مختلف العمليات الجزئية يتم حلها عن طريق علوم الميكانيكا والكيمياء الخ (١) . وبالطبع لابد للنظريات من أن تدعمها الخبرة العملية المتراكمة . إن كل آلة جزئية تعد المادة الخام للآلة التى تتلوها فى السلسلة ، ولما كانت هذه الآلات جميعاً تعمل فى نفس الوقت الواحد فان المنتج يكون فى نفس الوقت فى مختلف مراحل إنتاجه ، كما يكون فى نفس الوقت فى مراحل انتقاله من أحد مظاهر الانتاج إلى الآخر . وكما أنه فى الصناعة اليدوية يقيم تعاون عمال المسائل التفصيلية نسبا عددية محدودة بين المجموعات العاملة ، كذلك فى أى نظام منظم من الانتاج القائم على الآلة — حيث كل آلة تفصيلية فيه تمد الأخرى بالعمل باستمرار — تقوم علاقات محدودة بين عددها ونطاق عملها وسرعة أدائها للعمل . فآلة التشغيل الجماعية Collective التى تشمل أنواعا مختلفة من آلات التشغيل الفردية ومجموعات من أمثال هذه الآلات ، يزداد قربها من الكمال والاتقان كلما أصبحت العملية بصفتها كل واحد أكثر دواما واستمراراً أى كلما قل تعطل انتقال المادة الخام من المظهر الأول إلى الأخير ، وبعبارة أخرى كلما زادت مقدرة الجهاز نفسه على أن يحل محل الأيدى الانسانية فى تمرير المادة الخام من أحد مظاهر الانتاج إلى الآخر . إن عزلة أو انفراد كل عملية تفصيلية فى الصناعة اليدوية شرط تفرضه نفس طبيعة تقسيم العمل ، أما فى المصنع الكامل التطور فلابد من أداء العمليات المنفصلة باستمرار .

إن مجموعة الآلات (سواء كانت مجرد تعاون بين آلات تشغيل من نفس النوع كما هو الحال فى النسج ، أو كانت اتحاداً من آلات مختلفة النوع) تصبح آلة ضخمة بمجرد أن يديرها محرك أوتوماتيكى رئيسى . ولكن برغم أن المجموعة كلها يديرها محرك رئيسى كآلة بخارية مثلا ، فان بعض آلات التشغيل الفردية قد يظل فى حاجة إلى يد الانسان لأداء عمليات معينة (كما يستلزم الحال فى معامل الغزل الرفيع) ، أو قد يكون من الضرورى — لتمكين آلة من أداء عملها — أن يتولى أمر بعض أجزائها عامل كما لو كانت هذه الأجزاء عدداً يدوية (كما كان يحدث فى ورش صانعى الآلات قبل تحويل حركة الانزلاق إلى حركة

---

(١) « وعلى ذلك يقوم مبدأ نظام المصانع على إحلال ... تقسيم (تجزئة) عملية إلى العناصر الاساسية التى تتكون منها ، مكان تقسيم أو تدريج العمل بين الصناع » (بود — ص ٢٠)

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أوتوماتيكية) . وحالما تستطيع آلة التشغيل — بدون مساعدة الانسان — أن تؤدى كافة الحركات اللازمة لصوغ المادة الخام بحيث لايتطلب الأمر أكثر من مجرد الاشراف صار لدينا نظام أوتوماتيكى من الآلات ولكنه نظام قابل للتحسين فى التفاصيل . وهكذا نحصل على الجهاز الذي يوقف آلة الغزل حينما يتقطع خيط ، كما نحصل على آلة التوقيف الأوتوماتيكية التى توقف النول البخارى حالما يفرغ المكوك من الخيط . ولكن هذه اختراعات حديثة جداً . ويقدم لنا مصنع الورق الحديث مثلا طيباً عن استمرار الانتاج وتطبيق المبدأ الأوتوماتيكى . ففى صناعة الورق يمكن أن ندرس بالتفصيل لا الفروق بين مختلف أساليب الانتاج التى تتبعها أدوات الانتاج المتباينة فحسب ، بل وكذلك الرابطة بين علاقات الانتاج الاجتماعية وبين أدوات الانتاج هذه ، لأن صناعة الورق الألمانية فى الأيام الأولى كانت أنموذجا لإنتاج الحرف اليدوية ، وصناعة الورق الهولندية فى القرن السابع عشر والفرنسية فى القرن الثامن عشر أنموذجا لانتاج الصناعة اليدوية ، وصناعة الورق البريطانية الحديثة أنموذج الانتاج بالمصنع الأوتوماتيكى . وعلاوة على ذلك ففى الصين والهند شكلان آخران لنفس الصناعة ولا يزالان قائمين . إن الجهاز المنتظم من آلات التشغيل التى يحركها جميعا جهاز ينقل اليها الحركة من جهاز أوتوماتيكى مركزى . هو الشكل الكامل التطور للصناعة الميكانيكية . فبدلا من الآلة الفردية نجد أمامنا مارداً ميكانيكياً يملأ فراغ المصنع وله قوة شيطانية يظهرها ذلك العدد الهائل الصاخب من أعضائه العاملة ، وإن أخفى هذه القوة عن أبصارنا طابع الانتظام الذى يميز أطراف ذلك المارد الضخمة .

لقد وجدت بغلات وآلات بخارية قبل وجود عمال عملهم الوحيد صنعها ، كما كان هناك من يرتدى الملابس قبل أن يوجد الحاكة . ولكن كشوف واختراعات فوكانسن وأركريت ووات وغيرهم لم تصبح فى حيز الإمكان إلا لأن هؤلاء المخترعين وجدوا أمامهم ميكانيكيين حاذقين بفضل عهد الصناعة اليدوية . وبعض أولئك العمال من أرباب الحرف اليدوية المستقلين ممن يمارسون حرفاً مختلفة ، والبعض الآخر تجمعوا فى الصناعات اليدوية التى اتبعت نظام تقسيم العمل بدقة كما شرحنا ذلك آنفاً . وبتقدم الاختراع الميكانيكى وازدياد الطلب على الآلات التى تم كشفها حديثاً حدث أمران بالتدريج : أولهما انقسام صنع الآلات إلى فروع مستقلة كثيرة العدد ، وثانيهما تقسيم العمل فى الصناعات اليدوية المشتغلة بصنع الآلات . هكذا نجد في الصناعة اليدوية الأساس الفنى المباشر للصناعة الكبيرة ، فكأن الأولى أنتجت الآلات التى مكنت الصناعة الكبيرة أولا من السيطرة على فروع معينة من الصناعة الحرفية واليدوية . وإذ بلغت هذه درجة معينة من النمو كان عليها أن تحدث تغييراً ثورياً فى هذا الأساس الذى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وجدته تحت يدها ، وأن تخلق أساساً جديداً يناسب أسلوبها فى الإنتاج . وكما كانت الآلات الفردية التى يحركها الإنسان وحدة ضئيلة الحجم ، وكما أن نظام الآلة لم يكن لينمو فى حرية قبل أن تحل الآلة البخارية محل القوى المحركة التى مصدرها الحيوان والريح والماء ، كذلك عطل من تطور الصناعة الكبيرة أن أداة الإنتاج الخاصة بها — ونقصد بذلك الآلة نفسها — كانت تعزو وجودها إلى القوى الفردية والمهارة الفردية ، — وكانت إذا صح التعبير — تعتمد على التطور العضلى وحدة البصر ودهاء اليد مما كان يستخدمه عمال المسائل التفصيلية فى الصناعة اليدوية والعمال اليدويون فى الحرف اليدوية لتحويل أدواتهم الضئيلة الحجم . وعلى ذلك فبغض النظر عن ارتفاع نفقة الآلات التى تصنع بهذه الطريقة (والتكلفة الأولية ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى رأس المال) فإن توسع الصناعات التى تقوم بها الآلات ، وانتشار الآلات إلى فروع جديدة من الإنتاج ، كانا يعتمدان على نمو طائفة من العمال لا يستطيع عددهم أن يزداد بسرعة كبيرة بسبب الطبيعة الفنية لمهنتهم وعملهم . وعلاوة على ذلك وجدت الصناعة الكبيرة نفسها — بعد أن بلغت مرحلة معينة من تطورها — أنها أمام عقبة ترجع إلى نقص فى أساسها الذى هيأته لها الحرفة والصناعة اليدوية وذلك فى المجال الفنى . لقد أصبحت المحركات أكبر حجما وقوة وحدث نفس الشىء بالنسبة إلى جهاز نقل الحركة وآلات التشغيل وزاد تعقيد الأجزاء التى تتركب منها هذه الآلات وتعددت أشكالها وأصبحت فى الوقت ذاته أكثر انتظاماً من حيث الشكل وذلك بقدر نسبة ابتعادآلات التشغيل عن نموذج الآلات التى كان تصميمها من قبل للعمل فى ظل نظام الحرفة اليدوية ، وبقدر ما أصبح لها تركيب أكثر حرية ويتحدد بالعمل الميكانيكى المنوط بهذه الآلات (١) . ثم تلا ذلك التطور الأكمل للنظام الأوتوماتيكى تبعا للحاجة إلى اتساع نطاق استخدام المواد التى كان من الصعب نسبياً استعمالها وذلك كالحديد بدلا من الخشب . ولكن حل جميع هذه المشاكل التى نشأت من تلقاء ذاتها خلال تطور الإنتاج القائم على الآلة ، اصطدم بعقبات فى مسألة الحدود الفردية التى لم يتغلب عليها العامل الجماعى فى الصناعة اليدوية إلا من حيث مداها ، لا من حيث جوهرها النوعى أى جوهرها

(١) فى بادىء الامر كان النول البخارى يصنع فى القالب من الخشب ولكن النوع الحديث يصنع من الحديد وقد أثرت الاشكال القديمة من أدوات الانتاج فى الاشكال الجديدة بصورة واضحة كما نستدل على ذلك حتى من عقد موازنة سطحية بين النول البخارى الحالى والنوع القديم ، وبين جهاز النفخ فى الافران الحديثة والمنفاخ العادى . ويبدو أثر الاشكال القديمة بشكل أوضح فى تطور القاطرة البخارية . وكانت أولى المحاولات لاختراع القاطرة عبارة عن محاولة إنشاء آلة ذات قدمين ترفعان بالتبادل كما هو الحال فى أقدام الحصان . ولكن بعد أن حدث التقدم الكبير فى علم الميكانيكا وتراكمت الخبرة العملية بدأ شكل الآلة يتطور طبقاً للمبادىء الميكانيكية . وفى هذه الحالة فقط تحرر ذلك الشكل من الشكل التقليدى للعدة التى ولدت الآلة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الكيفى . ومثال ذلك أن آلات مثل المكبس الهيدروليكى والنول البخارى الحديث وآلة التمشيط الحديثة لم يكن من المستطاع عملها بواسطة عملية الصناعة اليدوية .

إن الانقلاب الذى يصيب طريقة الإنتاج فى مجال من الصناعة ينطوى على انقلاب مماثل فى كل مجال ، وهذا ينطبق أولا على تلك الفروع من الصناعة التى تتصل فيما بينها كمظاهر عملية متحدة واحدة ، برغم أن التقسيم الاجتماعى للعمل يفصل كلا منها عن الأخرى (بحيث أن كل فرع ينتج سلعة مستقلة) . وهكذا جعل الغزل بالآلة النسج بالآلة ضروريا ، وكلاهما تطلب انقلابا ميكانيكيا وكيماويا فى عمليات التبييض والطبع والصباغة . ومن جهة أخرى نجد أن الانقلاب فى غزل القطن استلزم كشف الحلج لفصل البذور عن الشعر إذ فى هذه الحالة فقط يمكن لإنتاج القطن أن يبلغ النسب التى لابد منها الآن (١) . والثورة التى أصابت طريقة الإنتاج فى الصناعة والزراعة استلزمت مثلها فى الأحوال العامة لعملية الإنتاج الاجتماعية أى فى وسائط المواصلات والنقل . ففى المجتمع الذى كانت محاوره (حسب تعبير فورييه) عبارة عن الزراعة الصغيرة أولا مع الصناعات المحلية التابعة ، وثانيا الحرف اليدوية التى يمارسها أهل المدن — كانت وسائل المواصلات والنقل لاتلائم مطلقا مطالب عصر الصناعة اليدوية مع ماصحبه من اتساع نطاق تقسيم العمل الاجتماعى ، وتركز وسائل العمل والعمال ، وقيام أسواقها بالمستعمرات — ولهذا كان لابد من انقلاب ـ حدث فعلا ـ فى وسائل المواصلات والنقل . كذلك نجد أن ماتخلف من وسائل النقل والمواصلات السائدة فى عصر الصناعة اليدوية أصبح قيداً لايطاق على الصناعة الكبيرة بما تميزت به من سرعة المحموم فى الإنتاج ، واتساع نطاق مجالاتها ، واطراد نقلها لرأس المال والعمل من أحد ميادين الانتاج إلى الآخر وماصار لها من علاقات حديثة المنشأ فى السوق العالمية . وعلى ذلك نجد أنه إلى جانب التغييرات الواسعة المدى فى بناء السفن الشراعية أمكن بالتدريج أن نجعل وسائل المواصلات والنقل ملاءمة لوسائل الإنتاج فى ظل الصناعة الكبيرة وذلك بالسفن البخارية النهرية والخطوط الحديدية والبواخر عابرة المحيط والتلغراف . وقد أصبح من المتعين الآن صياغة ومزج وقطع وخرق وتشكيل مقادير هائلة من الحديد ، ولهذا بدوره صار لابد من وجود آلات ضخمة ماكان فى الاستطاعة صنعها فى ظل نظام الصناعة اليدوية . وعلى ذلك كان لابد للصناعة الكبيرة من السيطرة على أدوات الإنتاج المميزة لها أى الآلة نفسها ، أى صار عليها أن

(١) حتى وقت حديث جداً تعرضت آلة إيلى هويتنى للحلج إلى تغييرات أساسية أقل منها فى حالة أية آلة أخرى من الآلات القرن الثامن عشر . ولكن أخيراً وبعد سنة ١٨٥٦ أصبحت آلة هويتنى نوعاً قديماً بالنسبة إلى العصر وذلك نتيجة لاختراع اخر اهتدى إليه المستر إمرى الأمريكى من ألبانى التابعة لولاية نيويورك .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تنتج الآلات بواسطة الآلات ، الأمر الذى مكنها من أن تعد لنفسها أساساً فنياً مناسبا وأن تقف على قدميها . وبنمو الصناعة الميكانيكية فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر حازت الآلات بالفعل السيطرة تدريجا على عمل العدد التى تتكون منها الآلة . ولكن فى العقود الحديثة فقط استدعى إنشاء الخطوط الحديدية وبناء عابرات المحيط على نطاق هائل وجود الآلات الضخمة التى تقوم الان بتشييد المحركات الأساسية .

ولصنع الآلات بواسطة الالات كان لا بد من آلة تمد القوة إلى أى مدى ويمكن الإشراف الكامل عليها ، وقد توافر هذا الشرط فى الالة البخارية . ولكن ظل من الضرورى أن نتمكن من أن ننتج بالالة اشد الأشكال الهندسية دقة التى تتكون منها أجزاء الالات ، من أمثال الخطوط المستقيمة والمسطحات والدوائر والأسطوانات والمخاريط والكرات . وقد استطاع هنرى مودسلاى حل المشكلة فى مستهل القرن التاسع عشر وذلك باختراع حركة الانزلاق وهى عدة ما لبثت أن صارت أوتوماتيكية ، وبعد أن كانت فى الأصل مصنوعة من أجل المخرطة سرعان ما استعملت فى غير ذلك من الالات الانشائية بعد أن دخل على شكلها بعض التعديل . وهذا الاختراع الالى لا يحل محل عدة أخرى ولكن محل يد الإنسان ذاتها التى تنتج شكلا مخصوصاً عن طريق مسك واستخدام وتوجيه الأدوات القاطعة التى تستخدم فى حالة الحديد أو غيره من المواد ، وبهذا صار من المستطاع إنتاج الأشكال الهندسية اللازمة للأجزاء الفردية من الالة ، وذلك بقدر من اليسر والدقة والسرعة مما لا يمكن توافره لأحذق عامل مهما كانت درجة الخبرة التى اكتسبها[1] » .

وإذا انتقلنا إلى الالات التى تصنع العدد الميكانيكية لرجعنا إلى أداة عصر الحرفة اليدوية ولكن على نطاق ضخم . ومثال ذلك الجزء العامل من آلة نقب الأرض وهى آلة ضخمة تديرها آلة بخارية وبدونها لا يمكن إنتاج اسطوانات الالات البخارية الضخمة والمكابس المائية . والمخرطة الميكانيكية صورة مائلة الحجم من مخرطة القدم العادية ، وآلة تسوية الخشب الميكانيكية عبارة عن نجار من الحديد يشكل الحديد بنفس العدة التى يستخدمها النجار الآدمى فى تسوية سطح الخشب . وآلة القطع فى أحواض بناء السفن بلندن عبارة عن موسى هائل ،

---

(١) The Industry of Nations (لندن ١٨٥٥ ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٩) . وجاء فى نفس المؤلف أنه برغم ما يبدو فى الظاهر من بساطة وعدم أهمية هذه العدة الملحقة بالمخارط فان أهميتها فى تحسين الآلات وتوسيع مداها كبيرة تضاهى الآثار التى ترتبت على التحسينات التى أدخلت وات فى الآلة البخارية . وقد عمل استخدامها على إتقان الآلات ورخصها وتنشيط الاختراع والتحسين .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والمطرقة البخارية ذات رأس شبيهة برأس المطرقة العادية ، ولكنها من الضخامة بحيث أن ثور Thor نفسه لم يستطع استعمالها(١). فثمت مطرقة بخارية زنتها أكثر من ستة أطنان وتهوى بحركة رأسية مقدارها ٧ أقدام على سنديان زنته ٣٠ طناً ، وإن سحق كتلة من الجرانيت بهذه الالة شبيه بعمل سهل يقوم به الطفل . ولكن مطرقة Nasmyth قادرة على إحداث دقات خفيفة تستطيع دفع مسمار فى قطعة من الخشب اللين(٢) .

حينما تتخذ أدوات العمل شكل آلات ميكانيكية فانها تكتسب نوعاً من الوجود المادى ينطوى على إحـــلال قوى الطبيعة محل القوة الآدمية . إن تنظيم عملية العمل الاجتماعية فى الصناعة اليدوية عملية ذاتية بحتة واتحاد من عمال يؤدون المسائل التفصيلية ، أما فى الصناعة الميكانيكية فللصناعة الكبيرة جهاز إنتاجى موضوعى يحت لا يزيد فيه العامل عن أن يكون شيئاً ملحقاً بأحوال الانتاج المادية القائمة . وفى التعاون البسيط ، بل وفى التعاون القائم على تقسيم العمل تجد إن إحلال العامل الجماعى محل العامل المنعزل مسألة تتعلق بالصدفة ، ولكن الآلات لا يمكن تشغيلها إلا بواسطة العمل المتحد أو المشترك ـ اللهم إلا إذا استثنينا حالات قليلة سنذكرها فى موضعها المناسب . لقد أصبح الطابع التعاونى لعملية العمل فى نظام الالات machine system ضرورة فنية تفرضها نفس طبيعة وسائل العمل .

(٢) القيمة التى تنقلها الآلات الى المنتج

رأينا أن ازدياد إنتاجية العمل نتيجة التعاون وتقسيم العمل لا يكلف الرأسمالى شيئاً ، إذ هذه هى القوى الطبيعية للعمل المتحد أو المشترك . كذلك فان القوى الطبيعية كالبخار والماء مما يصلح للاستعمال فى العمليات الإنتاجية لا تكلف شيئاً . ولكن كما أن الإنسان يحتاج رئتين كبيرتين قبل أن يستطيع التنفس ، كذلك يشعر بالحاجة إلى شىء من صنع أيدى الإنسان قبل أن يتمكن من استهلاك قوى الطبيعة للعمليات الإنتاجية ، فلا بد من عجلة مائية لاستغلال قوة الماء المحركة ومن آلة بخارية للاستفادة من مرونة البخار . وما ينطبق على قوى الطبيعة ينطبق بالمثل على العلم . فنحن لم نتكلف شيئاً بكشف القانون الخاص بانحراف الإبرة المغناطيسية فى

---

(١) بلندن مطرقة بخارية تحمل اسم Thor وتستطيع أن تصوغ عامود محوريزن ١٦ طن بنفس السهولة التى يصوغ بها الحداد حدودة الحصان

(٢) إن الآلات المصنوعة للشغل على الخشب ويمكن استخدامها على نطاق صغير ، هى اختراعات أمريكية فى الغالب .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حقل التيار الكهربى أو القانون الذى بمقتضاه نعلم أن قطعة الحديد تتمغطس إذا دار حولها تيار كهربى (١). ولكن إذا ما انتقل الأمر إلى استخدام هذه القوانين فى التلغراف الخ تطلب الأمر جهازاً دقيقاً كثير الكلفة . لقد رأينا أن الآلات لا تقضى على العدة ، وكل ما يحدث أن العدة وهى أداة ضئيلة الحجم فى أيدى الإنسان تكبر وتتسع وتتضاعف لتصبح إحدى أدوات جهاز آلى من خلق الإنسان ، ويحمل رأس المال الآن العمال على أن يشتغلوا بآلة تحرك عددها بدلا من أن يحملهم على العمل بعدد يدوية . وعلى ذلك إذا وضح منذ أول نظرة أن الصناعة الكبيرة لا بد أن تزيد من إنتاجية العمل عن طريق استخدام قوى طبيعية هائلة والاستعانة بالعلوم الطبيعية فى أغراض الإنتاج ، وضح كذلك أن هذه الإنتاجية المتزايدة لا تستلزم مقابلا لها عن طريق الزيادة فى بذل العمل . إن الآلات ، كبقية عناصر رأس المال الثابت ، لا تخلق قيمة ولكنها تنقل قيمتها إلى المنتج الذى تشترك فى إخراجه وبذا تكون أحد عناصر قيمته . وبدلا من أن تؤدى إلى رخصه فانها تجعله أغلى بالنسبة إلى قيمة الآلة . ومن الواضح أن الالات أى وسائل العمل التى تستخدمها الصناعة الكبيرة أكبر قيمة بالقياس إلى وسائل العمل التى كان العمال يستخدمونها فى الصناعة اليدوية . وينبغى لى أولا أن أوضح أن الالات تدخل بصفة جزئية فى عملية خلق القيمة ، فهى لا تضيف من القيمة أكثر مما تفقده منها عن طريق التآكل . وعلى هذا فثمت فارق عظيم جدا بين قيمة الآلة والقيمة التى تنتقل من الآلة إلى المنتج من وقت لآخر ، أى بين الآلة كعامل من عوامل تكوين القيمة وبينها كعامل من عوامل تكوين المنتج . ويعظم هذا الفرق بازدياد طول الفترة التى يتكرر خلالها استخدام نفس الالات فى نفس عملية العمل . وقد رأينا بطبيعة الحال أنه بينما تدخل وسيلة العمل أى أداة الإنتاج بكليتها فى عملية العمل فانها تدخل عمليه خلق القيمة بالتدريج أى بنسبة ما تفقده يومياً بطريق التآكل . ولكن الفارق بين الاستعمال والبلى أعظم فى حالة الآلات منه فى حالة العدة اليدوية وذلك راجع إلى أسباب متعددة منها متانة المادة المصنوعة منها الآلة ، وتنظيم الآلة وفق قوانين علمية دقيقة مما يسمح بالوفر فى استهلاك أجزائها وفى بذل ما تستهلكه من وسائل ، وأخيراً لاتساع ميدان الإنتاج بالقياس إلى ما هو عليه فى حالة

---

(١) يمكن القول بوجه عام أن العلم لا يكلف الرأسمالى شيئاً وهذه حقيقة لا تحول بينه وبين استغلال العلم ، فرأس المال يضم إلى نطاق علم الغير أسوة بما يعمله من الاستحواذ على عمل الآخرين . ولكن الاستحواذ الرأسمالى والشخصى سواء على العلم أو الثروة المادية ، شيئان متمايزان . وحتى الدكتور يور نفسه يأسف للجهل الفاضح بالعلوم الميكانيكية الذى يبديه أرباب المصانع الذين يستعملون آلات عزيزة على نفسه بقصد الاستغلال ، ولدى لبيج الكثير عن الجهل المدهش من جانب أصحاب المعامل الكيمائية البريطانيين فى كل ما يتعلق بعلم الكيمياء .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العدة اليدوية . وإذا تسامحنا فى كلا حالتى الالة والعدة اليدوية بشأن ما ينقلانه يومياً من قيمة بتسبب البلى والتآكل وباستهلاك المواد المساعدة الإضافية كالزيت والفحم الخ لرأينا أنها يقوديان عملهما بلا مقابل ، شأنهما فى ذلك شأن القوى الطبيعية التى تعمل دون المساعدة من جانب العمل الإنسانى . وكما أن ميدان عمل الالة الإنتاجى أعظم منه فى حالة العدة اليدوية فكذلك تؤدى خدمة غير مربحة أعظم نسبيا إذا قيست بنفس هذه الخدمة التى تؤديها العدة اليدوية . إن الناس لا ينجحون فى أن يجعلوا منتجات عملهم الماضى تعمل مجانا على نطاق واسع كقوى الطبيعة إلا بعد استقرار الصناعة الكبيرة وثبات قواعدها(١).

حينما كنا نبحث موضوع التعاون والصناعة اليدوية رأينا أن بعض عوامل الإنتاج العامة كالمبانى الخ يمكن الاقتصاد فيها بالقياس إلى عوامل الإنتاج المتناثرة فى أيدى العمال المتفرقين ، وذلك بفضل الاستهلاك المشترك بحيث أنها تضيف إلى المنتج نفقة أقل مما تضيفه لو أن الاستهلاك ظل متفرقا . وفى نظام الإنتاج بالالات لا يقف الأمر عند حد استعمال الجسم الرئيسى لالة العمل بواسطة عدده الكثيرة ، بل إن آلات التشغيل الكثيرة تقوم بالاستهلاك المشترك لنفس جهاز الحركة وجانب من جهاز النقل .

وإذا علمنا الفرق بين قيمة الالات ومقدار القيمة الذى تنقله إلى منتجها اليومى فإن الدرجة التى بها يجعل ذلك الجزء المنقول من القيمة المنتج أغلى إنما يتحدد أولا بمقدار ذلك المنتج أى سطحه إذا صح القول . وفى محاضرة منشورة سنة ١٨٥٨ قدر المستر بينس من بلا كبيرن أن «كل حصان بخارى ميكانيكى حقيقى يدير ٤٥٠ مغزلا من مغازل آلة البغلة مع التجهيز ، أو ٢٠٠ من مغازل آلة اللف والثنى ، أو ١٥ نول لكل ٤٠ ياردة من القماش مع مايلزم من أدوات التحريف والترتيب حسب الحجم الخ» . ومعنى هذا أن نفقة الحصان البخارى اليومية وتآكل الالات التى تحركها تلك القوة يوزعان فى الحالة الأولى على المنتج اليومى لأربعمائة وخمسين مغزلا من مغازل الفتلة ، وفى الحالة الثانية على منتج ٢٠٠ من

---

(١) يوجه ريكاردو اهتماماً كثيراً لهذا الأثر من جانب الآلات بحيث أنه لا يرى القيمة التى تنتقل من الآلة إلى المنتج ، كما أنه يجعل فعلا الآلات فى نفس مستوى قوى الطبيعة (برغم أنه فى مناسبات أخرى لا يلاحظ هذا كما يغفل ملاحظة الفرق بين عملية العمل وعملية خلق القيمة) . ولهذا يقول ,, إن آدم سميث لا يقال من قيمة الخدمات التى تؤديها العوامل الطبيعية والآلات لنا . ولكنه يميز بحق طبيعة القيمة التى تضيفها هذه العوامل والآلات إلى السلع ... فكما أنها تعمل مجانا فان المساعدة التى تمدنا بها لا تضيف شيئاً إلى القيمة فى التبادل ،، (ريكاردو : مصدر سابق ص ٣٣٦ — ٣٣٧) . وهذه الملاحظة من جانب ريكاردو صحيحة من ناحية كونها موجهة ضد ج . ب . ساى الذى يتوهم أن الآلات تؤدى ,, خدمة ،، وهى خلق القيمة التى تكون جانباً من ,, الأرباح ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مغازل الآلة الثانية ، وفى الحالة الثالثة على منتج ١٥ نول بخارى ، وتكون النتيجة أن جزءاً صغيراً جداً من القيمة ينقله مثل هذا البلى إلى رطل من الغزل أو باردة من القماش . وإذا علمنا ميدان أو مجال عمل آلة التشغيل فإن كمية المنتجات تتوقف على السرعة التى تشتغل بها الآلة أى على سرعة دوران المحور أو عدد ضربات المطرقة فى الدقيقة . فكثير من هذه المطارق الضخمة تضرب ٧٠ مرة فى الدقيقة ، وآلة ريدر التى تصنع المغازل وتستخدم لهذا الغرض مطارق بخارية صغيرة تبلغ عدد دقاتها ٧٠٠ فى الدقيقة الواحدة . وإذا علمنا المعدل الذى بمقتضاه تنقل الآلات قيمتها إلى المنتج فإن مقدار القيمة المنقول على هذا النحو يتوقف على حجم قيمة الآلات ذاتها (١) ، فكلما قل ماتحتويه من عمل قل ماتنقله من قيمة إلى المنتج ، وكلما قل ماتنقله من قيمتها كلما كانت أكثر إنتاجية وكلما اقتربت من أن تشابه قوى الطبيعة فى خدماتها . ولكن إنتاج الآلات بالآلات يقلل قيمتها بالنسبة إلى مداها وكفايتها . وإذا قمنا بتحليل مقارن لأثمان السلع التى تنتجها الحرف اليدوية أو الصناعة اليدوية من جهة ولأثمان نفس السلع التى تنتجها الصناعة الميكانيكية من جهة أخرى لوجدنا أنه فى الحالة الأخيرة يزداد مقدار ماتنقله وسائل العمل من قيمة بطريقة نسبية ولكنه يقل بصفة مطلقة ، ومعنى هذا أن حجمه المطلق ينقص بينما يزداد حجمه بالنسبة إلى قيمة المنتج العامة كرطل من الغزل مثلا (٢) .

---

(١) والقارىء الذى أصح على علم بطريقة الرأسمالى فى النظر إلى الأشياء يدهش بطبيعة الحال إذ لا يجد هنا ذكراً ,, للفائدة ،، التى تنقلها الآلة إلى المنتج بمقدار متناسب مع قيمتها التى تحولت إلى رأس مال . ولكن من السهل أن نرى أن الآلة التى لا تستطيع أى تخلق قيمة جديدة أكثر مما يفعل أى عناصر رأس المال الثابت الأخرى ، لا يمكن أن تخلق أية قيمة باسم ,, الفائدة ،، . وواضح كذلك أنه حيث نعنى هنا بإنتاج القيمة الفائضة لا يمكننا أن نفترض وجود أى جزء من تلك القيمة تحت اسم ,, الفائدة ،، . وسنوضح فى الكتاب الثالث من هذا المؤلف الطريقة الرأسمالية فى حساب الأشياء والتى تبدو فى ظاهرها سخيفة ومتعارضة مع قوانين إنتاج القيمة .

(٢) إن تلك النسبة من القيمة التى تنقلها الآلة تتناقص من الوجهتين المطلقة والنسبية حين تستغنى الآلة عن الخيل والحيوانات الأخرى التى تستخدم مجرد قوة محركة لا كآلات لتغيير أشكال المادة . ويصح أن أشير إلى أن ديكارت حين عرف الحيوانات بأنها مجرد آلات إنما فعل ذلك لأنه كان ينظر إليها من وجهة نظر عصر الصناعة اليدوية لا من وجهة نظر العصور الوسطى حين كان الناس ينظرون إلى الحيوانات على أنها مساعدة للانسان وذلك شبيه برأى نون هالو فيما عدى كتابه Restauration der Staatsweissensehaften — وكان ديكارت يتوقع ، كما فعل فرنسيس بيكون ، حلول الوقت الذى يتغير فيه شكل الانتاج وتزداد سيطرة الانسان على الطبيعة ، نتيجة تغيير فى طرق التفكير ، وهذا ظاهر من مؤلفه Discours de la Methode حيث نقرأ أنه بفضل الطريقة التى يريد اتباعها فى الفلسفة ,,يمكن إدراك المعرفة التى تكون غاية فى النفع للحياة بحيث ==

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وواضح أنه حينما يتكلف إنتاج الآلة نفس القدر من العمل الذى يوفره استعمالها نجد أن المقدار الكلى من العمل اللازم لإنتاج سلعة لا يقل كما لا تزيد إنتاجية العمل . ولكن الفرق بين العمل الذى تتكلفه الآلة والعمل الذى توفره أى درجة إنتاجيتها ، يتوقف على الفرق بين قيمتها وقيمة العدة اليدوية التى حلت الآلة محلها . فطالما أن العمـــل المبذول فى إنتاج آلة وبالتالى طالما أن مقدار القيمة الذى تنقله الالة إلى منتجها أقل من القيمة التى يضيفهـا العامل إلى المنتج بواسطة العدة التى لديه ، فإن هناك دائماً فرقا فى العمل الذى توفر لصالح الآلة ، وعلى ذلك تقاس إنتاجية الآلة بمدى حلولها محل قوه العمل الإنسانية . ويحدثنا مستر بينس أنه لابد من ٢ ½ عامل [1] لكل ٤٥٠ من مغازل آلة البغلة مع الالات التحضيرية تديرها قوة حصان بخارى واحد ، وكل مغزل ينتج ١٣ أوقية من الغزل فى ١٠ ساعات . ونتيجة لهـذا يغزل عاملان ونصف عامل ٣٦٥ رطلا فى الأسبوع . ولتبسيط الأمر نرى أن ٣٦٦ رطلا من القطن تمتص فى تحولها إلى غزل ١٥٠ ساعة عمل أى ١٥ يوم طول كل منها ١٠ ساعات ، بينما تمتص نفس الكمية ٢٧٠٠٠ ساعة عمل أى ٢٧٠٠ يوم كل منها ١٠ ساعات وذلك فى حالة ما إذا كان الغزال اليـدوى ينتج بواسطة عجلة الغزل ١٣ أوقية فى ٦٠ ساعة[1] وتستطيع الة

= أنه بدلا من هذه الفلسفة النظرية التى تدرس فى المدارس سنجد فلسفة عملية نستطيع عن طريقها أن نعرف قوة وفعل النار والماء والهواء والنجوم وكافه الأشياء المحيطة بنا فضلا عن معرفتنا بمختلف الحرف التى يمارسها الصناع ، وبهذا يصير فى استطاعتنا استخدامها لادراك الغايات التى تناسبها هذه الأشياء ويصبح السادة المسيطرين على الطبيعة ،، وهكذا ،، نساهم فى الوصول بالحياة الانسانية منزلة الكمال ،، — وفى مقدمة كتاب Discoursos upon Trade (١٦٩١) للسير دلى تورث يقال لنا أن تطبيق طريقة ديكارت على الاقتصاد السياسى قد بدأ فى تحرير ذلك العلم من الخرافات والترهات القديمة عن النقود والتجارة الخ . ويمكن القول بوجه عام أن الاقتصاديين الأوائل استمدوا فلسفتهم من بيكون وهوبز ، أما بعد ذلك فقد أصبح لوك ،، فيلسوف ،، الاقتصاد السياسى بالنسبة إلى انجلترا وفرنسا وإيطاليا .

(١) جاء فى التقرير السنوى الذى أصدرته الغرفة التجارية فى إمن (أكتوبر ١٨٦٣) إنه قد تم سنة ١٨٦٢ إنتاج ١٣,٠٠٠,٠٠٠ من الصلب الزهر بمصانع كروب للصلب التى تحتوى على ١٦١ فرن ، ٣٢ آلة بخارية ، ١٤ مطرقة بخارية (تمثل ١٢٣٦ حصاناً بخارياً) ، ٤٠ ورشة ، ٢٠٣ من آلات التحريك ، وحوالى ٢٤٠٠ عامل — وهنا لا نجد عاملين لكل حصان بخارى . أما عن الآلات البخارية البالغ عددها ٣٢ بمصانع كروب فعلينا أن نذكر أن هذا الرقم يمثل العدد الكلى من الآلات البخارية فى منشستر كلها .

(١) يقدر Babbage أن الغزل وحده تقريباً (بجاوه) يضيف ١١٥ ٠/٠ إلى قيمة القطن . وفى نفس التاريخ (١٨٣٢) بلغت القيمة الكلية التى أضافتها الآلات والعمل إلى القطن فى صناعة الغزل الرفيع حوالى ٣٣ ٠/٠ من قيمة المادة الخام (On the Economy of Machinery ص ٢١٤).

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.